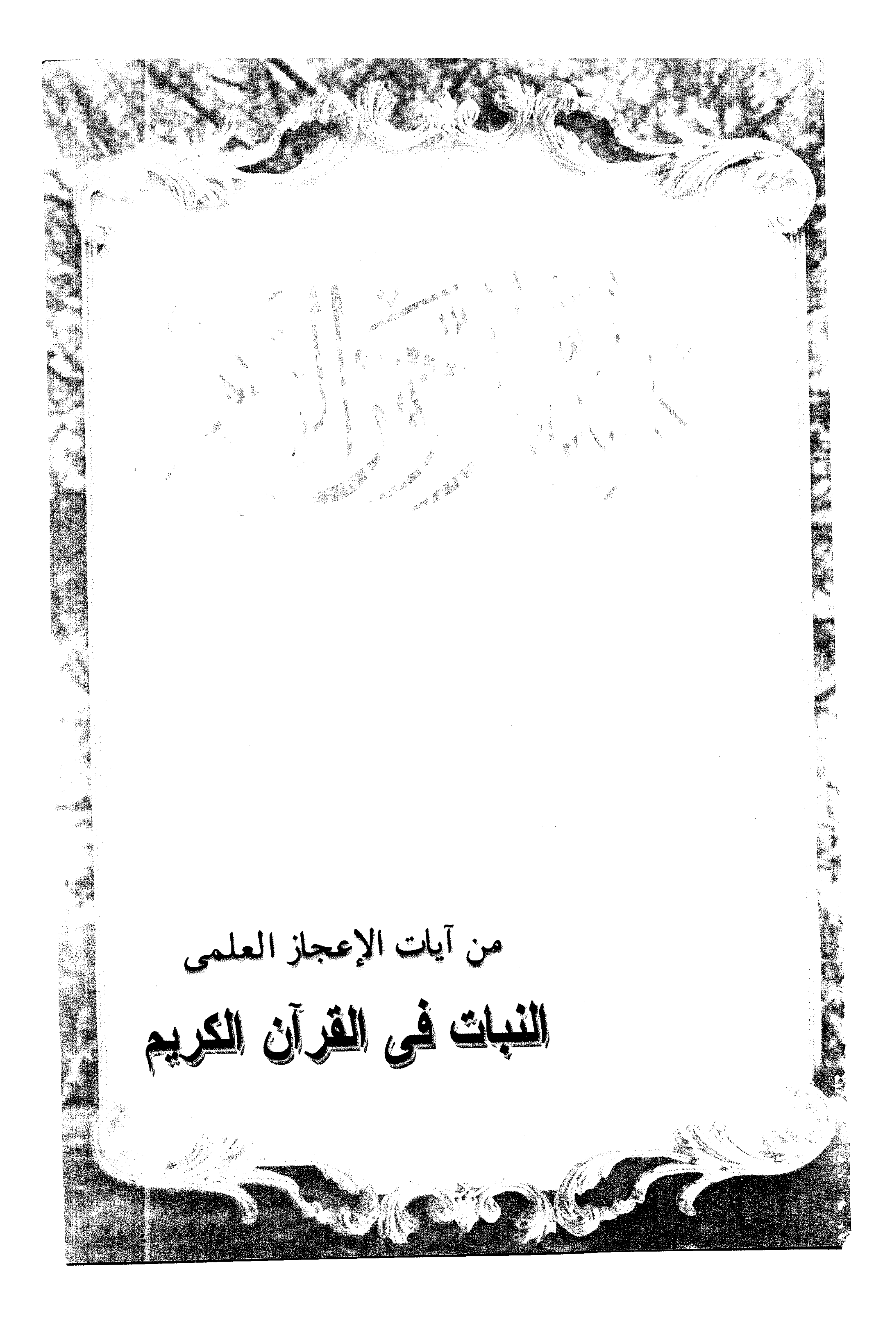
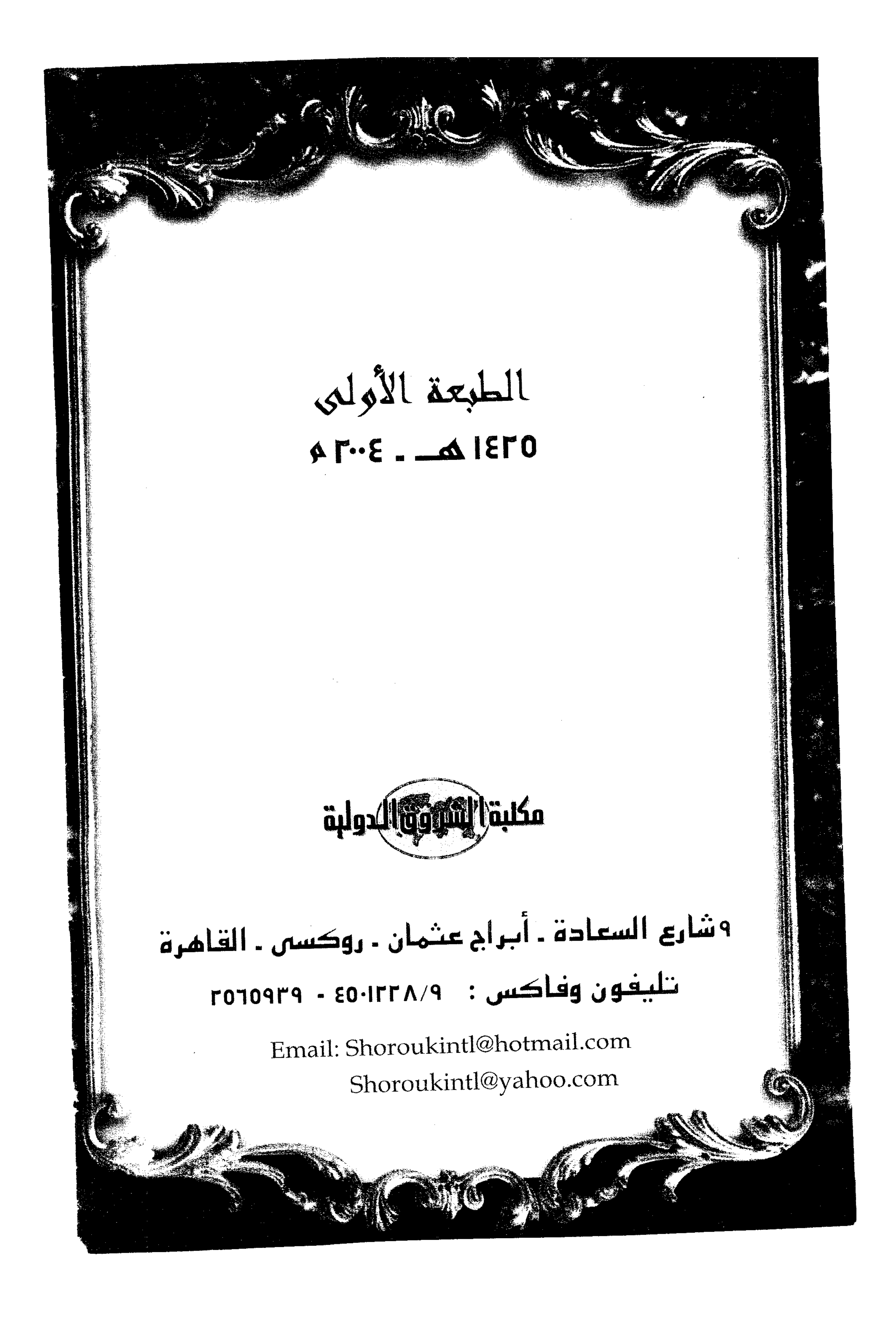


من آيات الإعجاز العلمى

النبات فى القرآن الكريم



الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

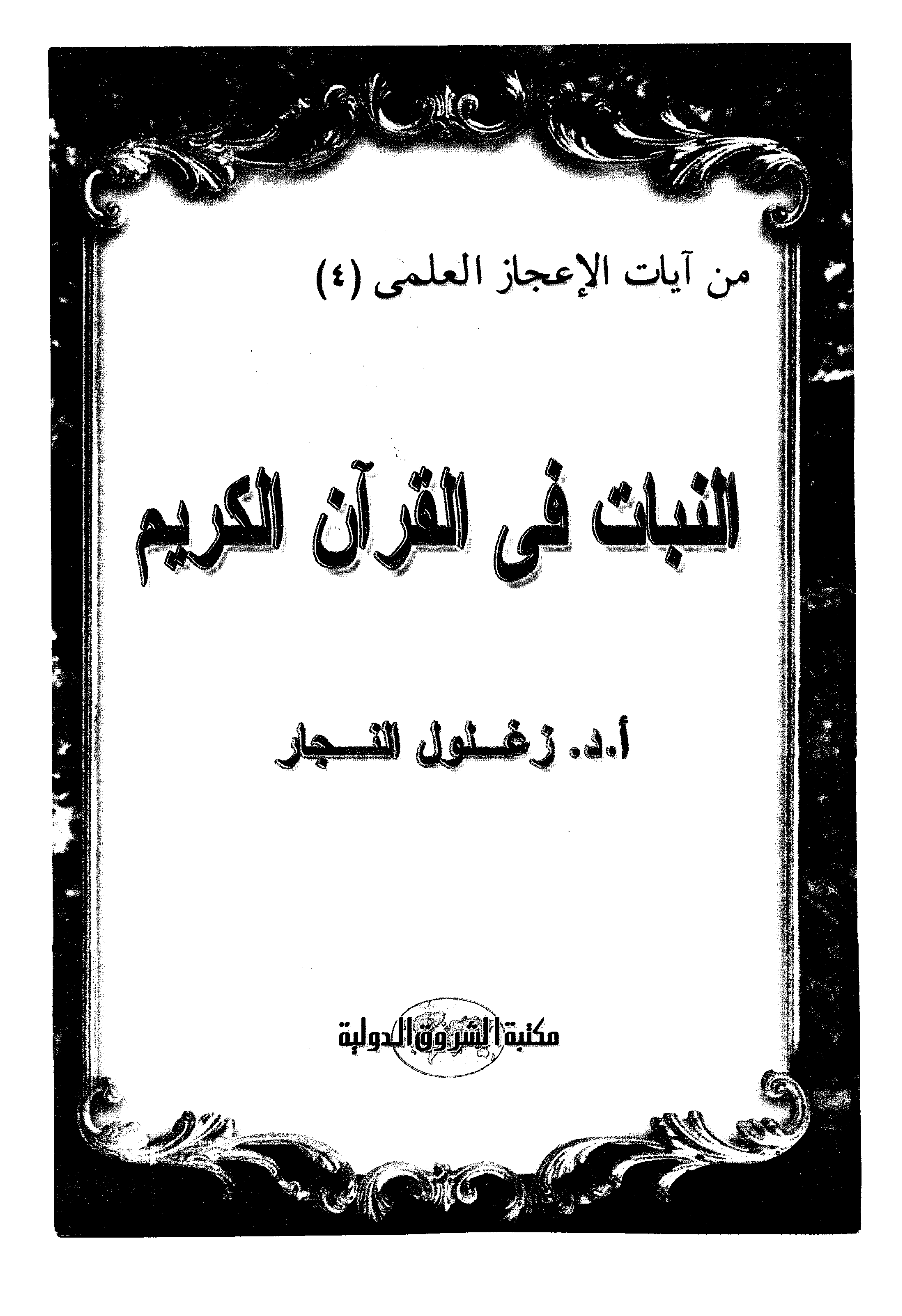
مكتبة الشروق الدولية

٩ شارع السعادة - أبراج عثمان - روكسي - القاهرة

تليفون وفاكس : ٤٥٠١٢٢٨/٩ - ٢٥٦٥٩٣٩

Email: Shoroukintl@hotmail.com

Shoroukintl@yahoo.com

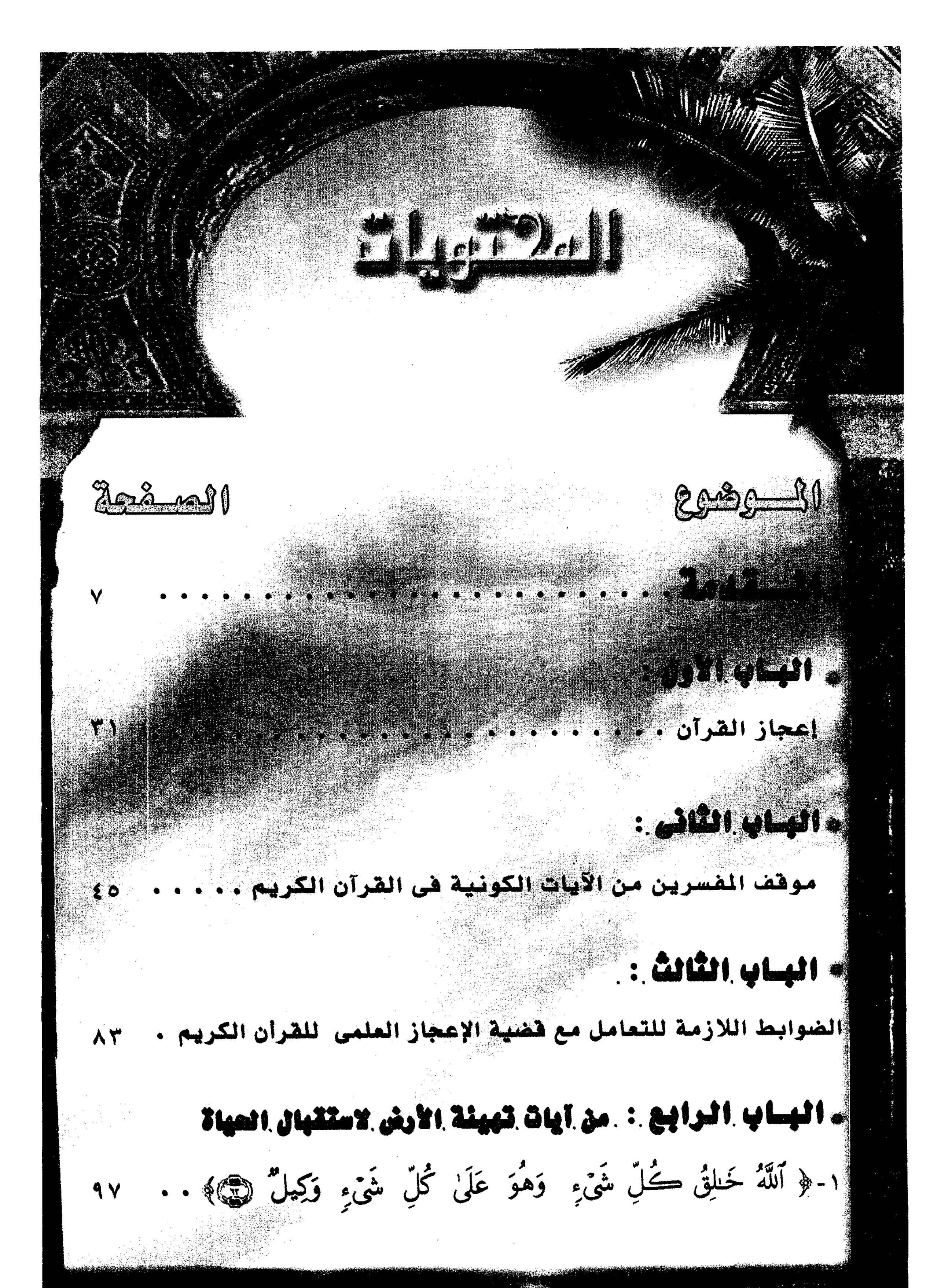


من آيات الإعجاز العلمى (٤)

النبات فى القرآن الكريم

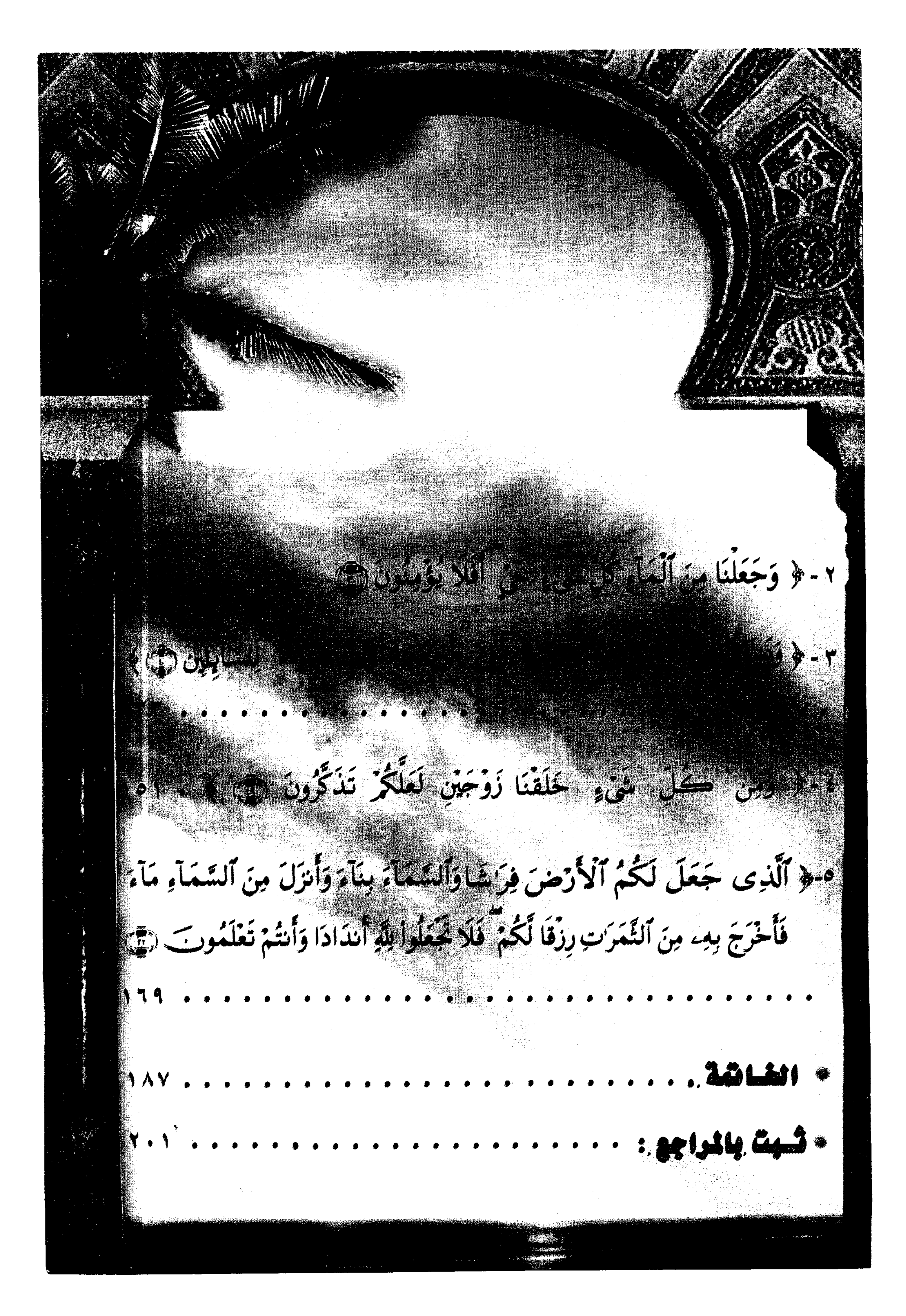
أ.د. زغلول النجار

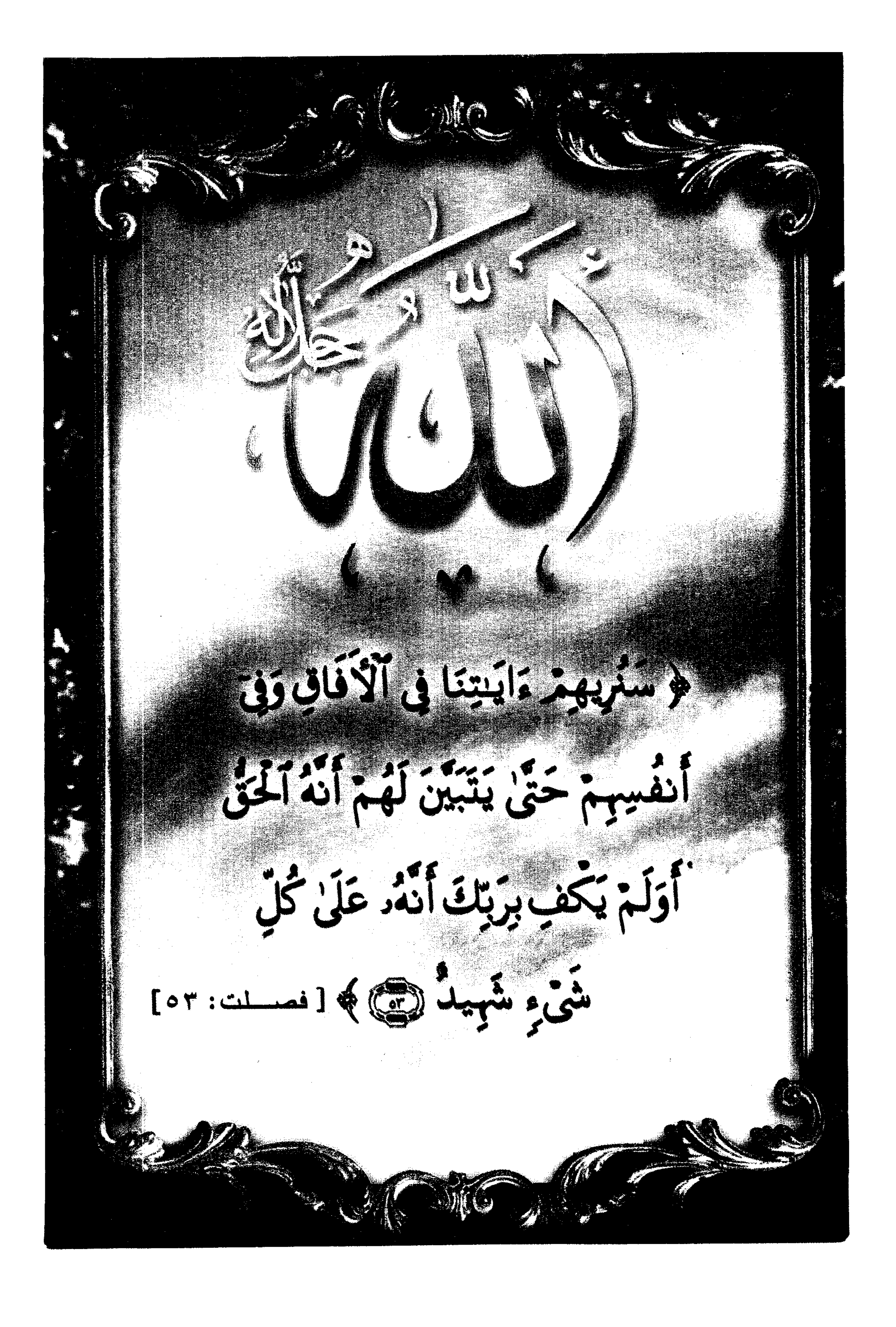
مكتبة الشروق الدولية



المحتويات

الموضوع	الصفحة




الله جل جلاله
﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت : ٥٣]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونؤمن به ونتوكل عليه، ونثنى عليه الخير كله، ونصلى ونُسلم على كافة أنبياء الله ورسله أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ونخص منهم بأفضل الصلاة وأزكى التسليم خاتمهم أجمعين سيدنا محمد بن عبد الله النبى الأمين، الذى ختم الله ببعثته النبوات، وأكمل برسالته الرسالات، وأتمها جميعًا فى محكم كتابه - القرآن الكريم - الذى أنزله بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله وتعهد بحفظه فى نفس لغة وحيه - اللغة العربية - فحفظه حفظًا كاملاً: كلمة كلمة، وحرفًا حرفًا، وآية آية، وسورة سورة، بنفس الترتيب الذى نجده مكتوبًا فى بلايين النسخ من المصحف الشريف، ومدونًا فى وسائل التسجيل المختلفة، ومحفوظًا فى صدور البلايين من الحفَّاظ منذ أربعة عشر قرنًا وإلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين حمدًا يليق بجلاله، وتنزيهًا له عن كل وصف لا يليق بهذا الجلال الإلهى المقدس والمنزه عن جميع أوصاف خلقه.

وبعد: فلما كان القرآن الكريم هو الصورة الوحيدة من كلام رب العالمين المحفوظة بين أيدى الناس اليوم بنفس لغة وحيها - اللغة العربية - كان هذا الكتاب الكريم معجزًا فى كل أمر من أموره؛ لأنه لا بد وأن يكون مغايرًا لكلام البشر، فهو معجز فى بيانه ونظمه؛ لأنه ليس بالشعر ولا بالنثر، ولكنه نمط من العربية فريد، وصياغة متميزة، لم يدركها فُصحاء العرب وبلغاؤهم وهم فى قمة من قمم الفصاحة والبلاغة وحُسن البيان، وعجزوا عن الإتيان بشىء من مثله.

وبما أن القرآن الكريم هو بيان من الله - تعالى - فلا بد وأن يكون كل ما فيه حقّا مطلقًا: حديثه عن العقيدة (وهى غيب مطلق)، وعن العبادة (وهى أوامر إلهية محضة)، وعن كلّ من الأخلاق والمعاملات (وهى ضوابط للسلوك). والتاريخ يؤكد لنا أن الإنسان كان عاجزًا دومًا عن وضع ضوابط فى أىٍّ من هذه القضايا لنفسه بنفسه.

وكذلك إشارات القرآن الحكيم إلى الكون ومكوناته وبعض أشيائه وظواهره (لأنه كلام الخالق، ومن أدرى بالخلق من خالقه؟!)، واستعراضه لسير أعداد من الأنبياء السابقين، والأمم البائدة التى لم يدون لنا التاريخ شيئًا عنها، والاكتشافات الأثرية المتتابعة تثبت صدق القرآن فى جميع ما أورد.

والقرآن الكريم هو أيضًا معجز فى دستوره التربوى الفريد، وفى خطابه إلى النفس الإنسانية وارتقائه بها فى معارج الله العليا إلى ما لا يمكن لأى خطاب آخر أن يصل، وفى إنبائه بعدد من الغيوب التى تحققت من قبل ولا تزال تتحقق، وفى تحديه للإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بسورة من مثله دون أن يتمكن عاقل من التقدم ليقول: نعم لقد استطعت أن أكتب سورة من مثل سور القرآن الكريم.

وعلى ذلك تتعدد جوانب الإعجاز القرآنى (بمعنى عجز البشر عن الإتيان بشىء من مثله) بتعدد الزوايا التى ينظر منها إنسان محايد إلى كتاب الله، ومن هذه الجوانب:

١ - الإعجاز اللغوى، الأدبى، البيانى، البلاغى، النظمى، اللفظى، والدلالى.

٢ - الإعجاز العقدى (الاعتقادى).

٣ - الإعجاز التعبدى (العبادى).

٤ - الإعجاز الأخلاقى (بمعنى مواءمته للطبيعة البشرية بغير غلو ولا إقلال كما يتضح فى ضوابط السلوك).

٥ - الإعجاز التشريعى (كما يتضح فى فقه المعاملات).

٦ - الإعجاز التاريخى (الذى تؤكده الاكتشافات الأثرية للأمم البائدة التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم).

٧ ـ الإعجاز التربوى.

٨ ـ الإعجاز النفسى.

٩ ـ الإعجاز الاقتصادى.

١٠ ـ الإعجاز الإدارى.

١١ ـ الإعجاز التنبؤى (الغيبى).

١٢ ـ الإعجاز العلمى.

١٣ ـ إعجاز التحدى للإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بشىء من مثله فى أسلوبه، أو مضمونه، أو محتواه، ولم يتمكن أحد من ذلك.

١٤ ـ إعجاز حفظه بنفس لغة وحيه (اللغة العربية) على مدى أربعة عشر قرنًا أو يزيد (وإلى قيام الساعة) دون أن يضاف إليه حرف واحد أو أن ينتقص منه حرف واحد، فى الوقت الذى تعرضت فيه كل صور الوحى السابقة للضياع، وما بقى من ذكريات بعضها على هيئة ترجمات (غير معلوم من كتبها، ولا متى كُتبَتْ ولا أين كُتبَتْ، ولا بأى لغة كُتبَتْ؟) قد تَعَرَّض للتحريف تلو التحريف، والَتحرير بعد التَحرير، وإلى التبديلَ والتغيير، وإلى الحذف والإضافة، وإلى غير ذلك، من صور الاختلاف الذى لا يزال مستمرًا إلى يومنا هذا، مما أخرج تلك الرسالات السماوية السابقة عن إطارها الربانى، وجعلها عاجزة عن هداية أصحابها، وهذا هو السبب الحقيقى من وراء المظالم العديدة التى تجتاح مختلف بقاع الأرض اليوم، وتغرقها فى بحار من الدماء والأشلاء، والخراب والدمار باسم الدين، والدين الحقيقى منها براء. وليس أدل على ذلك من الجرائم البشعة التى ترتكب باسم اليهودية على أرض فلسطين منذ أكثر من خمسين سنة وحتى اليوم، والجرائم التى ارتكبت ولا تزال ترتكب بشراسة منقطعة النظير على أرض كل من البلقان، والعراق، وأفغانستان، والشيشان، وجنوب السودان وجنوب الفيليپين باسم المسيحية، والجرائم التى ارتكبت ولا تزال ترتكب على أراضى الهند، وتايلاند باسم كل من الهندوكية والبوذية، والجرائم التى ارتكبت ولا تزال فى كثير من

أراضى المسلمين فى القديم والحديث وذكريات الحروب الصليبية، وجراح خروج المسلمين من الأندلس لا تزال تدمى قلوب كل إنسان عنده بقية من إنسانية.

ولهذه المفاضلة بين كتب تركت لأصحابها فضيعوها، وكتاب تعهد الله بحفظه فحُفظ، امتدح ربنا - تبارك و تعالى - القرآن الكريم فى العديد من آياته والتى منها قوله - عز من قائل -:

* ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢].

* ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

* ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

* ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢].

* ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

* ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣-١٤].

* ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: ١].

* ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

* ﴿هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

* ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩].

* ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ [الحجر : ٨٧].

* ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء : ٨٨].

* ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴾ [الكهف : ١].

* ﴿ طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣) تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴾ [طه : ١ ـ ٤].

* ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج : ٥٤].

* ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [الفرقان : ١ ـ ٢].

* ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾

[الفرقان : ٦].

* ﴿ الٓمٓ (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [السجدة : ١ ـ ٣]

* ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [سبأ : ٦].

* ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾ [الزمر : ١ ـ ٢].

* ﴿ حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت : ١ ـ ٣].

* ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١ ـ ٤٢].

* ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧].

* ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى: ١٧].

* ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣].

* ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ [ق: ١].

* ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٣ ـ ٣٤].

﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢].

والقرآن الكريم هو فى الأصل كتاب هداية فى أمر الدين بركائزه الأربع الأساسية: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات. ولكن الله ـ تعالى ـ يعلم بعلمه المحيط أن الإنسان سوف يصل فى يوم من الأيام إلى زمن كزمننا الراهن، يفتح الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيه على الإنسان من معرفة بالكون وسننه ما لم يفتح من قبل، فيغتر الإنسان بالعلم ومعطياته وتطبيقاته فى مختلف المجالات مما أوصل الإنسان إلى عدد من التقنيات المتقدمة خاصة فى مجالات الشر من مثل التجسس، وصناعة الأسلحة غير التقليدية مما يعرف باسم أسلحة الدمار الشامل، والتطوير المذهل فى القدرات التدميرية للأسلحة التقليدية، ومحاولة توظيف ذلك فى الهيمنة على الشعوب الصغيرة واستنزاف ثرواتها، وإذلال أبنائها. كما تفعل كل من الولايات المتحدة وبريطانيا فى هذه الأيام. وقد دفعت القوة المادية العمياء المصاحبة

لهـذه التـقنيـات المتطورة أبناء هذه الأمم إلى نسـيان الموت، والحسـاب، والآخـرة، والجنة، والنار، خاصة وأن هذه المفاهيم وغيرها من ركائز العقيدة قد اهترأت اهتراء شـديداً فى معـتـقـدات غـيـر المسلمين، مما دفع كـثـيـراً من علمـائهم إلى إنكارها، والسخرية منها. ولكى يقيم ربنا - تبارك وتعالى - الحجة على أهل عصرنا، أبقى لنا فى محكم كتابه أكثر من ألف آية كونية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى تقترب دلالتها من الصراحة، وهذه الآيات القرآنية تحوى من الإشارات الكونية ما لم يكن معروفًا لأحد من الخلق فى زمن الوحى، ولا لقرون متطاولة من بعد زمن الوحى، وذلك لأهداف عديدة منها ما يمكن إيجازه فيما يلى:

أولاً: الشهادة للخالق بطلاقة القدرة فى إبداعه لخلقه، ومن ثم الشهادة له - سبحانه وتعالى - بالألوهية، والربوبية، والوحدانية؛ لأن كل شىء فى هذا الوجود قد خلق بقدر، وفى زوجية واضحة تشهد للخالق (سبحانه وتعالى) بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

ثانيًا: الشهادة لله - تعالى - أنه كما أبدع هذا الكون من العدم، وعلى غير مثال سابق، فهو قادر على إفنائه إلى العدم، وعلى إعادة خلقه من جديد، خاصة وأننا نرى الخلق من العدم والإفناء إلى العدم يتكرر أمام أنظارنا فى صفحة السماء، حيث تتباعد المجرات عن بعضها البعض بمعدلات تقترب من سرعة الضوء، وتتخلق المادة والطاقة لملء المسافات الناتجة عن هذا التوسع من حيث لا نعلم. كذلك فإننا نرى مختلف صور المادة والطاقة تُبتلع بواسطة النجوم الخانسة الكانسة (الثقوب السود) إلى حيث لا نعلم، ونرى التقاء اللبنات الأولية للمادة بأضدادها فتفنى إلى ما لا نعلم..!!

وعلى الرغم من ذلك بقيت قضية البعث وإنكار إمكانية وقوعه هى الحجة الرئيسية للكفار والملحدين، وللحائرين المتشككين؛ لأنهم من جهلهم يقيسون على الله - تعالى - بمقاييس البشر، والبشر لا يقدرون على الخلق، ولا على البعث بعد الموت، بينما إرادة الله - تعالى - لا تحدها حدود، ولا يقف أمامها عائق.

ثالثًا: هذه الإشارات الكونية فى القرآن الكريم قد صيغت صياغة مجملة معجزة يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعانى يتناسب مع ما توافر لهم من علم بالكون

ومكوناته، وتظل هذه المعانى تتسع باتساع دائرة المعرفة الإنسانية باستمرار فى تكامل لا يعرف التضاد، حتى يبقى القرآن الكريم مهيمنًا على المعرفة الإنسانية مهما اتسعت دوائرها، تصديقًا لنبوءة المصطفى ﷺ فى وصفه القرآن الكريم بأنه «**لا تنقضى عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد**»[1].

وليس هذا لغير كلام الله ـ تعالى ـ. . . !! **لأنه لا يمكن لعاقل أن يتخيل مصدرًا لهذا الكم الهائل من الحقائق العلمية فى القرآن الكريم غير الله الخالق**؛ لأنه كتاب قد أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبى أمى ﷺ، وفى أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، وفى فترة زمنية لم يكن لأحد من الخلق إلمام بشىء من هذه الحقائق العلمية التى لم تكتشف إلا فى القرنين الماضيين، ولا تزال تكتشف إلى اليوم وحتى يوم الدين.

والإشارات الكونية فى القرآن الكريم جاءت فى أكثر من ألف آية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقترب دلالتها من الصراحة، وتشكل هذه الآيات الكونية حوالى سدس مجموع آيات القرآن الكريم.

وهذه الآيات الكونية لا يمكن فهمها فهمًا كاملاً فى إطارها اللغوى فقط ـ على أهمية ذلك وضرورته ـ ولا يمكن الوصول إلى سبقها بالحقيقة الكونية ـ وهو ما نسميه بالإعجاز العلمى للقرآن الكريم ـ دون توظيف الحقائق العلمية التى توافرت معرفتها لأهل زمننا؛ لأن فى هذه الآيات الكونية من المحتوى العلمى ما لا يقف على دلالته إلا الراسخون فى العلم ـ كلٌّ فى حقل تخصصه ـ ومن هنا كانت تلك الآيات القرآنية العديدة التى تشير إلى مستقبلية الاستكشاف فى دلالات بعض الآيات القرآنية، وذلك من مثل قوله ـ تعالى ـ:

* ﴿**لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ [الأنعام: ٦٧].

وقوله ـ عز من قائل ـ:

* ﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ [النمل: ٩٣].

---

(١) الترمذى (٢٩٠٦)، والدارمى فى «سننه» (٢/ ٥٢٥ ـ ٥٢٦) من كلام عبد الله بن مسعود، وصححه الألبانى فى «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٢٦٧).

وقوله ـ سبحانه وتعالى ـ:

* ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص: ٨٧ ـ ٨٨].

وقوله ـ عز وجل ـ:

* ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

وفى المقابل فإننا نجد الآيات القرآنية المتعلقة بركائز الدين من العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات قد صيغت صياغة محكمة، محددة المعنى، واضحة الدلالة، لا تحتمل غير وجه واحد، يفهمه البدوى فى قلب الصحراء، كما يفهمه أكثر الناس ثقافة وعلمًا، وهذا أيضًا جانب من جوانب الإعجاز القرآنى التى لا تحصى ولا تعد. ولذلك يحضنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ حضّا على تدبُّر آيات القرآن الكريم فيقول عز من قائل:

* ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

ويقول عز وجل:

* ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

ويقول تبارك وتعالى:

* ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤].

وفى ذلك يقول المصطفى ﷺ: «أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه»(١).

وإعراب القرآن الكريم يقصد به معرفة معانيه، وفهم رسالته المتضمنة فى آياته، والتماس غرائبه أى معرفة ما غمض من معانيه على قارئه، ويتجلى ذلك أكثر ما يتجلى فى الآيات الكونية التى تتسع دلالاتها باستمرار مع اتساع دائرة المعرفة

(١) الحاكم فى «المستدرك» (٢/ ٣٤٩) والخطيب فى «تاريخ بغداد» (٨/ ٧٧).

الإنسانية جيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، وذلك لندرة تلك المعرفة بالكون ومكوناته وظواهره فى زمن تنزل الوحى، ولطبيعتها التراكمية مع الزمن، بمعنى اتساع دائرة المعرفة فيها بزيادة استقراء الإنسان للكون وتعرفه على السنن المنتظمة الحاكمة له، والتى وضعها الله - سبحانه وتعالى - فيه، ولولا انتظام تلك السنن واطرادها ما تمكن الإنسان من معرفة شىء عنها، وهذا الانتظام والاطراد فى سنن الكون وظواهره هو من وسائل تسخير الكون للإنسان، وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك التسخير فى مواطن كثيرة.

ومبررات الاهتمام بالإشارات الكونية فى القرآن الكريم عديدة، ولكن يمكن إيجازها فيما يلى:

١ - إن القرآن الكريم نزل لنا لنفهمه، والآيات الكونية لا تفهم فهمًا كاملاً فى إطار اللغة وحدها، والمعرفة كلٌّ لا يتجزأ.

٢ - إن الإسلام والمسلمين يتعرضان اليوم لهجوم ظالم فى جميع وسائل الإعلام العالمية والمحلية؛ بسبب إنكار غير المسلمين لنبوة المصطفى ﷺ، وإنكارهم الوحى بالقرآن الكريم، والإشارات الكونية خير دليل لأهل عصرنا - عصر العلوم والتقنيات المتقدمة - على حجية ذلك كله، وباللغة التى يفهمونها.

٣ - إننا قصرنا فى التبليغ عن الله - سبحانه وتعالى - وعن رسوله ﷺ تقصيراً كبيرًا، ولذلك وصلنا إلى ما وصلنا إليه من تكتل أهل الباطل علينا، وتآمرهم على ديننا ومقدساتنا وأعراضنا وأموالنا وأراضينا، وخير وسيلة لتبليغ هؤلاء القوم اليوم فضل الإسلام على غيره من الأديان، وفضل القرآن على غيره من الكتب: هو ما ورد من حقائق علمية راسخة فى كل من كتاب الله - سبحانه وتعالى - وفى سنة رسوله ﷺ؛ لأن العلم قد أصبح الوسيلة المقنعة لأهل عصرنا.

٤ - إن العالم قد أصبح قرية كبيرة تلتقى فيها كل الثقافات، وثقافة عصرنا الراهن ترتكز على العلوم البحتة والتطبيقية وما تنتجه من تقنيات مختلفة، ولذلك فإن إثبات سبق كلٍّ من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بالإشارة إلى العديد من حقائق الكون هو من أنجح الوسائل لإقناع أهل عصرنا بصدق القرآن الكريم وبصدق نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

٥ ـ إن المؤامرة الدولية على الإسلام والمسلمين قد أسقطت من أيدينا كل سلاح نستطيع به الدفاع عن أنفسنا، وأراضينا، وعن ديننا، ومقدساتنا، وأعراضنا، وكرامتنا، ولكن على الرغم من ذلك فقد بقى بأيدينا سلاح الدعوة إلى الله على بصيرة بلغة العصر ، ومنه الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة ، والذى لو أحسنّا توظيفه فى الدعوة إلى دين الله لفتح الله ـ تعالى ـ علينا الدنيا من أطرافها، والتجارب المحدودة فى هذا المجال تثبت جدوى ذلك وأهميته.

وعلى الرغم من ذلك عارض نفر من أبناء المسلمين قضية الإعجاز العلمى للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ولا يزالون، والسبب الرئيسى لذلك هو: ازدواجية التعليم، والمفاصلة الكاملة بين تعليم دينى / إنسانى / نظرى لم يعد له اهتمام بالمعطيات الكلية للعلوم، وتعليم مدنى / علمى / تقنى لا يعطى للدارس الحد الأدنى من الثقافة الدينية التى تعينه على فهم أصول دينه، وعلى حُسْنِ القيام بعباداته، وحُسْنِ التبليغ عن الله ورسوله بالكلمة الطيبة والحجة البالغة، ونتيجة لهذه المفاصلة تخوف كلٌّ من الشرعيين والعلميين من الخوض فى هذه التجربة التى بدأها علماء المسلمين فى القرن الهجرى الثالث، واستمرت فى مد وجزر حتى عصرنا الراهن.

وكان من مبررات المعارضين ما يلى:

١ ـ اعتبارهم التفسير العلمى للقرآن الكريم نوعًا من التفسير بالرأى ـ وهو مذموم عندهم ـ ولكن المقصود بالرأى المذموم هو الهوى، وليس الرأى المؤسس على الحقائق العلمية الثابتة التى يقبلها كل عقل سوى، وتؤيدها الحجة المنطقية المقبولة والدليل المادى الملموس.

٢ ـ اعتبارهم أن الإسرائيليات كانت قد نفذت إلى التفسير أول ما نفذت عن طريق محاولات السابقين التعرض لشرح دلالة الآيات الكونية استنادًا إلى ما جاء فى سفر التكوين من العهد القديم، وقد أثبت العلم خطأها، كما جاء فى كتاب الدكتور الفرنسى موريس بوكاى (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم).

٣ ـ إن القرآن الكريم هو كلام الله ـ فى صفائه الربانى ـ ولذلك فهو حق كله، وثابت ثبوت الرواسى، والعلوم المكتسبة متغيرة، ولا يجوز مقابلة الثابت بالمتغير، أى لا يجوز مقابلة كلام الله بكلام الناس. وللرد على ذلك نقول: إن القرآن الكريم ـ الذى هو فى الأصل كتاب هداية ـ نزل لنا لنفهمه ولنتدبر آياته بإمكاناتنا البشرية المحدودة، وإننا لا نوظف فى مجال الإعجاز العلمى للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة إلا الحقائق التى حسمها العلم والتى لا رجعة فيها.

٤ ـ إن العلوم الكونية انطلقت فى زماننا من منطلقات مادية بحتة، لا تؤمن بما فوق المدرك من صور المادة والطاقة، ولذلك تصاغ أحيانًا صياغات منافية لأصول الدين، نتيجة للصراع المرير الذى قام فى بدايات عصر النهضة الأوروبية بين العلميين ورجال الكنيسة فى العالم الغربى، وانتهى بانحسار دور الكنيسة. وللرد على ذلك نقول: إن هذا الموقف كان فى البدايات الأولى لتطبيق المنهج العلمى فى الغرب، أما اليوم فإن المعطيات الكلية للعلوم أصبحت تؤكد على العديد من حقائق الدين، ولذلك طالبنا ولا زلنا نطالب بضرورة أسلمة المعرفة بمعنى إرجاعها إلى أصولها الإسلامية أى بضرورة التأصيل الإسلامى للمعرفة.

٥ ـ إن بعض الذين تعرضوا لتفسير الآيات الكونية فى القرآن الكريم ـ بغير خلفية علمية سليمة ـ إما تكلفوا فى تحميل الآيات ما لا تحتمله، أو توسعوا أكثر من اللازم فى إعطاء الآية القرآنية الكريمة من المعانى ما لا تقصده، والقرآن العظيم أجلّ من ذلك وأكرم، وللرد على ذلك نقول إن إثبات الإعجاز للقرآن الكريم وللسنة النبوية المطهرة لا يتم إلا بواسطة المتخصصين ـ كلٌّ فى حقل تخصصه ـ وعلى الناقلين عنهم أن ينسبوا كل قضية إلى محققها، وإلا لأصبح الأمر فوضى لا ضابط له ولا رابط، وهناك فرق كبير بين دور المحقق ودور الناقل.

وهذه الحجج كلها مردود عليها فى هذا الكتاب حجة حجة، غير أن خير رد عليها هو الدعوة إلى الالتزام بضوابط التعامل مع قضية الإعجاز العلمى فى كتاب الله وفى سنة خاتم أنبيائه ورسله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ والتى أفردت لها بابًا كاملاً فى هذا الكتاب وأوجزها فيما يلى:

١ - حُسن فهم النص من القرآن الكريم وفق دلالات الألفاظ فى اللغة العربية، وحسب قواعدها، وأساليب التعبير فيها؛ لأن القرآن الكريم نزل بلسان عربى مبين، ولذلك فالنص مقدم على الظاهر، والظاهر مقدم على التأويل.

٢ - فهم أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمأثور من تفسير المصطفى ﷺ، والإلمام بجهود المفسرين السابقين.

٣ - جمع النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع الواحد، والقراءات الصحيحة لها، ورد بعضها إلى بعض مع مراعاة السياق القرآنى، وعدم اجتزاء النص عما قبله وعما بعده، ومراعاة أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وتوظيف كل من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بالموضوع الواحد فى فهم النص القرآنى؛ لأن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضًا، كما تفسره أقوال رسول الله ﷺ .

٤ - عدم التكلف، أو لىّ أعناق الآيات من أجل موافقتها للحقيقة العلمية؛ لأن القرآن الكريم أعزّ علينا وأكرم من ذلك، انطلاقًا من كونه كلام الله الخالق، ومن حقيقة أن الخالق هو أدرى بخلقه من كل المخلوقين.

٥ - البعد عن القضايا الغيبية غيبة مطلقة، وعدم الخوض فيها بأكثر مما أثبته القرآن الكريم وفسرته السنة النبوية المطهرة، مثل قضايا الروح، وحياة البرزخ، وموعد قيام الساعة، والملائكة، والجن، والجنة، والنار، والميزان، والصراط، والذات الإلهية - وغير ذلك من غَيبيات مطلقة لا سبيل للإنسان فى الوصول إلى معرفة شىء عنها إلا عن طريق وحى السماء.

٦ - مراعاة التخصص الدقيق لكل محقق لموضوع من موضوعات الإعجاز العلمى فى كتاب الله - كلّ فى حقل تخصصه - لأن هذا ليس مجالاً للخوض من كل خائض، وهنا يجب التفريق بين تحقيق المحقق ونقل الناقل.

٧ - يجب تحرى الدقة والأمانة فى التعامل مع كتاب الله، والتجرّد عن كل هوى شخصى حتى يتحقق إخلاص النية فى ذلك.

٨ - الالتزام بتوظيف الحقائق العلمية فى تفسير الآيات الكونية الواردة فى كتاب الله وفى سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، باستثناء حالة واحدة، وهى حالة الآيات

والأحاديث التى تفصّل قضايا الخلق والإفناء والبعث بأبعادها الثلاثة - خلق كل من الكون والحياة والإنسان وإفنائهم جميعًا ثم بعثهم من جديد - لأن هذه من القضايا التى لا تخضع لإدراك الإنسان ومشاهدته بطريقة مباشرة، وبذلك لا يمكن للعلوم المكتسبة أن تتجاوز فيها مرحلة التنظير - أى وضع نظرية من النظريات التى تتعدد بتعدد خلفية واضعيها - وفى هذه الحالة يمكن للمسلمين الارتقاء بإحدى هذه النظريات السائدة إلى مقام الحقيقة لمجرد وجود إشارة صريحة لها فى كتاب الله - سبحانه وتعالى - أو فى سنة رسوله ﷺ .

٩ - يجب التفريق بين قضيتى التفسير العلمى والإعجاز العلمى لكلٍّ من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة؛ وذلك لأن التفسير العلمى هو محاولة بشرية لحسن فهم دلالة الآية الكونية فى هذين المصدرين من مصادر وحى السماء، ونحرص فى التفسير العلمى على توظيف الحقائق العلمية كلما توافرت، ولكن لما كان العلم الكسبى لم يصل بعد إلى الحقيقة فى كل أمر من الأمور، فلا أرى حرجًا من توظيف النظرية العلمية السائدة فى تفسير الآية الكونية التى لا تتوافر حقائق لتفسيرها، ولا حرج فى ذلك حتى لو ثبت خطأ النظرية الموظفة فى التفسير بعد ذلك؛ لأن الخطأ هنا لا ينسحب على جلال القرآن الكريم، ولكن ينسحب على جهد المفسر. أما الإعجاز العلمى فهو موقف من مواقف التحدى، والمتحدى لا بد أن يكون واقفًا على أرضية صلبة، ولذلك لا يجوز أن يوظف فى الإعجاز العلمى إلا الحقائق العلمية كما أوضحنا فى النقطة السابقة.

١٠ - عدم التقليل من جهود السابقين الذين خدموا القرآن الكريم فى حدود المعارف العلمية التى كانت متاحة لهم كلٌّ فى زمانه.

الإعجاز اللغوى للقرآن الكريم:

كتب كثيرون فى موضوع الإعجاز اللغوى للقرآن الكريم تحت عناوين مختلفة مثل: (الإعجاز البيانى، البلاغى، الأدبى، اللفظى، النظمى، الدلالى) منهم الجاحظ فى القرن الهجرى الثالث (ت ٢٥٥ هـ)، وكلٌّ من الواسطى (ت ٣٠٦ هـ)،

والرمـانى (ت ٣٨٦ هـ)، والخطابى (ت ٣٨٨ هـ) وهم من علمـاء القـرن الرابع الهـجرى، وكلّ من البـاقلانى (ت ٤٠٣ هـ)، والقـاضى عبـد الجبـار (٤١٥ هـ)، والظاهرى (ت ٤٥٦ هـ)، والجرجـانى (ت٤٧١ هـ)، والغـزالى (ت ٥٠٥ هـ) من علماء القرن الخامس الهجرى، وكلّ من القاضى عياض (ت ٥٤٤ هـ)، والفخر الرازى (ت ٦٠٤ هـ) من علماء القرن السادس الهجرى، وكلّ من السكاكى (ت ٦٢٦ هـ)، والعـز بن عبـد السـلام (ت ٦٦٠ هـ) فى القـرن السـابع الهـجرى، والزركشى (ت ٧٩٤ هـ) من أعلام القرن الثامن الهجرى، والبقاعى (ت ٨٨٥ هـ) من القرن التاسع الهجرى، والسيوطى (ت ٩١١ هـ) من أعلام القرن العاشر الهجرى، والألوسى (ت ١٢٧٠ هـ) من أعلام القرن الثالث عشر الهجرى، ونشطت الكتابة فى موضوع الإعجاز اللغوى للقرآن الكريم فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين نشاطًا ملحوظًا، وكان ممن خاضوا هذا المجال : الزرقانى، الرافعى، الجزائرى، المراغى، دراز، أبو زهرة، النورسى، محمد رشيد رضا، سيد قطب، بنت الشاطئ، بدوى، البيومى، العمارى، والمطعنى وغيرهم.

الإعجاز العلمى للقرآن الكريم فى كتابات الأولين:

أما الذين تناولوا الإشارات الكونية فى القرآن الكريم فكان فى مقدمتهم الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) فى كتابه «الحيوان»، وابن حزم الأندلسى (ت ٤٠٥ هـ) فى كتابه «المفصل»، والغزالى (ت ٥٠٥ هـ) فى كتابيه «إحياء علوم الدين» و«جواهر القرآن»، والفخر الرازى (ت ٦٠٦ هـ) فى تفسيره «مفاتيح الغيب»، وطنطاوى جوهرى (ت ١٣٥٩ هـ) فى موسوعته «الجواهر فى تفسير القرآن الكريم»، ومحمد ابن أحمد الإسكندرانى الطبيب، وعبد الله فكرى، وعبد العزيز سيد الأهل، وأحمد مختار الغازى، وحنفى أحمد، ومحمد أحمد الغمراوى، ومحمد محمود إبراهيم، وإبراهيم عبد القادر محمد فرج، ومحمد جمال الدين الفندى، وعبد الرزاق نوفل، ويوسف مروة، وعبد الغنى الخطيب، وأحمد محمود سليمان، وعبد الله شحاته، ومصطفى محمود، ويوسف السويدى، ومنصور حسب النبى، وعدد آخر من العلماء المعاصرين الذين أضافوا إضافات أصيلة إلى هذا الموضوع.

وكان من طلائع المجاهدين فى هذا المجال كلّ من المرحومين ـ بإذن الله : الأستاذ الدكتور محمد جمال الدين الفندى أستاذ الفلك السابق بكلية العلوم، جامعة القاهرة، ورئيس لجنة الخبراء بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية سابقًا، والأستاذ عبد الرزاق نوفل المستشار السابق بوزارة الزراعة المصرية، والأستاذ الدكتور عبد المحسن صالح أستاذ علوم الأحياء الدقيقة السابق بجامعتى القاهرة والإسكندرية، والأستاذ الدكتور حسين كمال الدين الأستاذ السابق بهندسة القاهرة، والأستاذ الدكتور أحمد محمد مجاهد أستاذ النبات بجامعة القاهرة، والأستاذ الدكتور محمد رشاد الطوبى أستاذ علم الحيوان بجامعة القاهرة.

وكان من فرسان الإعجاز العلمى للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة أخى الحبيب، الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم أبو الفضل ـ رحمه الله رحمة واسعة جزاء ما قدم ـ وهو رئيس قسم الكيمياء الإكلينيكية السابق بكلية طب قصر العينى/ جامعة القاهرة، ورئيس الجمعية العربية للكيمياء الإكلينيكية، والذى وافته المنية فى مساء الثلاثاء ٢٢ من شوال ١٤٢٤هـ (الموافق ١٦/ ١٢/ ٢٠٠٣م) فترك فراغًا كبيرًا، فقد كان ـ رحمه الله ـ فذًا فى تخصصه العلمى، حافظًا لكتاب الله، عالمًا بالقراءات العشر، فقيهًا فى دينه، مقيمًا لشعائره، منافحًا عنه، وحاملاً لقضاياه، أسس العديد من المنشآت الطبية الإسلامية، ومراكز تحفيظ القرآن الكريم، والمدارس الإسلامية، والمساجد، ومساكن الطلبة المغتربين والطالبات المغتربات تحت إشراف إسلامى ملتزم، وكان من أوائل مؤسسى جمعية الإعجاز العلمى للقرآن الكريم، والذى احتضنها فى أحد أبنيته الخاصة، وكثيرًا ما حاضر وناقش وكتب فى هذا المجال وكانت إشراقاته العديدة نورًا لنا على الطريق، فرحمه الله رحمة واسعة وجعل مثواه جنات الخلد فى الفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقًا، اللهم آمين.

وكان من فرسان الإعجاز العلمى للقرآن الكريم أخى العزيز الأستاذ الدكتور منصور محمد حسب النبى ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ أستاذ ورئيس قسم الفيزياء بكلية البنات ـ جامعة عين شمس سابقًا، والذى أثرى هذا المجال بكتابات مؤصلة

تأصيلاً علميّا وشرعيّا صحيحًا، فجزاه الله خير الجزاء على ما قدم. وكان منهم الأستاذ الدكتور حسن أبو العينين - رحمه الله - أستاذ الجغرافيا الطبيعية بجامعة الإسكندرية سابقًا.

أما الأحياء من فرسان هذا الميدان فهم كثيرون وأسأل الله - تعالى - أن يبارك فى أعمارهم وأعمالهم، وأن يجعل جهودهم خالصة لوجهه الكريم حتى يكملوا المسيرة على خير إن شاء الله رب العالمين.

التحاقى بركب المشتغلين بقضية الإعجاز العلمى للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة:

بدأت الاهتمام بقضيتى التفسير العلمى والإعجاز العلمى للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة منذ دخولى إلى كلية العلوم بجامعة القاهرة فى سنة ١٩٥١م، حين تعرضت - وتعرض غيرى من الطلاب المسلمين - لسيل من التحديات الوافدة مع تيارات التغريب المختلفة من مادية دهرية، يمينية ويسارية، وكانت تيارات عاتية بأيدى العديد من الأساتذة والإداريين والطلبة الذين سخروا لمهاجمة الإسلام والمسلمين، وكان فى مواجهة هذا التيار التغريبى تيار إسلامى قوى ينتصر لهذا الدين الخاتم بالكلمة الطيبة والحجة الواضحة والمنطق السوى، وكان على رأس هذا التيار الراشد أستاذى وأستاذ جيل كامل ممن تخصصوا فى علوم الأرض وهو الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد القادر محمد فرج - بارك الله فى عمره وأحسن لنا وله الخاتمة - الذى كان يملأ محاضراته ومذكراته وأحاديثه بحسن الاستشهاد بالآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة فكوّن مدرسة علمية فى هذا المجال أسأل الله - تعالى - أن يجزيه عنا وعنها خير الجزاء. وكان من قادة هذه المدرسة الإيمانية الأستاذ الدكتور محمد محمود إبراهيم - رحمه الله رحمة واسعة - الذى كان يشغل منصب رئيس قسم هندسة التعدين والبترول بجامعة القاهرة فى ذلك الوقت وكتب كتابًا قيمًا بعنوان «إعجاز القرآن وطبقات الأرض»، وصال وجال بهذا الأمر فى العديد من المحاضرات والمناظرات على مستوى جامعة القاهرة وخارجها.

وكان من الفرسان المجاهدين فى هذا الميدان أيضًا الأستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوى - رحمه الله وأجزل له المثوبة - الذى عمل أستاذًا للصيدلة بجامعة القاهرة، وعميدًا لكلية الصيدلة بجامعة الملك سعود بالرياض حيث شرفت بمعيته، وسعدت بصحبته. ومن مؤلفاته العديدة: «فى سنن الله الكونية»، «الإسلام فى عصر العلم».

هذا بالإضافة إلى التحديات التى لقيتها فى طفولتى وشبابى من الحملات التنصيرية التى قادها عدد من المؤسسات البريطانية والأمريكية فى مصرنا الحبيبة، وكان من ضمنها المدارس والمستشفيات التنصيرية من مثل المستشفى الأمريكى فى مدينة طنطا والذى كان أطباؤه وممرضوه يجوبون الريف فى محافظة الغربية فى محاولات يائسة لشراء دين الفقراء والبسطاء بقطرة دواء أو بنصيحة طبية، ولكن باءت جهودهم بالفشل، وكان من ضمنها كلٌّ من الجامعة الأمريكية بالقاهرة ونشاطاتها الثقافية، والكلية الأمريكية للبنات بالقاهرة وكانت الدراسة فيها داخلية لتعريض الطالبات لأطول مدد ممكنة من عمليات غسيل المخ، وكانت تصلنا أخبارهن بالتفصيل ونحاول الرد على ما يتعرضن له من ضغوط.

ثم شاءت إرادة الله - تعالى - أن أسافر إلى بريطانيا فى سنة ١٩٦١م للدراسة لدرجة الدكتوراه، أى بعد خمس سنوات من وقوع الاعتداء الثلاثى الغادر على مصر فى سنة ١٩٥٦م، والذى اشتَرَكَتْ فيه كلّ من بريطانيا وفرنسا، والكيان الصهيونى الغاصب لأرض فلسطين، وكانت مشاعر البريطانيين مشحونة كراهية لكلّ من مصر، والعروبة، والإسلام..!! ووجدتنى منذ اللحظة الأولى لوضع قدمى على التراب البريطانى مضطرًا للدخول فى مناظرات وحوارات ساخنة مع أعداد من غلاة الحركة الصهيونية العالمية المتغلغلة فى المجتمع البريطانى والمهيمنة عليه بالرغم من قلة عددها الظاهر، ومع عدد من متعصبى الحركات الصليبية المحلية والعالمية، ومع غلاة المناصرين للسياسة البريطانية الاستعمارية وما كان أكثرهم فى ذلك الوقت.

وتلى ذلك عملى فى عدد من الجامعات العربية، حيث كان الناس - فى غالبيتهم الساحقة - مفتونين بالقومية العربية فتنة كبيرة، ومن أجل انتصارهم لهذه الدعوة

العرقية التى نهانا عنها رسول الله ﷺ صبوا جام غضبهم على الدين، وكان علينا أن نحاورهم بالكلمة الطيبة، والحجة الواضحة والمنطق السوى.

ثم شاءت إرادة الله - سبحانه وتعالى - أن أسافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى منتصف السبعينيات من القرن العشرين فى مهمة علمية قضيتها أستاذًا زائرًا فى جامعة كاليفورنيا - لوس أنجيليس. وكلفت منذ الأسبوع الأول لوصولى إلى تلك المدينة بالمشاركة فى حوار ثلاثى بين الإسلام والمسيحية واليهودية تم فى جامعة كاليفورنيا ثم على التلفاز الأمريكى، كما شاركت فى حوارات متعددة نظمها «مجلس الأديان فى المدينة - The Inter -Religious Council»، وانتظمت فى إلقاء خطبة الجمعة، ومحاضرة السبت، طيلة إقامتى فى لوس أنجيليس، وفى الحوار مع العديد من المنظمات الدينية والفكرية فى المدينة، وتحركت منها إلى عدد من الجامعات والمدن الأمريكية الأخرى.

ثم حدث أن زار الولايات المتحدة الأمريكية وأنا مقيم بها فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور الشيخ عبد الحليم محمود - رحمه الله رحمة واسعة جزاء ما قدم - وكان فى صحبته الكريمة كلٌّ من فضيلة الشيخ صلاح أبو إسماعيل - رحمه الله وأكرم مثواه - ، وفضيلة الشيخ محمود خليل الحصرى - طيب الله ثراه وأكرم نزله - وطلب منى فضيلة الإمام الأكبر الترجمة عنه وله، وكانت فرصة طيبة للنهل من علمه الغزير وللدخول فى حوارات عدة مفيدة.

وحدث أيضًا فى فترة إقامتى بالولايات المتحدة الأمريكية أن تمت زيارة الرئيس السادات للقدس الشريف وهو تحت الاحتلال الصهيونى الغاصب، واشتعلت المشاعر بين معارض لتلك الزيارة وراض بها، وانهالت الطلبات علىّ للمحاضرة عن القضية الفلسطينية فى العديد من الجامعات الأمريكية، وللحوار مع عدد من غلاة الصهاينة على الأرض الأمريكية ومؤيديهم الدينيين والسياسيين خاصة أبناء الكنيسة الإنجيلية. ومن خلال تلك المحاضرات والمناظرات اتضح لى بجلاء جهل الغربيين بحقيقة الإسلام والمسلمين، واستغلال الحركات المعادية لنا: من صهيونية وصليبية واستعمارية لهذا الفراغ الذى تركناه نحن المسلمين بالتقصير فى التبليغ عن ديننا؛ ليملأوا أذهان الغربيين بالخوف من هذا الدين، وبتحذيرهم من إمكانية عودة

المسلمين إلى وحدتهم، وإلى تمسكهم بدينهم، ووسائل الإعلام الغربية كلها فى أيدى عتاة الصهيونية العالمية، فنجحوا فى ملء قلوب الغربيين بكراهية الإسلام والخوف من المسلمين. وليس أدل على ذلك من سبل الكتابات تحت عناوين مستفزة من مثل «صراع الحضارات»، «الخوف من الإسلام»، «المسلمون قادمون»، «الموجة الثالثة»، «الله له تسعة وتسعون اسمًا»، «الإسلام والإرهاب»، وغيرها. وليس أدل على ذلك أيضًا من المؤامرات الغربية التى أدت إلى ثلاث حروب بالخليج، بالإضافة إلى حروب البلقان، وأفغانستان، والشيشان، وكشمير، وأراكان، وجنوب كل من الفيليبين والسودان. وقد تعاظم حجم هذا الكيد في غزو كلّ من أفغانستان العراق، وتعريض شعبيهما الأعزلين لأبشع صور التعذيب الوحشى والإذلال التعسفى النابع من حب التشفى. وفى الصمت المطبق للعالم كله إزاء الجرائم الإسرائيلية البشعة التى تقترفها منذ أكثر من خمسين عامًا مجافية بذلك كل الأخلاق، والقيم، والأعراف، والأديان، والقوانين الدولية: من قتل للأطفال، والنساء، والشيوخ، والشبان بالآلاف، وهدم للمنازل، والمساجد، والمدارس، والمستشفيات، وتجريف للأراضى الزراعية، وتخريب للبنية الأساسية، واعتقال لعشرات الآلاف من الشباب وتعريضهم للتعذيب الوحشى حتى الموت أو العاهات الدائمة، ونفى العشرات منهم إلى خارج حدود بلدهم. والإدارات الأمريكية المتعاقبة تعتبر كل هذه الجرائم دفاعًا عن النفس، هذا بالإضافة إلى الصمت المطبق فى مذابح المسلمين فى البلقان، وفى الشيشان، وفى كشمير، وأراكان، وجنوب الفيليبين، وتايلاند وغيرها.

واتضح لى كذلك أن المخرج الوحيد لنا من هذا المأزق التاريخى هو حسن التعريف بهذا الدين من مصادره الصحيحة: القرآن الكريم، وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، باللغة التى يفهمها أهل عصرنا وهى لغة العلم، وذلك بعرض جوانب من الإعجاز العلمى للقرآن الكريم، وللسنة النبوية المطهرة، دون الخوض فى الخلافات الدينية أو السياسية أو التاريخية. وانطلاقًا من ذلك كان اهتمامى بهذه القضية التى كرست لها جزءًا كبيرًا من حياتى، وجبت من أجلها العالم من كندا،

والدول الاسكندناڤية وروسيا شمالاً، إلى استراليا، وجنوب أفريقيا جنوبًا؛ ومن الأمريكيتين غربًا إلى أواسط آسيا شرقًا.

وفى إحدى هذه الجولات حدث أن دعانى سعادة الأخ العزيز الدكتور غازى القصيبى وهو يعمل سفيرًا للمملكة العربية السعودية بلندن لإلقاء محاضرة بالمركز الإعلامى السعودى بتلك المدينة وذلك فى مساء ٥/ ١١/ ١٤١٨ هـ (الموافق ٣/ ٣/ ١٩٩٨م)، وقد أثارت المحاضرة حوارًا ممتعًا بعدها، وعلق عليها الصحفى الكبير الأستاذ عرفان نظام الدين تعليقًا طيبًا بزاويته فى جريدة **الحياة** والمعنونة «**من الحياة**»، وذلك بتاريخ ٧/ ١١/ ١٤١٨هـ (الموافق ٥/ ٣/ ١٩٩٨م).

ثم استضافنى الأخ الأستاذ أحمد منصور للقاء على قناة الجزيرة فى برنامجه المعنون «بلا حدود» وإذا بالبرنامج يحدث صدى كبيرًا عند الذين شاهدوه، وكانت منهم الأخت الفاضلة والصحفية القديرة الأستاذة ابتسام الهوارى التى كتبت عن هذا اللقاء فى يوميات الأخبار بتاريخ ٢٦/ ٦/ ١٤٢٠هـ (الموافق ٦/ ١٠/ ١٩٩٩م) تحت عنوان «نحن أولى بعلمائنا» كلامًا فوق ما أستحق، فجزى الله الجميع عنى خير الجزاء.

وبعد ذلك بقليل استضافنى الأخ الكريم الأستاذ عاصم بكرى للقاء على القناة المصرية الثالثة مما أثار تعليق العديدين من المهتمين بالقضية. ثم غبت فى عمل بانجلترا لفترة من الزمن.

وفى صبيحة الأربعاء العاشر من شهر رمضان المبارك سنة ١٤٢١هـ (الموافق السادس من ديسمبر سنة ٢٠٠٠م) مررت بالقاهرة بعد رحلة أخذتنى من ماركفيلد إلى لندن، ثم إلى دبى للمشاركة فى البرنامج الثقافى المصاحب لاحتفالاتها بجائزتها الدولية للقرآن الكريم، ومنها إلى الكويت بدعوة من وزارة الأوقاف فيها للمشاركة فى برنامجها الدعوى بمناسبة شهر رمضان المبارك، ومن الكويت إلى البحرين بدعوة من «جمعية النور للبر» للمشاركة فى برنامجها الثقافى بمناسبة الشهر الفضيل. ومن البحرين وصلت إلى القاهرة لأجد دعوة كريمة من الإذاعى الكبير والأخ العزيز الأستاذ أحمد فراج لاستضافتى فى حلقتين من برنامجه التليفزيونى

الشهير «نور على نور». وبعد إتمام هذا اللقاء بأقل من أربع وعشرين ساعة غادرت القاهرة إلى لندن ومنها إلى ماركفيلد، حيث كنت أعمل مديراً لمعهد الدراسات العليا فيها.

وبعد أسابيع قليلة أذيعت الحلقة الأولى من لقائى مع الأستاذ أحمد فراج ولم أشاهدها، ومن بعدها الحلقة الثانية ولم أشاهدها أيضًا، ولكن بدأت الاتصالات الهاتفية والبرقية تترى، وهى تحمل التعبير عن تأثر المشاهدين بهاتين الحلقتين لدرجة أن جميع وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية فى مصر، بل فى كثير من الدول العربية قد علقت على هاتين الحلقتين بإعجاب شديد. وعلمت أنه تحت إلحاح المشاهدين قامت كل من القناة الأولى للتليفزيون المصرى والفضائية المصرية ببث الحلقتين متتاليتين ومجتمعتين عدة مرات فى غير سابقة لذلك. ولم تتوقف الاتصالات بى بخصوص تأثير هاتين الحلقتين على مصر والمصريين، بل جاءت من عدد غير قليل من كبار الشخصيات العربية والإسلامية، وكان من أهم هذه الاتصالات بى اتصال مؤسسة الأهرام الصحفية ممثلة فى رئيس مجلس إدارتها الأستاذ الكبير إبراهيم نافع -حفظه الله- الذى طلب مقابلتى عند أول زيارة لى للقاهرة، فاستجبت لذلك شاكراً ومقدراً.

وفى فجر الاثنين ١١/ ١١/ ١٤٢١هـ (الموافق ٥/ ٢/ ٢٠٠١م) وصلت إلى القاهرة بعد رحلة أخذتنى من ماركفيلد إلى لندن، ثم إلى كلّ من الرياض، وجدة، والمدينة المنورة حيث حضرت مؤتمراً عن القرآن الكريم، فاستقبلت فى مطار القاهرة استقبال الفاتحين. وفى صبيحة اليوم التالى سعدت بلقائى بالأخ الكريم والصحفى الكبير الأستاذ إبراهيم نافع الذى عرض علىّ مشكوراً تخصيص صفحة كاملة بجريدة الأهرام الغراء للكتابة عن الإعجاز العلمى للقرآن الكريم فشكرته على ذلك ودعوت له بكل خير. وقد رعى الأستاذ الكبير على غنيم نائب رئيس مجلس الإدارة ومدير عام المؤسسة هذا الأمر بعنايته، واقترح الصحفى الكبير الأستاذ عبد الوهاب مطاوع ـ رحمه الله ـ عنوانًا للصفحة هو «من أسرار القرآن».

وابتداءً من الاثنين ٢٩/ ١/ ١٤٢٢هـ (الموافق ٢٣/ ٤/ ٢٠٠١م) بدأت فى كتابة مقال أسبوعى بجريدة الأهرام الغراء تحت هذا العنوان: «من أسرار القرآن:

الإشارات الكونية فى القرآن الكريم ومغزى دلالتها العلمية» فى سلسلة صدر منها حتى تاريخ ٢١/ ٧/ ١٤٢٥ هـ (الموافق ٦/ ٩/ ٢٠٠٤م) أكثر من مائة وخمسين مقالاً.

والكتاب الذى يقع بين يدى قارئه الكريم يمثل خمسة مقالات من تلك المقالات، جمعتها تحت عنوان: «**من آيات الإعجاز العلمى (٤): النبات فى القرآن الكريم(أ): آيات تهيئة الأرض لاستقبال الحياة فى القرآن الكريم**»، وسيتبع هذا الكتاب إن شاء الله ـ تعالى ـ ببقية المقالات حسب أبوابها إن كان فى العمر بقية.

ولا يفوتنى هنا أن أسجل لمؤسسة الأهرام الصحفية ـ بصفة عامة ـ ولأخى الكريم الأستاذ إبراهيم نافع ـ بصفة خاصة ـ هذا الفضل الذى أسبغاه عَلَىَّ بدعوتى كى أكون من الكتّاب المنتظمين بالأهرام، وهو شرف أفخر به وأعتز. وأسجل أيضًا أن هذا القرار التاريخى الذى أفسح للقرآن الكريم صفحة كاملة فى كل أسبوع (ولأول مرة فى تاريخ جريدة الأهرام العريقة، وهى أقدم وأكبر وأهم الصحف العربية على الإطلاق، وأكثرها انتشاراً فى العالم) هذا القرار سوف يبقى صفحة من نور فى تاريخ هذه المؤسسة، وعملاً ضخمًا وثقيلاً فى موازين كل من أعان على اتخاذه حتى أصبح حقيقة قائمة. ولست أملك حيال ذلك إلا أن أتوجه إلى الله ـ تعالى ـ بالدعاء الصادق أن ينفع أمتنا العربية بما ينشر فى هذه الصحيفة، وأن يجزى كل صوت حر نزيه فيها خير الجزاء، وأن يعين القائمين بمسئوليتها على السير بها فى طريق الحق، والخير، والرشاد، والله من وراء القصد، وهو الهادى إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

القاهرة فى ٢١/ ٧/ ١٤٢٥هـ

٦/ ٩/ ٢٠٠٤م

الفقير إلى عفو ربه

زغلول النجار

الباب الأول

إعجاز القرآن الكريم



الباب الأول

إعجاز القرآن الكريم

في مطلع الحديث عن كتاب الله لا بد من تحديد عدد من معالمه الثابتة التى منها أنه كلام الله المعجز، الموحى به إلى خاتم الأنبياء والمرسلين بلسان عربى مبين، والمنقول عنه - صلوات الله وسلامه عليه - نقلاً متواتراً بلا أدنى شبهة، بنفس النص الذى أوحى إليه، والذى نجده فى المصاحف التى خطت أو طبعت على مر العصور، ومسجلاً فى صدور الحفاظ جيلاً بعد جيل، ومن ثم على مختلف صور الأشرطة والاسطوانات الممغنطة، وعلى غير ذلك من مختلف صور الحفظ الحاسوبية المتعددة.

وقد نزلت آيات القرآن الكريم منجمة على مدى ثلاث وعشرين سنة، وكتبت فى حياة رسول الله ﷺ عقب الوحى بكل منها مباشرة، ثم رتبت تلك الآيات فى مائة وأربع عشرة (١١٤) سورة، وسميت السور بتوقيف من الله - سبحانه وتعالى - الذى تعهد بحفظ آخر كتبه المنزلة فحفظه حفظًا كاملاً، بنفس اللغة التى نزل بها، كلمة كلمة، وحرفًا حرفًا، بينما تعرضت أصول الكتب السماوية السابقة كلها للضياع التام، وتعرض ما بقى من ذكريات عنها للتحريف والتبديل والتغيير.

ولذلك فالقرآن الكريم هو الكتاب السماوى الوحيد الذى يتعبد بتلاوته، والذى لا تصلح الصلاة إلا بقراءة فاتحته، والذى لا يغنى عنه شيء من الأحاديث أو الأذكار أو الأدعية؛ لأنه الوحى السماوى الوحيد الموجود بين أيدى الناس اليوم والمحفوظ بحفظ الله - تعالى - له كلمة كلمة وحرفًا حرفًا بنفس اللغة التى أوحى بها (اللغة العربية).

وقد تحدى ربنا ـ تبارك وتعالى ـ كلاً من الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن مجتمعين متظاهرين فقال عز من قائل: ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾ [الإسراء: ٨٨].

كما سخر ربنا ـ تبارك وتعالى ـ ممن ادعى من المشركين أن الرسول ﷺ قد افتراه، وهو النبى الأمى الذى لا يعرف القراءة ولا الكتابة لحكمة يعلمها الله، فقد تحدى الله - تعالى - العرب - على ما كانوا عليه من علم بأسرار العربية وأسباب البلاغة - أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، أو حتى بسورة واحدة من مثله، ولا يزال هذا التحدى قائمًا دون أن يستطيع عاقل مجابهته، على الرغم من مضى أكثر من أربعة عشر قرنًا على مجيء التنزيل، وعلى الرغم من قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٣]. وفى ذلك يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ [هود: ١٣ـ ١٤].

وقد عجزت القدرات البشرية، ولا تزال عاجزة عن أن تدانى كتاب الله فى روعة بيانه، أو فى كمال صفاته، ودقة دلالاته، وصدق أنبائه، وسمو معانيه، وعدالة تشريعه، أو فى نهجه وصياغته، وتمام إحاطته بطبائع النفس البشرية، وقدرته على التعامل معها وهدايتها، ودقة استعراضه لمسيرة البشرية، من لدن أبينا آدم ـ عليه السلام ـ إلى بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ـ عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم- ومن هنا كان القول بـ«إعجاز القرآن».

من أوجه الإعجاز فى القرآن الكريم

تتعدد أوجه الإعجاز فى كتاب الله بتعدد جوانب النظر فيه، فكل حرف من حروفه، وكل كلمة من كلماته، وكل آية من آياته فيها إعجاز لفظى وبيانى ودلالى، وكل مجموعة من الآيات، وكل سورة من السور - طالت أم قصرت ـ تشهد لكتاب الله ـ تعالى ـ بأنه معجز بما فيها من قواعد عقدية، أو أوامر تعبدية، أو قيم أخلاقية،

أو ضوابط سلوكية، أو أحداث تاريخية، أو إشارات علمية إلى شىء من أشياء هذا الكون الفسيح وما فيه من ظواهر وسنن وكائنات. فكل تشريع، وكل قصة، وكل واقعة تاريخية، وكل وسيلة تربوية، وكل نبوءة مستقبلية، وكل إشارة تنظيمية، وكل خطاب إلى النفس الإنسانية جاء فى القرآن الكريم يفيض بجلال الربوبية، ويتميز عن كل صياغة إنسانية. مما يشهد للقرآن الكريم بالتفرد، كما يشهد بعجز الإنسان عن أن يأتى بشىء من مثله.

وقد أفاض المتحدثون عن أوجه الإعجاز فى كتاب الله، فكان منهم من رأى ذلك فى جمال بيانه، ودقة نظمه، وكمال بلاغته، وروعة معانيه وشمولها واتساقها ودقة صياغتها، وقدرتها على مخاطبة الناس على اختلاف مداركهم وأزمانهم، وإشعاعها بجلال الربوبية فى كل آية من آياته..!! ومنهم من أدرك أن إعجاز القرآن هو فى كمال تشريعه، ودقة تفاصيل ذلك التشريع وحكمته وشموله، ومنهم من وجده فى استعراضه الدقيق لمسيرة البشرية ولتاريخ عدد من الأمم السابقة من لدن أبينا آدم ـ عليه السلام ـ إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ـ عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى السلام ـ، مما لم يكن يعلم تفاصيله أحد من الناس فى زمن الوحى.

ومنهم من رأى إعجاز القرآن الكريم فى منهجه التربوى الفريد وأطره النفسية السامية والعلمية فى نفس الوقت، والثابتة على مر الأيام، أو فى إنبائه بالغيب مما تحقق بعد نزوله بسنوات طويلة، أو فى إشاراته إلى العديد من حقائق الكون وسنن الله فيه مما لم يكن معروفًا لأحد من البشر وقت نزول القرآن ولا لمئات من السنين بعد ذلك النزول.

ومنهم من رأى إعجاز القرآن فى صموده أمام كل محاولات التحريف التى قامت بها قوى الشر المتعددة متمثلة فى الكفرة والمشركين والملاحدة المتشككين على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية؛ وذلك لأن الله ـ تعالى ـ قد تعهد بحفظه فحفظ بعهده الذى قطعه– سبحانه وتعالى – على ذاته العلية بقوله العزيز: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ومن العلماء من يرى إعجاز القرآن فى ذلك كله وفى غيره مما يقصر الحديث عنه.

كانت الكثرة الكاثرة من القدامى والمعاصرين على حد سواء قد ركزت اهتمامها على ناحية نظم القرآن الكريم، فهذا ابن عطية الأندلسى (ت٥٤٦ هـ) يذكر فى مقدمة تفسيره (١/ ٢٧٨) ما نصه:

«إن الله قد أحاط بكل شىء علمًا، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن، علم بإحاطته أى لفظة تصلح أن تلى الأولى، وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورة أن أحداً من البشر لا يحيط بذلك، فبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا يبطل قول من قال: إن العرب كان فى قدرتهم الإتيان بمثله فصرفوا عن ذلك، والصحيح أنه لم يكن فى قدرة أحد قط، ولهذا نرى البليغ ينقح القصيدة أو الخطبة حولاً، ثم ينظر فيها فيغير منها، وهلم جرا، وكتاب الله لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد. . . وقامت الحجة على العالم بالعرب؛ إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة».

وهذا هو الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين يكتب فصلاً فى إعجاز القرآن كتقديم لترجمته لكتاب «الظاهرة القرآنية» للمفكر الإسلامى الأستاذ مالك بن نبى - يرحمه الله- يحدد فيه الإعجاز فى دائرة البيان والنظم حيث يقول: «إن الآيات القليلة من القرآن، ثم الآيات الكثيرة، ثم القرآن كله، أى ذلك كان فى تلاوته على سامعيه من العرب، الدليل الذى يطالبه بأن يقطع بأن هذا الكلام مفارق لجنس كلام البشر، وذلك من وجه واحد، هو وجه البيان والنظم. وإذا صح أن قليل القرآن وكثيره سواء من هذا الوجه، ثبت أن ما فى القرآن جملة، من حقائق الأخبار عن الأمم السابقة، ومن أنباء الغيب، ومن دقائق التشريع، ومن عجائب الدلالات على ما لم يعرفه البشر من أسرار الكون إلا بعد القرون المتطاولة من تنزيله، كل ذلك بمعزل عن الذى طولب به العرب، وهو أن يستبينوا فى نظمه وبيانه انفكاكه من نظم البشر وبيانهم، ومن وجه يحسم القضاء بأنه كلام رب العالمين. . ».

ولكن إذا جاز هذا التحديد على موقف التحدى من مشركى العرب ـ على الرغم من عدم وجود الدليل على ذلك ـ فإنه بالقطع لا يجوز على إطلاقه، خاصة

أن العرب اليوم فى جملتهم قد فقدوا الحس اللغوى الذى تميز به أسلافهم، وأن التحدى بالقرآن للإنس والجن متظاهرين هو تحدٍّ مستمر قائم إلى يوم الدين، مما يؤكد أن ما فى القرآن من أمور الغيب، وحقائق التاريخ، ومن فهم دقيق لمكنون النفس البشرية وحسن الخطاب فى هدايتها وإرشادها وتربيتها ومن مختلف الصور التى ضربت لعجائب آيات الله فى خلقه، ومن غير ذلك مما اكتشفه ولا يزال يكتشفه (فى كتاب الله) متخصصون فى كل حقل من حقول المعرفة، لا يمكن أن يبقى بمعزل عن ذلك التحدى المفضى إلى الإعجاز القرآنى، والدال على أن القرآن كلام الله.

نشأة منهج التفسير العلمى لكتاب الله

يزخر القرآن الكريم بالعديد من الآيات التى تشير إلى الكون وما به من كائنات (أحياء وجمادات)، وإلى صور من نشأتها، ومراحل تكونها، وإلى العديد من الظواهر الكونية التى تصاحبها، والسنن الإلهية التى تحكمها، وما يستتبعه كل ذلك من استخلاص للعبرة، وتفهم للحكمة، وما يستوجبه من إيمان بالله، وشهادة بكمال صفاته وأفعاله، وهو ـ سبحانه وتعالى ـ الخالق البارئ المصور الذى أبدع الخلق بعلم وقدرة وحكمة لا تحدها حدود، ولا يفيها حقها وصف.

وقد أحصى الدارسون لهذه الإشارات الكونية فى كتاب الله ما يقدر بحوالى الألف آية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقرب دلالاتها من الصراحة، وبدوام اتساع دائرة المعرفة الإنسانية، وتكرار تأمل المتأملين فى كتاب الله، وتدبر المتدبرين لآياته ـ جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد عصر ـ لا ينفك العلماء والمتخصصون يكتشفون من حقائق الكون الثابتة فى كتاب الله ما يؤكد على تحقق الوعد الإلهى الذى يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [فصلت: ٥٣].

وبديهى أن يتباين موقف العلماء من تلك الإشارات الكونية فى كتاب الله بتباين الأفراد وخلفياتهم الثقافية وأزمانهم، وباتساع دائرة المعرفة الإنسانية فى مجال

الدراسات الكونية (التى تعرف اليوم باسم دراسات العلوم البحتة والتطبيقية) من عصر إلى عصر، وأول من بسط القول فى ذلك كان الإمام الغزالى (ت٥٠٥هـ) فى كتابيه «إحياء علوم الدين» و«جواهر القرآن» والذى رفع فيهما شعارات عديدة منها أن القرآن الكريم يشمل العلوم جميعًا، وأن من صور إعجاز القرآن اشتماله على كل شىء، وأن كل العلوم تشعبت من القرآن، حتى علم الهيئة، والنجوم، والطب، إلى آخر ما ذكر.

وتبع الإمام الغزالى في ذلك كثيرون، كان من أشهرهم فى القديم العلامة الإمام الفخر الرازى (ت ٦٠٦هـ)، وفى الحديث فضيلة الشيخ طنطاوى جوهرى (ت ١٣٥٩هـ)، مما أدى إلى بروز المنهج العلمى فى تفسير القرآن الكريم، والذى يعتمد فى تفسير الإشارات الكونية الواردة فى كتاب الله على ضوء من معطيات العلوم البحتة والتطبيقية، مع تفاوت فى ذلك من عصر إلى عصر.

ويعتبر تفسير الرازى المعنون «مفاتيح الغيب» أول تفسير يفيض فى بيان المسائل العلمية والفلسفية، خاصة ما يتعلق منها بعلم الهيئة، وغير ذلك من العلوم والفنون التى كانت معروفة فى زمانه، والتى كان هو على دراية بها.

أما تفسير الشيخ طنطاوى جوهرى والمعنون «الجواهر فى تفسير القرآن الكريم» فيقع فى خمسة وعشرين جزءًا كبارًا، حاول فيها الشيخ - يرحمه الله - تفسير القرآن الكريم تفسيرًا يتجاوب مع روح العصر، وما وصلت إليه المعارف الإنسانية فى مجال دراسات الكون وما فيه من أجرام سماوية، ومن عوالم الجمادات والأحياء، ومن الظواهر الكونية التى تصاحبها، والسنن الإلهية التى تحكمها؛ ليبرهن للقارئ أن كتاب الله الخالد قد أحاط بالكون فى تفصيل وبيان وإيضاح غفل عنه كثير من السابقين، وأنه بحق ينطوى على كل ما وصل، وما سيصل إليه البشر من معارف.

هذا، وقد نعى الشيخ الجوهرى - يرحمه الله - على علماء المسلمين إهمالهم للجانب العلمى فى القرآن الكريم، وتركيز جهودهم على الجوانب البيانية والفقهية فقط بقوله: «لماذا ألف علماء الإسلام عشرات الألوف من الكتب فى علم الفقه، وعلم الفقه ليس له فى القرآن إلا آيات قلائل لا تصل إلى مائة وخمسين آية؟ فلماذا

كثر التأليف فى علم الفقه، وقل جدًا فى علوم الكائنات التى لا تكاد تخلو منها سورة؟». ولذا فإننا نجده فى مطلع تفسيره يتوجه بنداء إلى المسلمين يقول فيه: **«يا أمة الإسلام، آيات معدودات فى الفرائض (يقصد آيات الميراث) اجتذبت فرعًا من علم الرياضيات، فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها.. هذا زمان العلوم، وهذا زمان ظهور الإسلام.. هذا زمان رقيه، ياليت شعرى، لماذا لا نعمل فى آيات العلوم الكونية ما فعله أباؤنا فى علوم الميراث؟»**، ثم يضيف: **«إن نظام التعليم الإسلامى لا بد من ارتقائه، فعلوم البلاغة ليست هى نهاية علوم القرآن بل هى علوم لفظه، وما نكتبه اليوم (يقصد فى تفسيره) علوم معناه....»**.

ولم يكتف الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره بتتبع الآيات واستنتاج معانيها وفق ما ارتآه فيها من إشارات إلى مختلف الدراسات الحديثة، بل إنه قد استعان فى هذا التفسير ـ الفريد من نوعه ـ بكثير من صور النباتات والحيوانات والظواهر الكونية، والوسائل التجريبية، كما استخدم الآراء الفلسفية عند مختلف المدارس الفكرية، وكذلك الأرقام العددية التى ينظمها حساب الجمل المعروف.

وقد اعتبر المفسرون من بنى عصره ذلك المنهج العلمى فى التفسير (كما اعتبر من قبل) جنوحًا إلى الاستطراد فى تأويل بعض آيات القرآن الكريم على غير مقاصدها التشريعية والإيمانية، استنادًا إلى الحقيقة المسلمة: أن القرآن الكريم لم يأت لكى ينشر بين الناس القوانين العلمية ومعادلاتها، ولا جداول المواد وخصائصها، ولا قوائم بأسماء الكائنات وصفاتها، وإنما هو فى الأصل كتاب هداية، كتاب عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات، وهى ركائز الدين التى لا يستطيع الإنسان أن يضع لنفسه فيها ضوابط صحيحة، والقرآن العظيم حين يلفت نظر الإنسان إلى مختلف مظاهر هذا الوجود إنما يعرض لذلك من قبيل الاستدلال على قدرة الخالق العظيم وعلمه وحكمته وتدبيره، ومن قبيل إقامة الحجة البينة على الجاحدين من الكافرين والمشركين، ومن قبيل التأكيد على إحاطة القدرة الإلهية بالكون وبكل ما فيه، وعلى حاجة الخلق فى كل لحظة من لحظات الوجود إلى رحمة ذلك الخالق العظيم.

فهذا هو الشيخ محمد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ يكتب فى مقدمة تفسيره «المنار» ما نصه: «.... وقد زاد الفخر الرازى صارخًا آخر عن القرآن هو ما يورده فى

تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة فى الملة على ما كانت عليه فى عهده، كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها، وقلده بعض المعاصرين (ويقصد الشيخ طنطاوى جوهرى) بإيراد مثل هذا من علوم العصر وفنونه الكثيرة الواسعة، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية، فصولاً طويلة ـ بمناسبة كلمة مفردة، كالسماء أو الأرض ـ من علوم الفلك أو النبات و الحيوان، تصد القارئ عما أنزل الله لأجله القرآن».

وعلى الرغم من استنكار علماء التفسير لهذا المنهج العلمى قديمًا وحديثًا، إلا أن عددًا كبيرًا من العلماء المسلمين ظل مؤمنًا بأن الإشارات الكونية فى كتاب الله ـ أى الآيات المتعلقة ببعض أشياء هذا الكون على إجمالها وتناثرها بين آيات الكتاب المجيد ـ تبقى بيانًا من الله، خالق الكون ومبدع الوجود، ومن ثم فهى حق مطلق، وصورة من صور الإعجاز فى كتاب الله ـ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ وأن ذلك قد لا يتضح إلا للراسخين فى العلم من المتخصصين فى مختلف مجالات العلوم البحتة والتطبيقية - كل فى حقل تخصصه -، وحتى هؤلاء يظل يتسع إدراكهم لذلك الإعجاز باتساع دائرة المعرفة الإنسانية جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد عصر، مصداقًا لقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ**﴾ [ص: ٨٧-٨٨].

ولقول رسول الله ﷺ فى وصفه للقرآن الكريم بأنه «. . . **لا تنقضى عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد**»[1].

ومن هنا كان واجب المتخصصين من المسلمين فى مختلف مجالات المعرفة الإنسانية ـ فى كل عصر وفى كل جيل ـ أن تنفر منهم طائفة للتسلح بمستلزمات تفسير كتاب الله من إلمام بقدر كاف من علوم اللغة العربية وآدابها، ومن الحديث وعلومه، والفقه وأصوله، وعلم الكلام وقواعده، مع معرفة بعادات المجتمع العربى الأول، وإحاطة بأسباب النزول، وبالمأثور فى التفسير، وبالسيرة النبوية المطهرة، وباجتهاد السابقين من أئمة المفسرين، وغير ذلك من الشروط التى حددها

(١) سبق تخريجه فى ص ١٤.

علماء التفسير وأصوله، ثم تقوم تلك الطائفة على شرح آيات الكتاب الحكيم - كلّ فيما يخصه - حتى تستبين للناس جوانب من الإعجاز فى كتاب الله، لم يكن من السهل بيانها قبل عصر العلم الذى نعيشه. وحتى يتحقق قول الله - تعالى - فى محكم كتابه: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧].

وانطلاقًا من ذلك الفهم، ظهرت مؤلفات عديدة تعالج قضية الإعجاز العلمى فى كتاب الله من أشهرها فى القديم كتاب «كشف الأسرار النورانية القرآنية فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية» لمحمد ابن أحمد الإسكندرانى الطبيب (وهو من علماء القرن الثالث عشر الهجرى).

ورسالة عبدالله فكرى (وهو من وزراء المعارف السابقين فى مصر فى مطلع القرن العشرين) والتى يقارن فيها بين بعض مباحث علم الهيئة (الفلك) وبين الوارد من نصوص القرآن الكريم فى ذلك، وكتاب «الإسلام والطب الحديث» لعبد العزيز إسماعيل، و«رياض المختار» لأحمد مختار (الغازى)، وكتاب «معجزة القرآن فى وصف الكائنات والتفسير العلمى للآيات الكونية» لحنفى أحمد، وكتابان «فى سنن الله الكونية» و«الإسلام فى عصر العلم» لمحمد أحمد الغمراوى، و«إعجاز القرآن فى علم طبقات الأرض» لمحمد محمود إبراهيم، و«العلوم الطبيعية فى القرآن» ليوسف مروة، وسلسلة كتب كلّ من محمد جمال الدين الفندى وعبد الرزاق نوفل فى نفس الموضوع، وكتاب «أضواء من القرآن على الإنسان ونشأة الكون والحياة» لعبد الغنى الخطيب، و«القرآن والعلم» لأحمد محمود سليمان، و«من إشارات العلوم فى القرآن الكريم» لعبد العزيز سيد الأهل، و«محاولة لفهم عصرى للقرآن» لمصطفى محمود، و«تفسير الآيات الكونية» لعبد الله شحاته، و«الإسلام والعلم التجريبى» ليوسف السويدى، و«القرآن تفسير الكون والحياة» لمحمد العفيفى، وكتاب «الإنجيل والقرآن والعلم» لموريس بوكاى، وكتاب «خلق الإنسان بين الطب والقرآن» لمحمد على البار، هذا بالإضافة إلى ما ظهر مؤخراً من كتب ومجلات عديدة وأبواب كثيرة عن الإعجاز العلمى فى القرآن وردت مُجَمَّعَةً فى كتب إسلامية متعددة، أو متناثرة فى كثير من التفاسير التى حررت فى النصف الأخير من هذا القرن.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد تعرض هذا المنهج - بحق أحيانًا، وبغير ذلك فى أحيان أخرى كثيرة - للمزيد من النقد والتجريح الذى أسس على أن معجزة القرآن هى فى الأصل معجزة بيانه الذى أدرك أساطين اللغة العربية فيه، ومنذ سماع أولى آياته، أنه علامة فارقة بين كلام الله وكلام البشر، وأن علينا أن نفهم الإسلام كما بينه نبى الإسلام - صلوات الله وسلامه عليه. وكان من شواهد ذلك ومبرراته حيود عدد من الذين تعرضوا للقضايا الكونية فى القرآن عن جادة الطريق إما عن قصور فى فهم الحقائق العلمية، أو انتفاء لشروط القدرة على الاجتهاد فى التفسير، أو لكليهما معًا.

وعلى الرغم من ذلك كله، فقد تمكن هذا السيل من الكتابات عن الإعجاز العلمى فى آى القرآن الكريم من تهيئة النفوس لقبول ذلك المنهج، حتى قام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى مصر بتشكيل عدد من اللجان العلمية التى ضمت إلى علماء القرآن وتفسيره، والحديث ورجاله، والفقه وأصوله، والشريعة وعلومها، واللغة العربية وآدابها، والتاريخ وتفاصيله، عددًا من كبار العلماء والباحثين والمفكرين فى مختلف جنبات المعرفة الإنسانية، وقد قام كل هؤلاء بمدارسة كتاب الله فى اجتماعات طالت لسنين عديدة، تم تبلورت فى تفسير موجز تحت اسم «المنتخب فى تفسير القرآن الكريم»، كتب بأسلوب عصرى وجيز، سهل مبسط، واضح العبارة، بعيد عن الخلافات المذهبية، والتعقيدات اللفظية والمصطلحات الفنية، وقد أشير فى هوامشه إلى ما ترشد إليه الآيات القرآنية من نواميس الحياة وأسرار الكون، ووقائعه العلمية التى لم تعرف إلا فى السنوات الأخيرة، والتى خصها ذلك التفسير فى مقدمته بأنه لا يمكن إلا أن يكون القرآن قد أشار إليها لأنه ليس من كلام البشر، ولكنه من كلام خَلاَّق القوى والقدر، الذى وعد بذلك فى محكم هذا الكتاب فقال: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [فصلت: ٥٣].

كما تمت الإشارة فى مقدمة هذا التفسير الوجيز إلى أنه سيتلوه تفسير آخر وسيط وتقوم لجنة الإعجاز العلمى للقرآن الكريم بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية منذ

عدة سنوات بمراجعة تلك التعليقات العلمية على الآيات الكونية فى كتاب الله على أمل إصدارها فى مجلد واحد ـ إن شاء الله تعالى ـ قبل إصدار طبعة جديدة لهذا التفسير المعنون باسم «المنتخب فى تفسير القرآن الكريم»، ويليه فى شيء من البسط والتفصيل «الوسيط» ثم «المفصل» بإذنه ـ تعالى .

حجة المعارضين لتعبير «الإعجاز العلمى» فى القرآن الكريم

قبل استعراض مواقف المفسرين فى عصرنا الحاضر من الآيات الكونية فى كتاب الله (أى الآيات التى تحتوى على إشارات لبعض آيات هذا الكون من مثل السماوات والأرض، والشمس والقمر، والنجوم والكواكب، والجبال والأحجار، والأنهار والبحار، والرياح والسحاب والمياه، والرعد والبرق، ومراحل الجنين فى الإنسان، وبعض صور الحيوان ومنتجاته، والنبات ومحاصيله وثماره وغير ذلك) لا بد لنا من الإشارة إلى أن بعض الكتّاب من القدامى والمعاصرين ـ على حد سواء ـ قد اعترض على استخدام لفظ «معجزة» ومشتقاته فى الإشارة إلى عجز الإنسان عن الإتيان بمثل هذا القرآن الكريم أو بشيء من مثله، أو إلى استعصاء تقليد القرآن الكريم على الجهد البشرى واستعلائه عليه؛ لأنه كلام الله ـ تعالى ـ المغاير لكلام البشر جملة وتفصيلاً، ولو أنه أنزل بأسلوب يفهمه البشر وقت نزوله وفى كل عصر من العصور التالية لنزوله إلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها.

وحجة المعترضين على لفظ «معجزة» ومشتقاته تقوم على أساس من أن اللفظ لم يرد له ذكر فى كتاب الله بالمعنى الشائع اليوم، ولا فى الصحيح من الأحاديث النبوية الشريفة، وإن وردت مشتقاته للدلالة على عدد من المعانى القريبة أو المغايرة قليلاً لذلك فى ستة وعشرين موضعًا من القرآن الكريم بألفاظ (أعجز)، و(معجزين)، و(معاجزين) و(عجوز) و(أعجاز) وتصريفاتها، ودلالات هذه الألفاظ فى تلك المواضع قد تبعد قليلاً عما أريد التعبير عنه بلفظ (المعجزة) عند علماء اللغة، خاصة أن القرآن الكريم قد أشار دومًا إلى مدلول المعجزة بلفظ آية (بصيغة المفرد والمثنى والجمع) فى أكثر من ٣٨٠ موضع منه، ومن هذه المواضع قول الحق، تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الأنعام: ٣٧].

وقوله - عز من قائل - : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾ [البقرة: ١١٨]

وقوله، تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ [البقرة: ١٤٥].

وقوله: ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ﴾ [البقرة: ٢١١].

وقوله تعالى - على لسان أحد أنبياء بنى إسرائيل: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

وقوله - تعالى - على لسان نبيه صالح - عليه السلام - مخاطبًا قومه: ﴿ ... هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً .... ﴾ [الأعراف: ٧٣]. وقوله على لسان فرعون وقومه وهم يعارضون سيدنا موسى - على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم:

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٢].

وهذه حجة مردودة؛ لأن التعبير عن إعجاز القرآن قد استخدم منذ القرون الهجرية الأولى، ولم يجد علماء المسلمين من الصحابة والتابعين غضاضة فى استخدام هذا التعبير على الرغم من عدم وروده بهذا المعنى فى كتاب الله أو فى أحاديث سيدنا رسول الله ﷺ.

***

الباب الثانى

موقف المفسرين من الآيات الكونية فى القرآن الكريم

الباب الثانى
موقف المفسرين من الآيات الكونية فى القرآن الكريم

طال الجدل حول جواز تفسير الإشارات الكونية الواردة فى كتاب الله على أساس من معطيات علوم العصر وفنونه، وتفاوتت مواقف العلماء من ذلك تفاوتًا كبيرًا بين مضيّقين وموسّعين ومعتدلين، مما يمكن أن نوجزه فيما يلى:

أولاً: موقف المضيقين

وهو الموقف الذى يرى أصحابه أن تفسير الآيات الكونية الواردة فى كتاب الله، على ضوء ما تجمع لدى الإنسان من معارف هو نوع من التفسير **بالرأى** ـ الذى لا يجوز ـ استنادًا إلى أقوال منسوبة لرسول الله ﷺ منها: «**من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ**»[1] و«**من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار**»[2]. واستنادًا إلى أقوال منسوبة إلى كل من الخليفتين الراشدين: أبى بكر الصديق وعمر ابن الخطاب ـ رضى الله تعالى عنهما ـ من قول الأول: «أىّ سماء تظلنى، وأى أرض تقلنى إن قلت فى كتاب الله برأيى؟» وقول الثانى: «اتبعوا ما تبيّن لكم من هذا الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه». وكذلك استنادًا إلى قول كل من سعيد بن المسيب وعبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ فى الصحيح المنقول عن الأول: «إنا لا نقول فى القرآن شيئًا»، وإلى الثانى: «لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول فى التفسير». واستنادًا أيضًا إلى القول المنسوب إلى مسروق بن الأجدع رضى الله عنه: «اتقوا التفسير، فإنما هو الرواية عن الله».

(١) الترمذى فى «سننه» رقم (٢٩٥٠ و٢٩٥١)، وأحمد فى «مسنده» (١/ ٢٣٣).

(٢) التخريج السابق.

ولقد فات أصحاب هذا الموقف أن المقصود بـ(الرأى) فى الحديث هو (الهوى)، لا الرأى المنطقى المبنى على الحجة الواضحة والبرهان المقبول، ويؤكد ذلك عبارة «بغير علم» التى وردت فى الحديث الثانى (هذا بغضّ النظر عن كون الحديثين قد اعتبرا من ضعاف السند). كذلك فاتهم أن ما قد ورد على لسان بعض الصحابة والتابعين مما يَوحى بالتحرّج من القول فى القرآن الكريم بالرأى الاجتهادى، إنما هو من قبيل الورع، والتأدب فى الحديث عن كلام الله، خاصة وأنهم كانوا قد فطروا على فهم اللغة العربية، وفطنوا بها وبأسرارها، ودرجوا على عادات المجتمع العربى، وألّموا بأسباب النزول، وعايشوا رسول الله ﷺ عن قرب وهو الموصول بالوحى، وسمعوه ﷺ وهو يتلو القرآن الكريم ويفسّره، واستعانوا به على فهم ما وقفوا دونه، وأدركوا تفاصيل سنته الشريفة، فهل يمكن لمن توافر له كل ذلك أن يكون له مجالٌ للاجتهاد بالرأى؟ خاصة وأن العصر لم يكن عصر تقدم علمى كالذى نعيشه، وأنهم كانوا لا يزالون قريبى عهد بالجاهلية التى كان قد خيّم فيها على العالم أجمع ركام من العقائد الفاسدة، والتصورات الخاطئة، والأفكار السقيمة، والأوهام والأساطير، ولم يسلم من ذلك الركام أحد، حتى أصحاب الحضارات البائدة. وأن العصر كان عصر انتشار للإسلام، ودخول الكثيرين من أصحاب العقائد واللغات الأخرى فى دين الله أفواجًا، ومعهم خلفياتهم الفكرية الموروثة، والتى لم يكونوا قد تمكنوا من التخلص منها كلية بمجرد دخولهم فى دين الله، وأن أعدادًا غير قليلة من غلاة اليهود كانوا قد دخلوا الإسلام - كما دخل أسلافهم إلى دين عيسى ابن مريم - ليأتمروا به ويتآمروا عليه، ويكيدوا له بتأويل كلام الله على وجوه غير صحيحة، وبتفتيت وحدة صف المؤمنين بالله (تعالى)، وبث بذور الفرقة فيه، وكان من نتائج ذلك كله هذا الفكر الغريب الذى عرف فيما بعد بـ«الإسرائيليات» نسبة إلى السلالات الفاسدة من بنى إسرائيل (أى اليهود) الذين كثر دسّهم على دين الله، وعلى أنبيائه ورسله - صلى الله وسلم وبارك عليهم أجمعين - ، وكان من نتائجه كذلك بروز الشيع والفرق والطرائق المختلفة، ومحاولة كل فرقة منها الانتصار لرأيها بالقرآن. . وهذا هو (الهوى) الذى عُبّر عنه «بالرأى» فيما نُسب من أقوال إلى رسول الله ﷺ وإلى عدد من صحابته وتابعيهم - عليهم رضوان الله أجمعين.

كذلك فقد فات هؤلاء، وهم ينادون بعدم الاجتهاد بالرأى فى فهم كتاب الله، والوقوف عند حدود المأثور: وهو ما نقل عن رسول الله ﷺ مباشرة، أو عن صحابته الكرام، أو عمن عاصر الصحابة من التابعين، موكلين ما لم يفسره التراث المنقول إلى الله وهو ما عرف بمنهج **التفسير بالمأثور أو التفسير بالمنقول**، وكلنا يعلم أن التفسير بالمأثور لم يشمل القرآن كله، فلحكمة يعلمها الله - وقد ندرك طرفًا منها اليوم - لم يقم رسول الله ﷺ بالتنصيص على المراد فى كل آية من آيات القرآن الكريم، وأن صحابته الكرام كانوا يجتهدون فى فهم ما لم ينص عليه، وكانوا يختلفون فى ذلك ويتفقون، وأن الثابت أنه ﷺ قد صوب رأى جماعة من أصحابه حين فسروا آيات من كتاب الله، وأنه قد دعا لابن عباس بقوله: «**اللهم فقهه فى الدين، وعلمه التأويل**»[(1)]، وأن ذلك وغيره من الأقوال المأثورة قد اتخذ دليلاً على جواز الاجتهاد فى التفسير فى غير ما حدده رسول الله ﷺ، فمما يروى عن الإمام على - رضى الله عنه - حين سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشىء؟ أنه قال: «ما عندنا غير ما فى هذه الصحيفة، وفهم يؤتاه الرجل فى كتابه»[(2)]. وهذا يؤكد أن فهم المسلمين لدلالة آيات القرآن الحكيم وتدبر معانيها ضرورة تكليفية لكل قادر عليها مؤهل للقيام بها، وذلك يقرره الحق - تبارك وتعالى - فى قوله، وهو أحكم القائلين:

﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [ص: ٢٩].

وهذه الآية الكريمة - وكثير غيرها من الآيات القريبة فى المعنى - أمر صريح من الله - تبارك وتعالى - بتدبر آيات القرآن الكريم وفهم معانيها، فالقرآن ينعى على أولئك الذين لا يتدبرونه، ولا يستنبطون معانيه، وهذه آياته تقول:

﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾ [النساء: ٨٢ - ٨٣].

---

(١) البخارى فى «صحيحه» (١٤٣)، ومسلم فى «صحيحه» (١٣٨ / ٢٤٧٧).

(٢) مسلم فى «صحيحه» (٤٥ / ١٩٧٨).

وتقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢].

وقد ساق الإمام الغزالى -رحمه الله- الأدلة على جواز فهم القرآن بالرأى -أى بالاجتهاد- ثم أضاف: «فهذه الأمور تدل على أن فى فهم معانى القرآن مجالاً رحبًا، ومتسعًا بالغًا، والمنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه».

وبناء على ذلك فقد أجاز الغزالى لكل إنسان أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحد عقله، ولو أن المبالغة فى استخدام تلك الرخصة قد أفرزت نتاجًا لم يكن كله مستساغًا مقبولاً لدى العلماء، مطابقًا لمقاصد الآيات القرآنية الكريمة فى الهداية، فقد خرج قوم من المفسرين بالآيات القرآنية - إما عن عمد واضح أو جهل فاضح - إلى ما لا يقبله العقل القويم، والصحيح المنقول عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه والتابعين لهم، وعن المنطق اللغوى وأساليب العرب فى الأداء- حقيقة ومجازًا- وذلك لانطلاق الفرق المختلفة والمذاهب المتنوعة من غير أهل السنة والجماعة من منطلق التعصب لمذاهبهم ومحاولاتهم إخضاع التفاسير لخدمة مللهم ونحلهم، مما أدى إلى الموقف المتشدد من القول فى القرآن بالرأى، ومن ثم رفض تفسير الآيات الكونية الواردة فى كتاب الله على أساس من معطيات المعارف المكتسبة فى حقل العلوم البحتة والتطبيقية.

وهناك أعداد كبيرة من علماء المسلمين الذين اقتنعوا بضرورة الاجتهاد فى تفسير كتاب الله، ولكنهم حصروا ذلك فى مناهج محددة منها: **المنهج اللغوى** الذى يهتم بدلالة الألفاظ وطرائق التعبير وأساليبه والدراسات النحوية المختلفة، **والمنهج البيانى** الذى يحرص على بيان مواطن الجمال فى أسلوب القرآن ودراسة الحس اللغوى فى كلماته، **والمنهج الفقهى** الذى يركز على استنباط الأحكام الشرعية والاجتهادات الفقهية. كما أن من هؤلاء المفسرين من نادى بالجمع بين تلك المناهج فى منهج واحد عرف باسم **المنهج الموسوعى (أو المنهج الجمعى)**، ومنهم من نادى بتفسير القرآن الكريم حسب الموضوعات التى اشتمل عليها، وذلك بجمع الآيات الواردة فى الموضوع الواحد فى كل سور القرآن الكريم، وتفسير واستنباط دلالاتها استنادًا إلى قاعدة أن القرآن يفسر بعضه بعضًا، وقد عرف ذلك باسم **المنهج الموضوعى فى التفسير**.

من مبررات المضيقين فى رفض المنهج العلمى للتفسير

ظل المنهج العلمى فى التفسير مرفوضًا من بعض المجتهدين، وذلك لأسباب كثيرة منها:

١ - أن الإسرائيليات كانت قد نفذت أول ما نفذت إلى التراث الإسلامى عن طريق محاولة السابقين تفسير تلك الإشارات الكونية الواردة فى كتاب الله على أساس مما جاء فى سفر التكوين من العهد القديم، وهذا خطأ كبير لأن الله - تعالى - قد شاء أن يوكل الناس فى أمور الكشف عن حقائق هذا الكون إلى جهودهم المتتالية جيلاً بعد جيل، وعصرًا بعد عصر . . ومن هنا جاءت الإشارات الكونية فى القرآن الكريم بصيغة مجملة، يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعانى، وتظل تلك المعانى تتسع باستمرار مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية فى مجال العلوم البحتة والتطبيقية وذلك فى تكامل لا يعرف التضاد.

ومن هنا أيضًا لم يقم رسول الله ﷺ بالتنصيص على المراد من الآيات الكونية فى أحاديثه الشريفة، التى تناول بها شرح القرآن الكريم. ولكن لما كانت النفس البشرية تواقة دومًا إلى التعرف على أسرار هذا الوجود، ولما كان الإنسان قد شغل منذ القدم بتساؤلات كثيرة عن نشأة الكون، وبداية الحياة، وخلق الإنسان ومتى حدث كل ذلك؟ وكيف تم؟ وما أسبابه؟ وغير ذلك من أسرار الوجود . . فقد تجمع لدى البشر فى ذلك تراث ضخم، عبر التاريخ اختلط فيه الحق بالباطل، والواقع بالخيال، والعلم بالدجل والخرافة، وكان أكثر الناس حرصًا على هذا النوع من المعرفة المكتسبة هم رجال الدين فى مختلف العصور، وقد كانت الدولة الإسلامية فى أول نشأتها محاطة بحضارات عديدة تباينت فيها تلك المعارف وأمثالها، ثم بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية واحتوائها لتلك الحضارات المجاورة، وبعد دخول أمم من مختلف المعتقدات السابقة على بعثة المصطفى ﷺ إلى دين الله . . وبعد وصول هذا التراث إلى عدد من علماء المسلمين وقيامهم على ترجمته ونقده والإضافة إليه، حاول بعض المفسرين الاستفادة به فى شرح الإشارات الكونية الواردة بالقرآن الكريم فأخطأوا فى ذلك؛ لأن العصر لم يكن بعصر تطور علمى كالذى نعيشه اليوم، ولأن هذا التراث كان أغلبه فى أيدى اليهود، وهم الذين

تآمروا على الكيد للإسلام منذ بزوغ فجره، كما تآمروا على رسالات أنبياء الله موسى، وداود وعيسى من قبل وأن النقل من اللغات الأخرى إلى العربية قد تم بواسطة من أسلم ومن لم يسلم منهم، على الرغم من تحذير رسول الله ﷺ بقوله: «**إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه**»(١).

ويفسر ابن خلدون أسباب نقل هذه الإسرائيليات إلى كتب التاريخ والتفسير بقوله: «والسبب فى ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب، ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تتشوق إليه النفوس البشرية: فى أسباب المكونات، وبدء الخليقة، وأسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدون منهم، وهم أهل التوراة من اليهود، ومن تبع دينهم من النصارى، وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ وهم بادية مثلهم لا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التى يحتاطون لها..».

٢ ـ أن القرآن الكريم هو فى الأصل كتاب هداية ربانية، كتاب عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات، بمعنى أنه هو كتاب دين الله الذى أوحى به إلى خاتم أنبيائه ورسله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، وتعهد الله ـ تعالى ـ بحفظه فحفظ، فعلى ذلك لا بد من التأكيد أن القرآن الكريم ليس كتاب علم تجريبى، وأن الإشارات العلمية التى وردت به جاءت فى مقام الإرشاد والموعظة لا فى مقام البيان العلمى بمفهومه المحدد، وأن تلك الإشارات ـ على كثرتها ـ جاءت فى أغلب الأحيان مجملة، وذلك بهدف توجيه الإنسان إلى التفكر والتدبر وإمعان النظر فى خلق الله لا بهدف الإخبار العلمى المباشر.

٣ـ أن القرآن الكريم ثابت لا يتغير بينما معطيات العلوم التجريبية دائمة التغير والتطور وأن ما تسمى بحقائق العلم ليست سوى نظريات وفروض يبطل منها اليوم ما كان سائدًا بالأمس، وربما فى الغد ما هو سائد اليوم، وانطلاقًا من هذا الفهم فإنه لا يجوز الرجوع إليها عند تفسير كتاب الله العزيز؛ لأنه لا يجوز تأويل الثابت بالمتغير.

---

(١) أحمد فى «مسنده» (٤/١٣٦).

٤ ـ أن القرآن الكريم هو بيان من الله، بينما معطيات العلوم التجريبية لا تعدو أن تكون محاولة بشرية للوصول إلى الحقيقة، ولا يجوز ـ فى ظنهم ـ رؤية كلام الله فى إطار محاولات البشر، كما لا يجوز الانتصار لكتاب الله بمعطيات العلوم المكتسبة؛ لأن القرآن الكريم بصفته كلام الله هو حجة على البشر كافة، وعلى العلم وأهله.

٥ ـ أن العلوم التجريبية تُصاغ فى أغلب دول العالم اليوم صياغة تنطلق كلها من منطلقات مادية بحتة، تنكر أو تتجاهل الغيب، ولا تؤمن بالله، وأن للكثيرين من المشتغلين بالعلوم الكونية البحتة والتطبيقية مواقف عدائية واضحة من قضية الإيمان بالله ـ تعالى ـ وبملائكته وكتبه ورسله، وبالقدر خيره وشره، وبحياة البرزخ، وبالبعث والنشور، والحساب، وبالحياة الخالدة فى الدار الآخرة، إما فى الجنة أبدًا وإما فى النار أبدًا.

٦ ـ أن بعض معطيات العلوم التجريبية قد يتباين مع عدد من الأصول الثابتة فى الكتاب والسنة نظرًا لصياغتها من منطلقات مادية بحتة منكرة لكل حقائق الغيب أو متجاهلة لها.

٧ ـ أن عددًا من المفسرين الذين تعرضوا لتأويل بعض الإشارات الكونية الواردة فى كتاب الله قد تكلفوا فى تحميل الآيات من المعانى ما لا تحتمله، فى تعسف واضح وتكلف مفتعل بلَىِّ أعناق الكلمات والآيات وتحميلها من المعانى ما لا تحتمله.

الرد على الرافضين للمنهج العلمى فى التفسير

من الواضح أن حجج المعارضين للمنهج العلمى فى تفسير الآيات الكونية الواردة فى كل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والتى أوردناها فى الفقرات السابقة هى كلها حجج مردودة حجة بحجة كما يلى:

١ ـ أنه لا حاجة بنا اليوم إلى الإسرائيليات فى تفسير الإشارات الكونية الواردة فى كل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ لأن الرصيد العلمى فى مختلف المعارف قد بلغ اليوم شأوًا لم يبلغه من قبل، وإذا كان من استخدم الإسرائيليات فى تفسيره من الأوائل قد أخطأ التفسير، فإن من يستخدم حقائق العلم الثابتة، ومشاهداته المتكررة فى شرح تلك الآيات اليوم لابد وأن يصل إلى فهم لها لم يكن من السهل

الوصول إليه من قبل، وأن يجد فى ذلك من السبق العلمى للقرآن الكريم ولسنة خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين)، ومن صور الإعجاز فيهما ما لم يجده السابقون، تأكيداً لوصف رسول الله ﷺ للقرآن بأنه «**لا تنقضى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد**[1]»، ولوصف أحاديثه الشريفة بقوله: «**أوتيت الكتاب ومثله معه**» [2].

٢ ـ أنه لا تعارض البتة بين كون القرآن الكريم كتاب هداية ربانية، وإرشادات إلهية، ودستور عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات، وكتاب تشريع سماوى يشمل نظامًا كاملاً للحياة، وبين احتوائه على عدد من الإشارات العلمية الدقيقة التى وردت فى مقام الاستدلال على عظمة الخالق وقدرته فى إبداعه للخلق، وعلى إفناء ما قد خلق، وإعادة كل ذلك من جديد؛ وذلك لأن الإشارات تبقى بيانًا من الله ـ خالق الكون ومبدع الوجود ـ فلا بد وأن تكون حقًا مطلقًا؛ لأنه لا أدْرَى بالخليقة من الخالق ـ سبحانه وتعالى.

ولو أن المسلمين وعوا هذه الحقيقة منذ القدم لكان لهم فى مجال الدراسات الكونية سبق ملحوظ، وثبات غير ملحوق، فنحن ندرك اليوم ـ وفى ضوء ما تجمع لنا من معارف فى مجال دراسات العلوم البحتة والتطبيقية ـ أن الإشارات الكونية فى كتاب الله تتسم بالدقة المتناهية فى التعبير، وبالشمول فى المعنى، والاطراد والثبات فى الدلالة، وبالسبق لكثير من الكشوف العلمية بالمئات من السنين، وفى ذلك شهادة قاطعة لا يستطيع أن ينكرها جاحد بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون إلا كلام الله الخالق. والحكم هنا ينسحب على الإشارات الكونية فى أحاديث رسول الله ﷺ والتى تشهد له بالنبوة والرسالة وبأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان موصولاً بالوحى ومُعَلَّمًا من قبل خالق السموات والأرض.

أما القول بأن تلك الإشارات قد تم سردها بصورة مجملة، فإنها بحق إحدى صور الإعجاز العلمى والبيانى فى القرآن الكريم؛ وذلك لأن كل إشارة علمية

---

(١) سبق تخريجه ص (١٤).

(٢) شرح السنة ١/ ٢٠١.

وردت فيه قد صيغت صياغة فيها من إعجاز الإيجاز، والدقة فى التعبير، والإحكام فى الدلالة، والشمول فى المعنى ما يمكن الناس - على اختلاف ثقافاتهم وتباين مستويات إدراكهم وتتابع أجيالهم وأزمانهم - أن يدركوا لها من المعانى ما يتناسب، وهذه الخلفيات كلها، بحيث تبقى المعانى المستخلصة من الآية الواحدة يُكمل بعضها بعضًا فى تناسق عجيب.. وتكامل أعجب؛ لأنه تكامل لا يعرف التضاد وهذا عندى من أروع صور الإعجاز فى كتاب الله. فالإجمال فى تلك الإشارات مع وضوح الحقيقة العلمية للأجيال المتلاحقة، كل على قدر حظه من المعرفة بالكون وعلومه، هو بالقطع أمر فوق طاقة البشر، وصورة من صور الإعجاز لم تتحقق ولا يمكن أن تتحقق لغير كلام الله الخالق، ومن هنا كان فهم الناس للإشارات العلمية الواردة بالقرآن الكريم على ضوء ما يتجمع لديهم من معارف، فهمًا يزداد اتساعًا وعمقًا جيلاً بعد جيل، وهذا فى حد ذاته شهادة للقرآن الكريم بأنه لا تنتهى عجائبه ولا يبلى على كثرة الرد، كما وصفه المصطفى ﷺ. وقد أدرك نفر من السابقين ذلك وفى مقدمتهم الإمام الزركشى الذى كتب فى كتابه (البرهان فى علوم القرآن) ما نصه: «وما من برهان ودلالة وتقسيم، وتحديد شىء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله - تعالى - قد نطق به، لكن أورده - تعالى - على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين لأمرين: **الأول**: بسبب ما قاله - سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]. **والثانى**: أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن استطاع أن يفهم بالأوضح الذى يفهمه الأكثرون لم يتخط إلى الأغمض الذى لا يعرفه إلا الأقلون، وكذلك أخرج تعالى مخاطباته فى محاجة خلقه من أجل صورة تشتمل على أدق دقيق لتفهم العامة من جليلها ما يقنعهم الحجة، وتفهم الخواص من أنبائها ما يوفى على ما أدركه الخطباء..» ثم يضيف: «**ومن ثم كان على كل من أصاب حظًا فى العلم أوفر أن يكون نصيبه من علم القرآن أكثر؛ لأن عقله حينئذ يكون قد استنار بأضواء العلم، وهؤلاء الذين اهتم القرآن بمناداتهم كلما ذكر حجة على الربوبية والوحدانية، أو أضاف إليهم أولو الألباب والسامعون والمفكرون والمتذكرون تنبيهًا إلى أن بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقة منها**».

من هنا كان واجب المتخصصين من المسلمين في كل عصر وفي كل جيل أن ينفر منهم من يستطيع أن يجمع إلى حقل تخصصه إلمامًا بحد أدنى من علوم اللغة العربية وآدابها، ومن الحديث وعلومه، والفقه وأصوله، وعلم الكلام وقواعده، وإحاطة بأسباب النزول، وبالمأثور في التفسير، وباجتهاد السابقين من أئمة المفسرين، ثم يعود هؤلاء إلى دراسة الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله - كلٌ فيما يخصه - محاولين فهمها في ضوء معطيات العلم وكشوفه، وقواعد المنطق وأصوله حتى يدركوا ما يستطيعون من فهم لكتاب الله فتتحقق نبوءة المصطفى ﷺ في وصفه لهذا الكتاب العزيز بأنه: «لا تنقضي عجائبه»[1].

٣- أن القول بعدم جواز تأويل الثابت بالمتغير قول ساذج؛ لأن معناه الجمود على فهم واحد لكتاب الله، ينأى بالناس عن واقعهم في كل عصر، حتى لا يستسيغوه فيملوه ويهملوه، وثبات القرآن الكريم.. وهو من السمات البارزة له لا يمنع من فهم الإشارات الكونية الواردة فيه على أساس من معطيات العلوم الكونية البحتة منها والتطبيقية، حتى ولو كان ذلك يتسع من عصر إلى آخر بطريقة مطردة، فالعلوم المكتسبة كلها لها طبيعة تراكمية، ولا يتوافر للإنسان منها في عصر من العصور إلا أقدار تتفاوت بتفاوت الأزمنة، وتباين العصور، تقدمًا واضمحلالاً، وهذه الطبيعة التراكمية للمعرفة الإنسانية المكتسبة تجعل الأمم اللاحقة أكثر علمًا في مجال الكونيات - بصفة عامة - من الأمم السابقة، إلا إذا تعرضت الحضارة الإنسانية بأكملها للانتكاس والتدهور.

من هنا كانت معطيات العلوم الكونية - بصفة خاصة، والمعارف المكتسبة كلها بصفة عامة - دائمة التغير والتطور، بينما كلمات وحروف القرآن الكريم ثابتة لا تتغير، وهذا وحده من أعظم شواهد الإعجاز في كتاب الله.

وعلى الرغم من ثبات اللفظ القرآني، وتطور الفهم البشري لدلالاته - مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية جيلاً بعد جيل - فإن تلك الدلالات يتكامل بعضها مع بعض في اتساق لا يعرف التضاد، ولا يتوافر ذلك لغير كلام الله. ويظل اللفظ القرآني

(١) سبق تخريجه ص (١٤).

ثابتًا، وتتوسع دائرة فهم الناس له عصراً بعد عصر . . وفى ذلك شهادة للقرآن الكريم بأنه يغاير كلام البشر كافة، وأنه ـ بالقطع ـ بيان من الله ـ تعالى . . . ولذلك فإننا نجد القرآن الكريم يحض الناس حضّا على تدبر آياته، والعكوف على فهم دلالاتها، ويتحدى أهل الكفر والشرك والإلحاد أن يجدوا فيه صورة واحدة من صور الاختلاف أو التناقض على توالى العصور عليه، وكثرة النظر فيه، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]. وإذ يكرر التساؤل التقريعى فى سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ٦٦]، ويؤكد ضرورة تدبر القرآن، وأنه ـ تعالى ـ قد جعله فى متناول عقل الإنسان فيذكر ذلك أربع مرات فى سورة القمر ، حيث يصدع التنزيل بقول الحق ـ تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

والذكر هنا ـ كما يجمع المفسرون ـ يشمل التلاوة والتدبر معًا، ويشير إلى استمرار تلك العملية مع توالى العصور وتجدد الأزمان، ومن هنا يبقى النص القرآنى ثابتًا، ويتجدد فهم الناس له كلما اتسعت دائرة معارفهم ونمت حصيلتهم العلمية، وذلك بالقطع ـ فيما لم يرد فى شرحه شيء من المأثور الموثق. وليس فى ذلك مقابلة بين كلام الله وكلام الناس كما يدعى البعض، ولكنه المحاولة الجادة لفهم كلام الله، وهو ـ تعالى ـ الذى أنزله للبشر؛ لكى يفهموه، ويتعظوا بدروسه. وفهم آيات القرآن الكريم ـ فى الوقت نفسه بمعان تتسع مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية باستمرار، وفى تكامل لا يعرف التضاد ـ هو صورة من صور الإعجاز فى كتاب الله، لا ينكرها إلا جاحد.

أما القول بأن ما يسمى بحقائق العلم ليس إلا نظريات وفروضًا، يبطل منها اليوم ما كان سائدًا بالأمس، وربما يبطل فى الغد ما هو سائد اليوم فهو أيضًا قول ساذج؛ لأن هناك فروقًا واضحة بين الفروض والنظريات من جهة، والقواعد والقوانين من جهة أخرى، وهى مراحل متتابعة فى منهج العلوم التجريبية الذى يبدأ بالفروض والحقائق ثم النظريات، وينتهى بالقواعد والقوانين والحقائق. والفروض هى

تفسيرات أولية للظواهر الكونية، والنظريات هى صياغة عامة لتفسير كيفية حدوث تلك الظواهر ومسبباتها، أما الحقائق الكونية فهى ما يثبت ثبوتًا قاطعًا فى علم الإنسان بالأدلة المنطقية المقبولة، وهى جزء من الحكمة التى نحن أولى الناس بها كما علمنا المصطفى ﷺ. أما القواعد والقوانين العلمية فهى تعبيرات بشرية عن السنن الإلهية فى الكون، تصف علاقات محددة تربط بين عناصر الظاهرة الواحدة، أو بين عدد من الظواهر الكونية المختلفة، وهى كذلك جزء من الحكمة التى هى ضالة المؤمن، كما أخبر الصادق المصدوق ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم[1].

٤ ـ هذا وقد حرص كثير من علماء المسلمين، على ألا يتم تأويل الإشارات العلمية الواردة فى القرآن الكريم أو فى أقوال خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ إلا فى ضوء الحقائق العلمية المؤكدة والقوانين والقواعد الثابتة، أما الفروض والنظريات فلا يجوز تخديمهما فى فهم ذلك أبدًا، إلا فى حالة الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بالقضايا التى لا تخضع خضوعًا مباشرًا لحس الإنسان وإدراكه من مثل قضايا الخلق بأبعادها الثلاثة، وقضايا الإفناء والبعث. وحتى هذا الموقف نعتبره تحفظًا مبالغًا فيه، فكما يختلف دارسو القرآن الكريم فى فهم بعض الدلالات اللفظية، والصور البيانية، وغيرها من القضايا اللغوية، ولا يجدون حرجًا فى ذلك العمل الذى يقومون به فى غيبة نص ثابت مأثور، فإننا نرى أنه لا حرج على الإطلاق فى فهم الإشارات الكونية الواردة بالقرآن الكريم على ضوء المعارف العلمية المتاحة، حتى ولو لم تكن تلك المعارف قد ارتقت إلى مستوى الحقائق الثابتة؛ وذلك لأن التفسير يبقى جهدًا بشريًا خالصًا ـ بكل ما للبشر من صفات القصور، والنقص، وحدود القدرة ـ، ثم إن العلماء التجريبيين قد يجمعون على نظرية ما، لها من الشواهد ما يؤيدها، وإن لم ترق بعد إلى مرتبة الحقيقة أو القاعدة أو القانون، ولا يكون أمام العلماء من مخرج للوصول بها إلى ذلك المستوى أبدًا، فمن أمور الكون العديدة ما لا سبيل للعلماء التجريبيين من الوصول فيها إلى حقيقة أبدًا، ولكن قد يتجمع لديهم من الشواهد ما يمكن أن يعين

(١) العجلونى فى «كشف الخفاء» (١/ ٤٣٥).

على بلورة نظرية من النظريات، ويبقى العلم التجريبي مسلمًا بأنه لا يستطيع أن يتعدى تلك المرحلة في ذلك المجال بعينه أبدًا، والأمثلة على ذلك كثيرة منها النظريات المفسرة لأصل الكون وأصل الحياة وأصل الإنسان، وقد مرت بمراحل متعددة من الفروض العلمية حتى وصلت اليوم إلى عدد من النظريات المقبولة، ولا يتخيل العلماء أنهم سيصلون في يوم من الأيام إلى أكثر من تفضيل لنظرية على أخرى، أو تطوير لنظرية عن أخرى، أو وضع لنظرية جديدة، دون الادّعاء بالوصول إلى حقيقة راسخة أو قانون قطعي، أو قاعدة ثابتة لذلك أبدًا. فتكثر النظريات المفسرة لظواهر محددة، وتختلف باختلاف خلفية واضعيها، ويبقى للمسلم نور من الله الخالق في آية قرآنية كريمة، أو حديث نبوي صحيح يمكن أن يعينه على الارتقاء بإحدى هذه النظريات إلى مقام الحقيقة لمجرد وجود إشارة لها في كتاب الله أو في حديث رسول الله ﷺ، وإن لم يستطع العلم المكتسب أن يقوم بذلك. فهذه مجالات إذا دخلها الإنسان بغير هداية ربانية فإنه يضل فيها ضلالاً بعيدًا، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

وذلك لأنه على الرغم من أن العلماء التجريبيين يستقرئون حقائق الكون بالمشاهدة والاستنتاج، أو بالتجربة والملاحظة والاستنتاج، في عمليات قابلة للتكرار والإعادة، إلا أن من أمور الكون ما لا يمكن إخضاعه لذلك من مثل قضايا الخلق بأبعاده الثلاثة: خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الإنسان. وهي قضايا لا يمكن للإنسان أن يصل فيها إلى تصور صحيح أبدًا بغير هداية ربانية. ولولا الثبات في سنن الله التي تحكم الكون وما فيه ما تمكن الإنسان من اكتشاف تلك السنن أبدًا. . . . ولا يظن عاقل أن البشر مطالبون بما هو فوق طاقاتهم، خاصة في فهم كتاب الله الذي أنزل لهم، ويسر لتذكرهم؛ لقول الحق - تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]. ففي الوقت الذي يقرر فيه القرآن الكريم أن الله لم يُشهد أيًا من الجن والإنس خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم، نجده في آيات أُخَر يأمرهم بالنظر في كيفية بداية الخلق، وهي من أصعب

قضايا العلوم الكونية قاطبة؛ إذ يقول عز من قائل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩ - ٢٠].

وفى ذلك ما يشير إلى أن بالأرض سجلاً حافلاً بالحقائق التى يمكن أن يستدل منها على كيفية بدء الخلق الأول، وعلى إمكانية النشأة الآخرة، والأمر فى الآية من الله - تعالى - إلى رسوله الكريم ليدعو الناس كافة إلى السير فى الأرض، واستخلاص العبرة من فهم كيفية الخلق الأول، وهى قضية تقع من العلوم الكونية فى الصميم، إن لم تكن تشكل أصعب قضية علمية عالجها الإنسان.

وهذه القضايا: قضايا الخلق وإفنائه وإعادة خلقه، لها فى كتاب الله وفى سنة رسوله ﷺ من الإشارات اللطيفة ما يُمكِّن الإنسان المسلم من تفضيل نظرية من النظريات أو فرض من الفروض والارتقاء بهما إلى مقام الحقيقة لمجرد ورود ذكر لها أو له فى كتاب الله أو فى سنة رسوله ﷺ، ونكون بذلك قد انتصرنا بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة للعلم وليس العكس.

وعلى ذلك فإنى أرى جواز فهم الإشارات العلمية الواردة بالقرآن الكريم على أساس من الحقائق العلمية الثابتة أولاً، فإن لم تتوافر فبالنظرية السائدة، فإن لم تتوافر فبالفرض العلمى المنطقى المقبول، حتى لو أدى التطور العلمى فى المستقبل إلى تغيير تلك النظرية، أو ذلك الفرض أو تطويرهما أو تعديلهما؛ وذلك لأن التفسير - كما سبق وأن أشرت - يبقى اجتهاداً بشريًا خالصًا من أجل حسن فهم دلالة الآية القرآنية إن أصاب فيه المرء فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد، ويبقى هذا الاجتهاد قابلاً للزيادة والنقصان، وللنقد والتعديل والتبديل.

إن فى كون القرآن الكريم بيانًا من الله - تعالى - إلى الناس كافة، يفرض على المتخصصين من أبناء المسلمين أن يفهموه - كلٌّ فى حقل تخصصه - على ضوء ما تجمع له من معارف بتوظيف مناهج الاستقراء الدقيقة؛ فالقرآن نزل للناس ليفهموه وليتدبروا آياته. ثم إن فى تفسير آيات الكونيات على ضوء من معطيات العلوم

التجريبية لا يشكل احتجاجًا على القرآن بالمعارف المكتسبة ، ولا انتصاراً له بها فالقرآن ـ بالقطع ـ فوق ذلك كله ، ولأن التفسير على أساس من المعطيات العلمية الحديثة يبقى محاولة بشرية للفهم فى إطار لم يكن متوفراً للناس من قبل ، ولا يمكن أن تكون محاولات البشر لفهم القرآن الكريم حجة على كتاب الله ، سواء أصابت أم أخطأت تلك المحاولات ، وإلا لما حفل القرآن الكريم بهذا الحشد الهائل من الآيات التى تحض على استخدام كل الحواس البشرية للنظر فى مختلف جنبات الكون بمنهج علمى استقرائى دقيق . وذلك لأن الله ـ تعالى ـ قد جعل السنن الكونية على قدر من الثبات والاطراد بحيث يمكنان حواس الإنسان المتأمل لها ، والمتفكر فيها ، والمتدبر لتفاصيل جريانها من إدراك أسرارها (على الرغم من حدود قدرات تلك الحواس) ويعينان عقله على فهمها (على الرغم من حدود قدرات ذلك العقل) ، وربما كان هذا هو المقصود من آيات التسخير التى يزخر بها القرآن الكريم ، ويمن علينا ربنا ـ تبارك وتعالى ، وهو صاحب الفضل والمنة ـ بهذا التسخير الذى هو من أعظم نعمه علينا ـ نحن العباد .

ومن أروع ما يدركه الإنسان المتأمل فى الكون كثرة الأدلة المادية الملموسة على كل حدث وقع فى الكون صغر أم كبر ، أدلة مدونة فى صفحة السماء ، وفى صخور الأرض بصورة يمكن لحواس الإنسان ولعقله إدراكها لو اتبع المنهج العلمى الاستقرائى الصحيح ، فما من انفجار حدث فى الكون إلا وهو مدون ، وما من نجم توهج أو خمد إلا وله أثر ، وما من هزة أرضية أو ثورة بركانية أو حركة بانية للجبال إلا وهى مسجلة فى صخور القشرة الأرضية ، وما من تغير فى تركيب الغلاف الغازى أو المائى للأرض إلا وهو مدون فى صخورها ، وما من تقدم للبحار أو انحسار لها ، ولا تغير فى المناخ إلا وهو مدون كذلك فى صخور الأرض ، وما من هبوط نيزك من النيازك على الأرض إلا وهو مسجل فى صخورها . ومن هنا فإن الدعوة القرآنية للتأمل فى الكون واستخلاص سنن الله فيه ، وتوظيف تلك السنن فى عمارة الأرض والقيام بواجب الاستخلاف فيها هى دعوة للناس فى كل زمان ومكان ، وهى دعوة لا تتوقف ولا تتخلف ولا تتعطل أبدًا ، انطلاقًا من الحقيقة الواقعة أنه مهما اتسعت دائرة المعرفة الإنسانية فإن القرآن الكريم يبقى ـ دومًا ـ

مهيمنًا عليها، ومحيطًا بها؛ لأنه كلام الله الخالق الذى أبدع هذا الكون بعلمه وقدرته وحكمته، والذى هو أدرى بصنعته من كل من هم سواه.

وعلى ذلك فإن مقابلة كلام الله بمحاولة البشر لتفسيره، وإثبات جوانب الإعجاز فيه، لا تنتقص من جلال الربوبية الذى يتلألأ بين كلمات هذا البيان الربانى الخالص، وإنما تزيد المؤمنين ثباتًا على إيمانهم، وتقيم الحجة على الجاحدين من الكفار والمشركين، وحتى لو أخطأ المفسر فى فهم دلالة آية من آيات القرآن الكريم فإن هذا الخطأ يعود على المفسر نفسه ولا ينسحب على جلال كلام الله أبدًا، والذين فسروا باللغة أصابوا وأخطأوا، وكذلك الذين فسروا بالتاريخ، فليحاول العلماء التجريبيون تفسير الآيات الكونية بما تجمع لديهم من معارف؛ لأن تلك الآيات لا يمكن فهم دلالاتها فهمًا كاملاً، ولا استقراء جوانب الإعجاز فيها فى حدود اللغة وحدها.

إن الاحتجاج بأن العلوم التجريبية - فى ظل الحضارة المادية المعاصرة - تنطلق فى معظمها من منطلقات مادية بحتة، تنكر أو تتجاهل الغيب، ولا تؤمن بالله، وأن للكثيرين من المشتغلين بالعلوم الكونية مواقف عدائية واضحة من قضية الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فمردهما بعيد عن طبيعة العلوم الكونية، وإنما يرجع ذلك إلى العقائد الفاسدة التى أفرزتها الحضارة المادية المعاصرة، والتى تحاول فرضها على كل استنتاج علمى، وعلى كل رؤية شاملة للكون والحياة، فى وقت حقق فيه الإنسان قفزات هائلة فى مجال العلوم الكونية البحتة منها والتطبيقية، بينما تخلف المسلمون فى كل أمر من أمور الحياة -بصفة عامة- وفى مجال العلوم والتقنية -بصفة خاصة- مما أدى إلى انتقال القيادة الفكرية فى هذه المجالات على وجه الخصوص إلى أمم سبق للعلماء فيها أن عانوا معاناة شديدة من تسلط الكنيسة عليهم، واضطهادها لهم، ورفضها للمنهج العلمى ولكل معطياته، ووقوفها حجر عثرة فى وجه أى تقدم علمى، كما حدث فى أوروبا فى أوائل عصر النهضة. وظل الحال كذلك حتى انتصرت حقائق العلم على خرافات الكنيسة فانطلق العلماء الغربيون من منطلق العداوة للكنيسة أولاً ثم لقضية الإيمان بالتبعية،

وداروا بالعلوم الكونية ومعطياتها فى إطارها المادى فقط، وبرعوا فى ذلك براعة ملحوظة، ولكنهم ضلوا السبيل وتنكبوه حينما حبسوا أنفسهم فى إطار المادة وحدها، ولم يتمكنوا من إدراك ما فوقها، وحرموا أنفسهم من مجرد التفكير فيه، فأصبحت الغالبية العظمى من العلوم تكتب من مفهوم مادى صرف، وانتقلت عدوى ذلك إلى عالمنا المسلم أثناء مرحلة اللهث وراء اللحاق بالركب التى نعيشها منذ بدايات القرن العشرين، وما صاحب ذلك من مركبات الشعور بالنقص، أو نتيجة لدس الأعداء، وانبهار البلهاء بما حققته الحضارة المادية المعاصرة من انتصارات فى مجال العلوم البحتة والتطبيقية، وما وصلت إليه من أسباب القوة المادية والغلبة العسكرية، وما حملته معها حركة الترجمة من غث وسمين، فأصبحت العلوم تكتب اليوم فى عالمنا المعاصر من نفس المنطلق؛ لأنها عادة ما تدرس وتكتب وتنشر بلغات أجنبية على نفس النمط الذى أرست قواعده الحضارة المادية المعاصرة. وحتى ما ينشر منها باللغة العربية، وبغيرها من اللغات المحلية فى مختلف دول العالم الإسلامى المعاصر، لا يكاد يخرج فى مجموعه عن كونه ترجمة مباشرة أو غير مباشرة للفكر الغريب الوافد، بكل ما فيه من تعارض واضح أحيانًا مع نصوص الدين، وهنا تقتضى الأمانة إثبات أن ذلك الموقف غريب على العلم وحقائقه، ومن هنا أيضًا كان من واجب المسلمين إعادة التأصيل الإسلامى للمعارف المكتسبة كلها، أى إعادة كتابة العلوم وغيرها من المعارف المكتسبة من منطلق إسلامى صحيح، خاصة وأن المعطيات الكلية للعلوم - بعد وصولها إلى قدر من التكامل فى هذا العصر - أصبحت من أقوى الأدلة على وجود الله، وعلى تفرده بالألوهية والربوبية والوحدانية فوق جميع خلقه، ومن أنصع الشواهد على حقيقة الخلق، وحتمية البعث، وضرورة الحساب. وأن العلوم الكونية كانت ولا تزال النافذة الرئيسية التى تتصل منها الحضارة المعاصرة بالفطرة الربانية، وأن المنهج العلمى ونجاحه فى الكشف عن عدد من حقائق هذا الكون متوقف على اتساق تلك الفطرة واتصاف سننها بالاطراد والثبات.

إن القول بأن المعطيات الكلية للعلوم التجريبية - كما تصاغ فى الحضارة المادية المعاصرة - قد تتباين مع الأصول الإسلامية الثابتة، قول على إطلاقه غير صحيح؛

لأنه إذا جاز ذلك فى بعض الاستنتاجات الجزئية الخاطئة، أو فى بعض الأوقات كما كان الحال فى مطلع القرن العشرين، والمعرفة بالكون جزئية متناثرة، ساذجة بسيطة، أو فى الجزء المتوسط منه عندما أدت المبالغة فى التخصص إلى حصر العلماء فى دوائر ضيقة للغاية حجبت عنهم الرؤية الكلية لمعطيات العلوم، فإنه لا يجوز اليوم وقد بلغت المعارف بأشياء هذا الكون حدًّا لم تبلغه البشرية من قبل، وأصبحت الاستنتاجات الكلية لتلك المعارف تؤكد ضرورة الإيمان بالخالق البارئ المصور الذى ليس كمثله شىء، وضرورة التسليم بالغيب وبالوحى وبالبعث وبالحساب، فمن المعطيات الكلية للعلوم الكونية المعاصرة ما يمكن إيجازه فيما يلى:

- إن هذا الكون الذى نحيا فيه متناه فى أبعاده، مذهل فى دقة بنائه، وإحكام ترابطه وانتظام حركاته.

- إن هذا الكون مبنى على نفس النظام من أدق دقائقه إلى أكبر وحداته.

- إن هذا الكون دائم الاتساع إلى نهاية لا يستطيع العلم المكتسب إدراكها، وإن أمكنه قياس معدلات هذا التوسع.

- إن هذا الكون - على قدمه - مستحدث مخلوق، كانت له فى الماضى السحيق بداية يحاول العلم التجريبى قياسها، ووصل فيها إلى دلالات تكاد تكون ثابتة إذا استبعدنا الأخطاء التجريبية.

- إن هذا الكون عارض، فلا بد من أن ستكون له فى يوم من الأيام نهاية تشير إليها كل الظواهر الكونية من حولنا، وإن عجزنا عن تحديد وقتها الذى لا يعلمه إلا الله.

- إن هذا الكون المادى لا يمكن أن يكون قد أوجد نفسه بنفسه، ولا يمكن لأى من مكوناته المادية أن تكون قد أوجدته.

- إن هذا الكون المتناهى الأبعاد، الدائم الاتساع، المحكم البناء، الدقيق الحركة والنظام، والذى يدور كل ما فيه فى مدارات محددة ويجرى بسرعات مذهلة متفاوتة وثابتة، لا يمكن أن يكون قد وجد بمحض المصادفة.

● هذه المعطيات السابقة تفضى إلى حقيقة منطقية واحدة مؤداها أنه إذا كان هذا الكون الحادث لا يمكن أن يكون قد أوجد نفسه بنفسه أو أن يكون قد وجد بمحض المصادفة، فلا بد له من موجد عظيم له من العلم والقدرة والحكمة وغير ذلك من صفات الكمال والتنزيه ما لا يتوفر لشيء من خلقه، بل لا مهرب من الاعتراف بأن يكون لهذا الخالق العظيم من الصفات ما يغاير صفات المخلوقات جميعًا فلا تحده حدود المكان والزمان، ولا قوالب المادة والطاقة ولابد من أن تكون مرجعية الكون كله إليه، وبالتالى فلا بد من أن يكون خارج حدود الكون، وأن يرجع أمر الكون كله إليه، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ولا ينسحب عليه ما يحكم خلقه من سنن وقوانين؛ لأنه ـ سبحانه وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

● هذا الخالق العظيم الذى أوجد الكون بما فيه ومن فيه هو وحده الذى يملك القدرة على إزالته وإفنائه ثم إعادة خلقه وقتما شاء وكيفما شاء، وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ويقول عز من قائل: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وقال جل شأنه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

● إن الوحدة فى هذا الكون تشير إلى وحدانية هذا الخالق العظيم: وحدة بناء كل من الذرة، والخلية الحية، والمجموعة الشمسية، والمجرة، وغيرها من تجمعات أجرام السماء، ووحدة تآصل العناصر كلها وردها إلى أبسطها وهو غاز الأيدروچين، ووحدة تواصل كل صور الطاقة، وتواصل المادة والطاقة، وتواصل كلٍّ من المكان والزمان، هذا التواصل وتلك الوحدة التى يميزها التنوع فى أزواج، وتلك الزوجية التى تنتظم كل صور المخلوقات من الجمادات والأحياء (من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان) تشهد بتفرد الخالق البارئ المصور بالوحدانية

المطلقة فوق جميع خلقه، واستعلاء هذا الخالق الواحد الأحد الفرد الصمد فوق خلقه بمقام الألوهية الذى لا يشاركه فيه أحد، ولا ينازعه على سلطانه منازع ولا يشبهه من خلقه شيء.

● إن العلوم التجريبية فى تعاملها مع المدرك المحسوس فقط، قد استطاعت أن تتوصل إلى أن بالكون غيبًا قد لا يستطيع الإنسان أن يشق حجبه، ولولا ذلك الغيب ما استمرت تلك العلوم فى التطور والنماء؛ لأن أكبر الاكتشافات العلمية قد تم نتيجة للبحث الدءوب عن هذا الغيب.

● وتؤكد العلوم التجريبية أن بالأحياء سرّا لا نعرف كنهه؛ لأننا نعلم مكونات الخلية الحية، والتركيب المادى لجسد الإنسان، ومع ذلك لم يستطع هذا العلم أن يصنع لنا خلية حية واحدة، أو أن يوجد لنا إنسانًا عن غير الطريق الفطرى لإيجاده. وحتى الاستنساخ الذى هو عبث بالخلق لا يخرج عن ذلك فى شيء.

● إن النظر فى أىّ من زوايا الكون ليؤكد حاجته - بمن فيه وما فيه - إلى رعاية خالقه العظيم فى كل لحظة من لحظات وجوده.

● إن العلوم الكونية إذ تقدر أن الكون والإنسان فى شكليهما الحاليين ليسا أبديين، فإنها - وعلى غير قصد منها - لتؤكد حقيقة الآخرة، بل حتميتها، والموت يتراءى فى مختلف جنبات الكون فى كل لحظة من لحظات وجوده، شاملاً الإنسان والحيوان والنبات والجماد وأجرام السماء على تباين هيئاتها، وتكفى فى ذلك الإشارة إلى ما أثبتته الدراسة من أن الشمس تفقد من كتلتها بالإشعاع على هيئة طاقة ما يقدر بحوالى ٤,٦ مليون طن فى كل ثانية، وأنها إذ تستمر فى ذلك فلا بد من أن يأتى الوقت الذى تخبو فيه جذوتها، وينطفئ أوارها، وتنتهى الحياة على الأرض قبل ذلك؛ لاعتماد الأرض فى ممارسة أنشطتها الحيوية على القدر المقنن الذى يصلها من أشعة الشمس، وأن الطاقة تنتقل من الأجسام الحارة إلى الأجسام الأقل حرارة بطريقة مستمرة فى محاولة لتساوى درجات حرارة الأجرام المختلفة فى الكون، ولا بد أن تنتهى بذلك أو قبله كل صور الحياة المعروفة لنا. وليس معنى

ذلك أنه يمكن معرفة متى تكون نهاية هذا الوجود؛ لأن الآخرة قرار إلهى لا يرتبط بسنن الدنيا، وإن أبقى الله - تعالى - لنا فى الدنيا من الظواهر والسنن ما يؤكد إمكانية وقوع الآخرة، بل حتميتها انصياعًا للأمر الإلهى بـ ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

والقرآن الكريم يؤكد لنا فيه ربنا - تبارك وتعالى - فجائية وقوع الآخرة بقوله العزيز مخاطبًا خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمدًا ﷺ فيقول: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وتكفى فى ذلك الإشارة إلى أن الإنسان الذى يحوى جسده فى المتوسط ألف مليون مليون خلية يفقد منها فى كل ثانية ما يقدر بحوالى ١٢٥ مليون خلية، تموت ويتخلق غيرها بحيث تتبدل جميع خلايا جسد الفرد من بنى البشر مرة كل عشر سنوات تقريبًا، فيما عدا الخلايا العصبية التى إذا ماتت لا تتجدد.

وتكفى فى ذلك أيضًا الإشارة إلى أن انتقال الإليكترون من مدار إلى آخر حول نواة الذرة يتم بسرعة مذهلة، دفعت بعدد من العلماء المعاصرين إلى الاعتقاد بأنه فناء فى مدار وخلق جديد فى مدار آخر.

كما تكفى الإشارة إلى ظاهرة اتساع الكون عن طريق تباعد المجرات عن بعضها البعض بسرعات مذهلة تقترب من سرعة الضوء (المقدرة بحوالى ثلاثمائة ألف كيلو متر فى الثانية) وتخلق المادة فى المسافات الجديدة الناتجة عن هذا التباعد المستمر إلى نهاية لا يعلمها إلا الله، وبطريقة لا يعلمها إلا الله. وتباطؤ هذا التباعد مع الزمن يشير إلى حتمية تغلب الجاذبية على عملية الدفع إلى الخارج، مما يؤدى إلى إعادة جمع مادة الكون ومختلف صور الطاقة فيه وكل المكان والزمان فى جرم واحد ذى كثافة بالغة يشبه الجرم الأول الذى بدأ منه خلق الكون، وهذا سوف يؤدى إلى انفجاره على هيئة شبيهة بالانفجار الأول الذى تم به خلق الكون، فيتحول هذا

الجرم إلى غلالة من دخان كما تحول الجرم الأول، وتتخلق من هذا الدخان أرض غير الأرض، وسماوات غير السماوات كما وعد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بقوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، [إبراهيم: ٤٨].

وتكفى فى ذلك أيضًا الإشارة إلى فناء مختلف صور المادة والطاقة فى داخل الثقوب السود إلى نهاية لا يعلمها إلا الله ـ تعالى. ويكفى أن نشير إلى حقيقة أن الذرات فى جميع الأحماض الأمينية والجزيئات البروتينية تترتب ترتيبًا يساريًا فى أجساد كافة الكائنات الحية على اختلاف مراتبها، فإذا ما مات الكائن الحى أعادت تلك الذرات ترتيب نفسها ترتيبًا يمينيًا بمعدلات ثابتة محددة يمكن بواسطتها تحديد لحظة وفاة الكائن الحى إذا بقيت من جسده بقية بعد مماته، ويتعجب العلماء من القدرة التى مكنت الذرات من تلك الحركات المنضبطة بعد وفاة صاحبها وتحلل جسده!!

فهل يمكن لعاقل بعد ذلك أن يتصور أن العلوم الكونية ومعطياتها فى أزهى عصور ازدهارها ـ تتصادم مع قضية الإيمان بالله؟ وهذه هى معطياتها الكلية، وهى فى جملتها تكاد تتطابق مع تعاليم السماء، وفى ذلك كتب المفكر الإسلامى الكبير الأستاذ محمد فريد وجدى ـ يرحمه الله ـ فى خاتمة كتابه «المستقبل للإسلام» ما نصه:

«إن كل خطوة يخطوها البشر فى سبيل الرقى العلمى، هى تقرب إلى ديننا الفطرى، حتى ينتهى الأمر إلى الإقرار الإجماعى بأنه الدين الحق».

ثم يضيف.. **«نعم إن العالم بفضل تحرره من الوراثات والتقاليد وإمعانه فى النقد والتمحيص، يتمشى على غير قصد منه نحو الإسلام، بخطوات متزنة ثابتة، لا توجد قوة فى الأرض ترده عنه إلا إذا انحل عصام المدنية، وارتكست الجماعات الإنسانية عن وجهتها العلمية».**

وقد بدأت بوادر هذا التحول الفكرى تظهر جلية اليوم فى مختلف جنبات الأرض، بإقبال أعداد كبيرة من العلماء والمتخصصين وكبار المثقفين والمفكرين على الإسلام، إقبالاً لم تعرف له الإنسانية مثيلاً من قبل، وأعداد هؤلاء العلماء الذين

توصلوا إلى الإيمان بالله عـن طريق النظر المباشـر فى الكون، واسـتدلوا على صـدق خاتم أنبيـائه ورسله ﷺ بالوقوف على عدد من الإشـارات العلمية البارقـة الصادقة فى كـتاب الله، أو فى سنـة رسوله ﷺ هم فى تزايد مـسـتمـر، وهذا واحـد منهم هو «مـوريس بوكاى» الطبـيب والباحث الفـرنسى يسـجل فى كتـابه «الإنجيل والقـرآن والعلم» ما نصه:

«لقد أثارت هذه الجـوانب العلميـة التى يختص بهـا القرآن دهشتى الـعميـقة فى البـداية، فلم أكن أعـتقـد قط بإمكان اكـتشـاف عدد كـبـير - إلى هذا الحـد - من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقـة تمامًا للمعارف العلمية الحديثة، وذلك فى نص دوّن منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا».

٨ - إن فهم الإشارات الكونيـة فى كتاب الله، على ضوء ما تجمع للبـشرية اليوم من معـارف، وتقديمها للعـالم كواحد من الأدلة العـديدة على أن القرآن الكريم هو كلام الله الذى أنزله بعـلمه على خاتم أنبـيائه ورسله ﷺ، والذى لا يأتيـه الباطل من بين يديه ولا من خلفـه، والذى حفظ بحـفظ الله، بنفس اللغـة التى أوحى بها (اللـغة العربية)، بدقائق حـروفه وكلماته وآياته وسوره، يعتبر فتـحًا جديدًا للإسلام، وإنقاذًا للبشـرية من الهاوية التى تتـردى فيهـا اليوم بسبب تقـدمها العلمـى والتقنى المذهل، وتضاؤل روح الإيمـان بالله، وانعدام الخـشيـة من عذابه فى نفـوس العدد الأكـبر من الناس، خاصـة فى أكثر المجتـمعات البـشرية المعاصرة أخـذًا بأسباب التـقدم العلمى والتقنى، فـأغلب المجتمعـات البشرية فى الدول غـير المسلمة تعانى اليـوم من انفراط عقد الأسرة، والتقنين للممارسـات الجنسية بدون أدنى رباط، فكثر حمل المراهقات، وأبناء الزنا، والأسـر ذات العائل الواحـد، وتفشت الأمـراض والأوباء والعلل مما لم يكن معروفًا من قبل، وقنّنت الحكومات فى الكثـير من دول العالم اليوم التشريعات للعلاقات الشاذة، وصرحت بتبنى الأطفال وتـنشئتهم فى وسط الشواذ - وهى عملية مدمرة للفطرة الإنسانيـة - فكثرت الأزمات النفسية وأمراضهـا، وتضاعفت معدلات كلّ من الإدمان والجـريمة والانتحـار، وملئت أكثر المجتـمعات البـشرية ثراء وتطورًا ماديًا بأخطر مشاكل المجتمعات الإنسانية على الإطلاق...!!!

ومن هؤلاء الذين لا يعرفون لهم أبا، والذين خرجوا إلى الحياة بطرق غير مشروعة، ونشأوا فى بيئات فاسدة، وبين سلوكيات منحطة وضيعة مَنْ يمكن أن يصل إلى مقام السلطة فى دول تملك من تقنيات ووسائل الغلبة المادية، ومن مختلف أسلحة الدمار الشامل ما يمكن أن يعينه على البطش بالخلق، وإفشاء الظلم، وتدمير الحياة على الأرض، وإفساد بيئاتها والقضاء على مختلف صور الحياة فيها. . . !!! ولا يجد من دين أو خلق أو منطق أى رادع يمكن أن يرده عن ذلك تمامًا كما يفعل كلٌّ من المجرم «شارون» و«جورج بوش الابن» وذنبه الأعوج «تونى بلير» وعصاباتهم اللعينة التى ملأت الأرض ظلمًا، وجورًا، وفسادًا، ودمارًا، وإهدارًا لكرامة الإنسان، وتدميرًا للقيم والأخلاق والمبادئ، وللقوانين والأعراف ولحقوق الإنسان، وللشرعية والدولية فى عالم اليوم. . . !!!

وأغلب وسائل الإعلام قد وقعت اليوم فى أيدى غلاة اليهود المتعصبين لأسطورة شعب الله المختار، فى مؤامرة خسيسة على الإنسانية - وهم بهذا أشد الناس عداوة للذين آمنوا بصفة خاصة وللإنسان غير اليهودى بصفة عامة - فوظفوا كافة تلك الوسائل الإعلامية فى تدمير البقية الباقية من عقائد وأخلاقيات وسلوكيات المجتمعات الإنسانية، وفى تشويه صورة الإسلام فى أذهان الناس؛ وذلك لأنه مما يسوؤهم أن يروا الإسلام ينتشر فى مجتمعاتهم فى الوقت الذى يتصورون فيه أنهم قد أحاطوا بالإسلام والمسلمين إحاطة كاملة. **وعلى الرغم من كل ذلك فإنه يقبل على الإسلام اليوم فى الغرب والشرق قمم الفكر والعلم والرأى؛ لأنهم يرون فيه المخرج الوحيد من الوحل النتن الذى غاصت فيه مجتمعاتهم.**

ووسيلتنا فى تحسين صورة الإسلام فى العالم هى حسن الدعوة إليه بالكلمة الطيبة، والحجة الواضحة، والمنطق السوى. وخير ما نقدمه فى ذلك المضمار مما يتناسب مع طبيعة العصر ولغته هو الإعجاز العلمى للقرآن الكريم وللسنة النبوية المطهرة؛ لأننا نعيش فى زمن أدار فيه غالبية الناس ظهورهم للدين، ولم تعد قضايا الغيب المطلق من حساب فى القبر، وبعث بعد الموت، وعرض أكبر أمام الله الخالق، وخلود فى حياة قادمة: إما فى الجنة أبدًا، أو فى النار أبدًا، وغيرها من قضايا الدين لم تعد تحرك فيهم ساكنًا، ولكنهم فى نفس الوقت قد فتنوا بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة،

فإذا أشرنا إلى سبق للقرآن الكريم بالإشـارة إلى عدد من حقائق الكون قبل أن يصل الإنسان إلى شيء منها بالمئـات العديدة من السنين، وهو الكتاب الذى أنزل على نبى أمى ﷺ ، فى أمة كان غالبيـتها الساحقة من الأميين، فـإن ذلك سوف يحرك عقولهم وقلوبهم، وسوف يحضـهـم على قراءة كتاب الله الذى ما اطلع عليـه عاقل (حتى فى ترجـمة لمعـانيـه) إلا وشـهد له أنه لا يمكن أن يـكون كلام أحـد غـير الله الخـالق - سبحانه وتعالى - وفى ذلك تقليل من حجم الكراهيـة الشديدة التى غرستها وسائل الإعلام الصهيونية فى قلوب الملايين من الأفـراد للإسلام والمسلمين، ودعوة مستنيرة إلى دين الله - وما أحوجنا للدعوة لهذا الديـن - الخاتم فى زمن التحدى بالعولمة الذى نعـيشـه، والذى يتـهـدد كافـة شـعوب الأرض بالـذوبان فى بوتقة الحـضـارة المادية الجارفة...!! وفى زمن الاستعلاء الأنجلو أمريكى الإسرائيلى اللعين الذى يتهدد منطقـتنا بأكـملها بالدمار فى ظل تفكك القيـادات العربية والمسلمـة وتشرذمـهم، وتخاذلهم، وانصياعهم للأوامر المعادية لشعوبهم ولدينهم ولأخلاقهم وقيمهم. وفقدهم للثقة بالله، وخوفهم المزعوم من الشبح الأمريكى اللعين، الذى لا يصمد أبداً أمام قدرة رب العالمين، وإسلامنا العظيم يعلمنا أنه من معانى «لا إله إلا الله» أنه لا سلطان فى هذا الوجـود لغـيـر الله، وأننا لو رجـعنا إلى ربنا بصـدق وتمسكنا بإسلامنا فى تجرد وإخلاص لنصرنا الله - تعالى - كما نصر أسلافنا العظام من قبل.

ومن أهم وسائلنا فى ذلك حسن الدعوة إلى دين الله باللغة التى يفهمها أهل عصرنا وهى لغـة العلم. ولا يمكن أن يصـدنا عن ذلك دعـوى أن عـدداً من المفـسـرين السابقين الذين تعرضوا لتفسير بعض الآيات الكونية فى كتاب الله قد تكلفوا فى تحميل تلك الآيات من المعانى ما لا تحتمله؛ وذلك بسبب نقص فى وفرة المعلومات العلمية أو جهل بها، وكما سبق وأن أوضحنا فإن التفسير لآيات القرآن الكريم هو محاولة بشرية لحسن فهم دلالة تلك الآيات إن أصـاب فيهـا المرء فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، والمعول عليه فى ذلك هو النية، وأن الخطأ فى التفسير لا ينال من جـلال القرآن الكريم، ولكنه ينعكس على المفسر، خاصـة وأن الذين فسروا باللغة أصابوا وأخطأوا، والذين فسروا بالتاريخ أصابوا وأخطأوا - ولم ينل ذلك

من قدسية القرآن الكريم ومكانته فى قلوب وعقول المؤمنين شيئًا، **أما اليوم وقد توفر للإنسان من المعرفة بحقائق الكون وسننه ما لم يتوفر لجيل من البشر من قبل، فإن توظيف ذلك الكم الهائل من المعلومات الصحيحة من أجل حسن فهم دلالة الآية القرآنية، وإثبات سبقها التاريخى لكافة البشر يعتبر ضرورة إسلامية لتثبيت إيمان المؤمنين، ولدعوة الضالين من الكفار والمشركين والذين سوف يسألنا ربنا - تبارك وتعالى - عن تبليغهم بهذا الدين، ودعوتهم إليه بالحكمة والموعظة الحسنة.**

والأخطاء التى وقع فيها عدد من المفسرين الذين تعرضوا للآيات الكونية فى كتاب الله، فتكلفوا فى تحميل الآيات من المعانى ما لا تحتمله، فى تعسف واضح، وتكلف جلى، يحملونه هم ولا تحتمله آيات الكتاب المبين؛ لأن التفسير يبقى جهداً بشريّا منسوبًا لصاحبه، بكل ما للبشر من نقص وبعد عن الكمال، وإن كان عدد منهم قد جاوز الصواب، فإن أعداداً أوفر قد وفقت فى ذلك أيما توفيق. ولم تكن أخطاء بعض المفسرين محصورة فى شرح دلالة بعض الإشارات الكونية فقط، فهنالك عدد من كتب التفسير الذى استشهد بالإسرائيليات الموضوعة، أو امتلأ بالعصبيات المذهبية الضيقة، وغير ذلك مما لا يقبله العقل القويم، والصحيح المنقول عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه المكرمين والتابعين، ولا يرتضيه المنطق اللغوى السليم، فالمعتزلة على سبيل المثال - لا الحصر - قد حاولوا فى تفاسيرهم إخضاع الآيات لمبادئهم فى العدل والتوحيد وحرية الإرادة والوعد والوعيد وإنكار الرؤية وغيرها، وتعسفوا فى ذلك أيما تعسف. والشيعة - على اختلاف فرقهم - قد دفعتهم المغالاة فى حب آل البيت إلى التطرف فى تأويل بعض الآيات القرآنية تأويلاً لا يحتمله ظاهر الآيات، ولا السياق القرآنى، ولا القرائن المنطقية المختلفة. وكذلك المتصوفة والإشاريون - فهم على الرغم من تسليمهم بالمأثور من التفسير، وقبولهم للمعنى الذى يدل عليه اللفظ العربى السليم- يسمحون لأنفسهم باستنباط معان للآيات تخطر فى أذهانهم عند التلاوة وإن لم تدل عليها الآيات القرآنية الكريمة بطريق من طرق الدلالات المعروفة فى الاستعمال العربى للغة وطرائق التعبير فيها.

أما المنحرفون من أتباع الفرق الباطنية وإفرازاتها القديمة والحديثة (كالقرامطة والبابية، والبهائية، والعلوية النصيرية، والقاديانية الأحمدية، والإسماعيلية،

والدرزية وغيرها) فتمتلئ تفاسيرهم بالانحرافات التى تنطق بالتعسف والافتعال، ومحاولات تطويع القرآن لمبادئهم المضللة فى تكلف ملحوظ.

فهل معنى ذلك أن يتوقف علم التفسير عند حدود جهود السابقين من المفسرين ـ على فضلهم ـ وفضل ما قدموه لخدمة فهم القرآن الكريم فى حدود المعرفة المتاحة فى أزمنتهم؟ ـ بالقطع لا؛ لأن القرآن الكريم أنزل للناس ليتدبروا آياته، ويفهموا دلالاته، ويعيشوا معانية، ويتخذوه دستوراً كاملاً، ونظامًا شاملاً لحياتهم، وهذا لا يتأتى بالوقوف به عند جهود السابقين. علمًا بأن كتب التفسير تحوى تراثًا دينيًا، وفكريًا وتاريخيًا لهذه الأمة لا يمكن التضحية به، حتى ولو كانت به بعض الأخطاء أو التجاوزات، إلا إذا كان القصد الواضح هو التحريف، وهو أمر لا يصعب على عاقل إدراكه.

من كل ما سبق يتضح لنا أن حجج المضيقين فى رفض تفسير الإشارات الكونية فى كتاب الله على ضوء ما تجمع اليوم لدى الإنسان من معارف بالكون وعلومه هى كلها حجج مردودة، فالكون صنعة الله، والقرآن هو كلام خالق الكون وواضع نواميسه، ولا يمكن أن يتعارض كلام الله الخالق مع الحقائق التى أودعها فى خلقه، إذا اتبع الناظر فى كليهما المنهج السليم، والمسلك الموضوعى الأمين، فمن صفات الآيات الكونية فى كتاب الله أنها صيغت صياغة معجزة يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعانى فى كل آية من تلك الآيات الدالة على شىء من أشياء الكون أو ظواهره أو نشأته أو إفنائه وإعادة خلقه، وتظل تلك المعانى تتسع باتساع دائرة المعرفة الإنسانية فى تكامل لا يعرف التضاد، وهذا عندى من أعظم جوانب الإعجاز فى كتاب الله، ومن هنا كانت ضرورة استمرارية النظر فى تفسير تلك الآيات الكونية، وضرورة مراجعة تراجمها إلى اللغات الأخرى بطريقة دورية. أما آيات العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات فقد صيغت صياغة محكمة يفهم دلالتها كل مستمع إليها مهما قلت ثقافته أو زادت؛ لأن تلك الآيات تمثل ركائز الدين الذى هو صلب رسالة القرآن الكريم.

أما الآيات المتعلقة بذات الله وصفاته، وبالآخرة وبالملائكة والجن وبحياة البرزخ، وحساب القبر، وبالبعث والحساب والجنة والنار وغير ذلك من الأمور

الغيبية غيبة مطلقة فلا يملك المسلم إلا الإيمان بها، والتسليم فى فهمها لنص القرآن الكريم أو للمأثور من تفسير المصطفى ﷺ؛ لأن الإنسان لا يمكن له أن يصل إلى عالم الغيب المطلق إلا ببيان من الله الخالق أو من خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وذلك لأن قدرات عقل الإنسان المحدودة، وحواسه المحدودة لا يمكن لهما اجتياز حدود عوالم الغيوب المطلقة مهما أوتى الإنسان من أسباب الذكاء والفطنة، ومن هنا كان امتداح القرآن الكريم للذين يؤمنون بالغيب.

ثانيًا: موقف الموسعين فى التفسير العلمى للقرآن الكريم

يرى أصحاب هذا الموْقف أن الإشارات الكونية فى القرآن الكريم قد قصدت لذاتها، أى لدلالاتها العلمية المحددة، مع التسليم بوجوب استخلاص الحكمة والعبرة منها، والوصول إلى الهداية عن طريقها. وانطلاقًا من ذلك فقد قام أصحاب هذا الموقف بتبويب آيات الكونيات فى كتاب الله، وتصنيفها حسب مختلف التصانيف المعروفة فى مختلف مجالات العلوم البحتة والتطبيقية، ثم اندفعوا فى حماسهم لهذا الاتجاه إلى المناداة بأن القرآن الكريم يشمل جميع العلوم والمعارف. ولا بد لحسن فهم تلك الإشارات الكونية فى كتاب الله من تفسيرها على ضوء اصطلاحات تلك العلوم، ثم زاد البعض بمحاولة إثبات أن جميع حقائق العلوم البحتة والتطبيقية التى استخلصها الإنسان بالنظر فى جنبات الكون هى موجودة فى القرآن الكريم استنادًا إلى قوله ـ تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقوله ـ عز من قائل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وهذا فى رأينا موقف مبالغ فيه، فالسياق القرآنى فى الآيتين السابقتين لا يتمشى مع ما وصلوا إليه من استنتاج؛ لأن هاتين الآيتين الكريمتين تشيران إلى رسالة القرآن الأساسية، وهى الدين بركائزه الأربع الأساسية: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات، وهى القضايا التى لا يمكن للإنسان أن يضع لنفسه بنفسه فيها أية ضوابط صحيحة. وهى التى استوفاها القرآن استيفاء لا يقبل إضافة، أما قصص الأمم السابقة، والنبوءات المستقبلية، والإشارات الكونية، والقضايا

التربوية، والنفسية، والإدارية، والاقتصادية وغيرها مما جاء به القرآن الكريم، وبخاصة الإشارات إلى الكون ومكوناته فقد جاء بنماذج منها فقط تشهد لله الخالق بطلاقة القدرة على الخلق وإفنائه وإعادته من جديد، كما تشهد على وحدانيته المطلقة فوق جميع خلقه. وربما كان هذا الموقف الموسع من الأسباب الرئيسية التى أدت إلى تحفظ المتحفظين من الخوض فى تفسير الآيات الكونية الواردة فى كتاب الله على أساس من معطيات العلوم البحتة والتطبيقية، أو التعرض لإظهار جوانب الإعجاز العلمى فيها.

ثالثاً: موقف المعتدلين فى التفسير العلمى للقرآن الكريم

يرى أصحاب هذا الموقف أنه مع التسليم بأن القرآن الكريم هو فى الأصل كتاب هداية ربانية، أساسها الدعوة إلى العقيدة الصحيحة، والأمر بالعبادات المفروضة، والحث على الالتزام بمكارم الأخلاق، وعلى التعامل بين الناس بالعدل والإحسان، أى أنه دستور كامل للحياة فى طاعة خالق الكون والحياة. ومع التسليم كذلك بأن الإشارات الكونية الواردة فى كتاب الله قد جاءت فى معرض التذكير بقدرته المطلقة، وبديع صنعه فى خلقه، وشمول علمه، وكمال صفاته وأفعاله، إلا أنها تبقى بيانًا من الله خالق الكون ومبدع الوجود، ومن أعلم بالكون من خالقه..؟

من هنا كانت تلك الإشارات الكونية كلها حقًّا، وكانت كلها منسجمة مع قوانين الله وسننه فى الكون، وثابتة فى دلالاتها - مهما اتسعت دائرة المعرفة الإنسانية - فلا تعارض ولا تناقض ولا اضطراب، وصدق الله العظيم القائل: ﴿ **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء: ٨٢].

من هنا أيضًا كان واجب علماء المسلمين فى كل عصر من العصور إعادة مدارسة تلك الآيات الكونية، والاستفادة بكل أنواع المعارف المتاحة فى تفسيرها، وإظهار جوانب الإعجاز فيها، تأكيدًا لإيمان المؤمنين، ودعوة ناجحة لغير المسلمين باللغة التى يفهمونها؛ ودحضًا لافتراءات المفترين، وتثبيتًا للحقيقة الراسخة: أن القرآن كلام الله العزيز الرحمن الرحيم.

ومن هنا كذلك كان التسليم بأن تلك الإشارات الكونية لم ترد فى القرآن الكريم بهدف التبليغ بالحقيقة العلمية؛ لأن الحكمة الإلهية قد اقتضت ترك كل معرفة غير أصول الدين مجالاً مفتوحًا لاجتهاد المجتهدين، يتنافس فيه المتنافسون، ويتبارى فيه المتبارون، أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، إلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها، فلو أن الإرادة الإلهية قد ارتضت بسط الكون بكل حقائقه كاملة أمام الإنسان، لانتفت الغاية من الحياة الدنيا، وهى دار ابتلاء واختبار، ولاختفى ذلك الغيب الذى يشد الإنسان إليه، ويشد جميع حواسه وكل قواه العقلية والفكرية، ولتبلدت تلك الحواس والقدرات، ولمضت حياة الإنسان على الأرض رتيبة كئيبة بائسة، جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد عصر، بغير تجديد أو تنويع أو إبداع، وسط عالم يتميز بالتغير فى كل أمر من أموره، وفى كل لحظة من لحظات وجوده، هذا فضلاً عن أن العقل البشرى عاجز عن تقبل الحقائق الكونية الكلية دفعة واحدة، وأنه محتاج فى فهمها إلى شىء من التدرج فى الكشف، وفى استخراج الأدلة، وفى إثبات وتكامل معطياتها على مدى أجيال متعاقبة.

● ويستدل أصحاب هذا الموقف بالحشد الهائل من الإشارات الكونية فى كتاب الله، وبمطالبة القرآن الكريم للإنسان دومًا بتحصيل المعرفة النافعة على إطلاقها، وهذه أولى آيات القرآن العظيم تأمر بذلك وتحدد وسائله، وتحض على التأمل فى الخلق، بل وتشير إلى حقيقة علمية لم تكتشف إلا بعد ذلك بقرون طويلة ألا وهى «خلق الإنسان من علق»، وهى حقيقة لم يتوصل إليها الإنسان إلا بعد اكتشاف المجاهر المكبرة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، وفى ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [العلق: ١ - ٥].

● ويستدل أصحاب هذا الموقف المعتدل على ذلك أيضًا بما يقرره القرآن من مسئولية الإنسان عن حواسه وعقله، وما يفرضه من حسن استخدامهما فى التعرف على الكون، واكتساب المعارف النافعة منه، وتوظيف ذلك فى حسن فهم كتاب الله، حيث يقرر الحق - تبارك وتعالى - مسئولية الإنسان عن حواسة، وذلك بقوله

فى محكم كتابه : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء : ٣٦] .

• كما يستدلون برفض القرآن للتقليد والجمود على الآراء الموروثة الخاطئة ، والحكم بالظن والهوى ، ومطالبته الإنسان دومًا بتأسيس الأحكام على الدليل العقلى الذى لا يقبل النقض ، وهذه كلها من أخص خصائص المنهج التجريبى فى دراسة الكون وما فيه . كذلك يستشهدون بتكريم القرآن الكريم للعلم والعلماء - بمن فيهم من علماء الكونيات - فى العديد من آيات الذكر الحكيم نختار منها قول الحق - تبارك وتعالى : ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر : ٩] .

وقوله - عز من قائل : ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة : ١١] .

وقوله - سبحانه وتعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران : ١٨] .

وقوله : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر : ٢٨] .

والآية الأخيرة قد وردت بعد استعراض لكثير من المشاهد الكونية ، مما يؤكد أنها تشمل علماء الكونيات ، إن لم يكونوا هم المقصودين بها مباشرة ، فالآية تنطق : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر : ٢٧-٢٨] .

• كذلك يستشهد أصحاب هذا الموقف المعتدل بمطالبة القرآن الكريم للإنسان - فى تشديد واضح - بالنظر فى كل ما خلق الله ، وهذه أوامره صريحة جلية نختار منها قول الحق ، تبارك وتعالى : ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس : ١٠١] .

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠ ـ ٢١].

﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠].

● وينتصر أصحاب هذا الموقف المعتدل لموقفهم بما ينعاه القرآن الكريم على الغافلين عن التفكير في آيات السماوات، والأرض وذلك في كثير من آياته التي منها قول الحق، تبارك وتعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥].

ووصفه لهؤلاء الغافلين بأنهم كالأنعام بل هم أضل، وتقديره بأن جزاءهم جهنم عقابًا لهم على إهمالهم نعم الله التي أنعم بها عليهم، وذلك في قول الله ـ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

● ويستشهدون على ضرورة توظيف المعارف العلمية المتاحة لفهم دلالة الآيات الكونية في كتاب الله بربط القرآن دومًا بين الإيمان بالله والنظر فيما خلق الله، من مثل قوله ـ تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقوله ـ عز من قائل: ﴿إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

[آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١].

وقوله ـ سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

وقوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

● ويستشهد المنادون بضرورة توظيف المعارف العلمية فى تفسير الآيات الكونية فى كتاب الله بالإشارة إلى أن القرآن الكريم - فى استعراضه لأمور الكون - يتناول كليات الأشياء، تاركًا التفاصيل لاجتهاد الإنسان، ولكنه فى نفس الوقت ينبه باستمرار إلى جوانب مهمة فى أشياء مثل الكم والكيف وهما من أسس العلوم التجريبية، الكم الذى يتعلق بالحجم والكتلة وبالزمان والمكان، وبدرجات النمو والاندثار وغيرها يتمثل فى كثير من الآيات القرآنية التى نختار منها قول الحق: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقوله ـ سبحانه: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]، وقوله ـ عز من قائل: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] وقوله ـ تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقوله ـ سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨].

وبخصوص الكيف بمعنى هيئة الأشياء وتركيبها ومسبباتها، ومجرى الظواهر الكونية وحدوثها والسنن الإلهية وجريانها، فإن القرآن يشدد التنبيه عليها فى مواضع كثيرة منها قول الله ـ تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠].

وقوله ـ سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٥ ـ ٤٦].

وقوله ـ عز من قائل: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

وقوله ـ تعالى: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠].

● ويستشهد أصحاب هذا الموقف المعتدل كذلك على ضرورة توظيف المعارف العلمية فى تفسير الآيات الكونية بتأكيد القرآن الكريم أن لكل شىء فى هذا الكون فطرته السوية التى فطره الله عليها، والتى تخصه وتميزه، وهى قاعدة أساسية من قواعد المنهج العلمى التجريبى فى الكشف عن حقائق هذا الكون ومكوناته وسنن الله فيه، ونقرأ فى ذلك قول الحق ـ تبارك وتعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. وقوله سبحانه: ﴿الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢ ـ ٣].

وأن هذه الفطرة ثابتة، لا تتغير ولا تتبدل لقول الحق ـ تبارك وتعالى: ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

وأنها خاضعة لقوانين مطردة، لا تتخلف ولا تتوقف إلا بإذن الله، وأنه لولا ثبات تلك الفطرة واطراد القوانين التى تحكمها ما تمكن الإنسان من اكتشاف أىّ من أمور هذا الكون، وأن القرآن يصر على تسمية تلك القوانين بالحق، وعلى أن الكون وما فيه «خلق بالحق»، ويطالب الإنسان بالتعرف على ذلك الحق والتزامه، فالتنزيل ينطق بقول الله ـ تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الأحقاف: ٣].

وقوله سبحانه: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِى أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨]. وقوله ـ عز من قائل: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: ٥].

وقوله ـ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].
وقوله ـ سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨ـ٣٩].

● كذلك فإن الذين يرون ضرورة توظيف المعارف العلمية فى تفسير الآيات الكونية الواردة فى كتاب الله وفى الاستشهاد على الإعجاز العلمى لتلك الآيات يتصورون لذلك بأن أكثر من أربعين سورة من سور القرآن الكريم البالغ عددها ١١٤ سورة تحمل أسماءً لبعض أشياء الكون وظواهره، ويستشهدون بعرض القرآن للعديد من القضايا التى هى من صميم العلوم التجريبية من مثل خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، واتساع الكون، وفتق السماوات والأرض، وبدء السماء بدخان، وخلق الحياة من الماء وفى الماء، واستعراض مراحل الجنين فى الإنسان، وغير ذلك كثير مما لا يوفيه فى هذا المقام حصر، ولكن تكفى الإشارة إلى آيات قليلة منها من مثل قول الحق ـ تبارك وتعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقوله ـ عز من قائل: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

وآيات الكتاب الحكيم فى كل ما عرضت له من أمور الكون تتميز بمنتهى الدقة فى التعبير، والشمول فى المعنى والدلالة، وبالسبق الإخبارى بحقائق لم يتيسر للإنسان إلمام بها إلا فى العقود المتأخرة من القرن العشرين. وهذا بالقطع يشكل صورة من صور الإعجاز لم تتوفر لجيل من الأجيال من قبل.

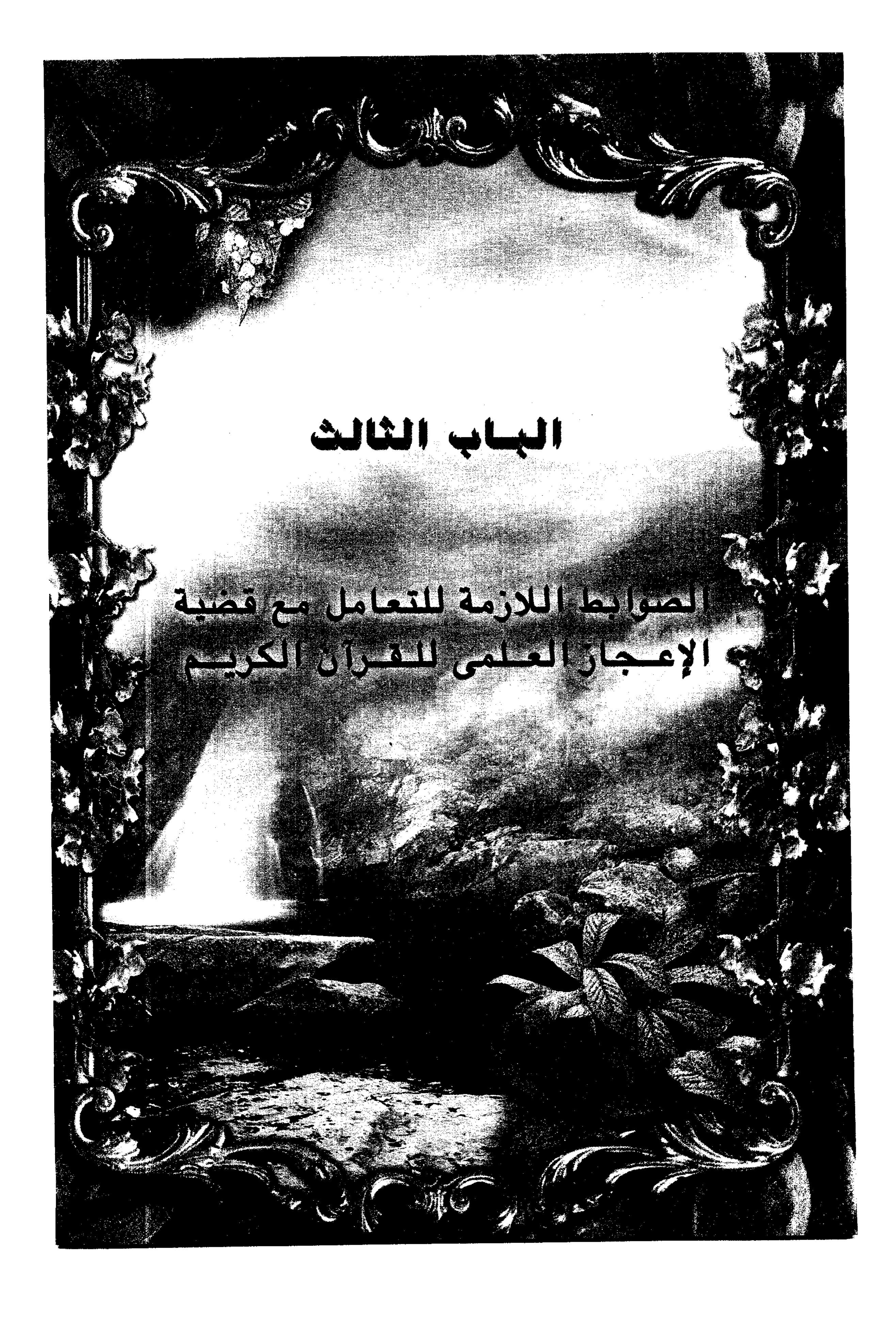
وخلاصة القول أن القرآن الكريم يزخر بالعديد من الآيات التى تشير إلى الكون وما به من كائنات (جمادات وأحياء) وإلى صور نشأتها ومراحل تكوينها، وإلى العديد من الظواهر الكونية التى تصاحبها، وقد أحصى الدارسون من مثل هذه

الآيات حوالى الألف آية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقرب دلالاتها من الصراحة، مما يبلغ بالآيات الكونية إلى سدس آيات القرآن الكريم تقريبًا. ويقف المفسرون من هذه الآيات الكونية مواقف متعددة فمنهم المضيّقون والموسّعون ومنهم المعتدلون. فالمضيّقون يرون أن تلك الإشارات لم ترد فى القرآن لذاتها، وإنما وردت من قبيل الاستدلال على قدرة الله - تعالى - وإبداعه فى خلقه، وقدرته على إفناء الخلق وإعادته من جديد، ومن ثم فلا يجوز تفسيرها فى ضوء من معطيات العلوم الحديثة؛ وذلك بدعوى انطلاق الكتابات العلمية من منطلقات مادية، منكرة لكل ما هو فوق المدرك المحسوس. أما الموسّعون فيرون أن القرآن الكريم يشتمل على جميع العلوم والمعارف، ولا بد لحسن فهم ذلك من تفسيره على ضوء ما تجمع لدى الإنسان من رصيد علمى خاصة فى مجال العلوم البحتة والتطبيقية، ومن ثمّ فقد قاموا بتبويب آيات الكونيات فى كتاب الله وتصنيفها حسب التصانيف المعروفة فى مختلف مجالات تلك العلوم، وتميز ذلك بشىء من التكلف الذى أدى إلى رفض المنهج والوقوف فى وجهه.

أما المعتدلون فيرون أنه مع التسليم بأن الإشارات الكونية فى القرآن الكريم قد وردت فى معرض التذكير بقدرة الله، وبديع صنعه فى الخلق وفى الاستشهاد على قدرته - سبحانه وتعالى - على الإفناء والبعث، فإنها تبقى بيانًا من الله، خالق الكون ومبدع الوجود ومن ثم فهى حق مطلق. ولا غرابة إذن من انسجامها مع قوانين الله وسننه فى الكون، ومع معطيات العلوم الحديثة عن حقائق هذا الكون. كذلك فإنهم يرون أنه مع التسليم بأن تلك الإشارات لم ترد فى القرآن الكريم بهدف التبليغ المباشر بالحقيقة العلمية؛ لأن الحكمة الإلهية قد اقتضت ترك ذلك لاجتهاد الإنسان على مر الزمن، إلا أنها تتميز بالدقة المتناهية فى التعبير، والإحاطة فى الدلالة والشمول فى المعنى، بحيث يدرك فيها كل جيل ما يتناسب مع مستوياتهم الثقافية، وما وصلوا إليه من علوم، ثم إن تلك الدلالات تتميز كلها بالسبق إلى الحقيقة الكونية قبل أن تدرك الكشوف العلمية شيئًا منها بقرون طويلة، وهذا فى حد ذاته يمثل الإعجاز العلمى للقرآن الكريم الذى هو أحد أوجه الإعجاز العديدة

فى كتاب الله. ولكنه يبقى من أنسبها لعصر التقدم العلمى والتقنى الذى نعيشه تثبيتًا لإيمان المؤمنين، ودعوة للجاحدين من مختلف صور المشركين والكافرين والضالين، فى زمن تحول العالم إلى قرية كبيرة، ما يحدث فى أحد أركانها يتردد صداه فى بقية أرجائها، ولا يأمن أهل الحق أن يصيبهم ما أصاب الأمم الضالة من عقاب، أو أن يجرفهم تيار الحضارة المادية فيذيبهم فى بوتقتها، وبذلك يخسرون الدنيا والآخرة. وطوق النجاة فى الحالتين الاعتزاز بالإسلام العظيم، والتمسك بالقرآن الكريم الذى يتجلى إعجازه العلمى فى عصر العلم الذى نعيشه يومًا بعد يوم، وإلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها.

* * *


الباب الثالث
الضوابط اللازمة للتعامل مع قضية
الإعجاز العلمى للقرآن الكريم

الباب الثالث

الضوابط اللازمة للتعامل مع قضية الإعجاز العلمى للقرآن الكريم

أولاً: تعريف لفظة «الإعجاز»

(الإعجاز) لفظة مشتقة من إثبات (العَجْز) وهو الضعف وعدم القدرة. يقال:

(عَجَزَ) عن كذا: أى لم يقدر عليه، فهو (عَاجِزٌ) عن الإتيان به، وجمعه (عواجز). يقال: (عَجَز) (عَجْزًا) و(عُجُوزًا)، و(عَجَزَانًا) و(مَعْجَزًا) بفتح الجيم وكسرها، و(مَعْجَزَةً) أيضًا بفتح الجيم وكسرها، ولذا يقال: رجل (عَجُزٌ) بضم الجيم وكسرها أى (عاجزٌ)، وامرأة (عاجزة) و(عاجز)، كما يقال: (عجزه) الشىء أو الأمر بمعنى فاته ولم يقدر عليه.

ويقال: (عَجَّزَهُ) و(أعْجَزَهُ) و(استَعْجَزَهُ) أى صَيَّرَهُ (عَاجِزًا) نسبة إلى (العجز)، وتستعار لمعنى التثبيط أى بمعنى ثبطه.

كما يقال: (عَاجَزَهُ) (مُعَاجَزَةً) أى سابقه مسابقة، و(تَعَجَّزَ) أى ادعى (العَجَزَ)؛ و(الأعجز) هو العظيم العَجُز، ومؤنثه (العَجْزَاءُ)؛ و(المِعْجَازُ) هو الدائم العجز، و(المعجوز) الذى (أعْجِزَ).

ويقال: (عَجَزَ) (عُجُوزًا) أى صار (عجوزًا)، و(العجوز) وجمعه (عُجُزٌ) و(عجائز) المرأة المسنة.

(والعَجزُ) وجمعه (أعجاز) مؤخر الشىء أو الجسم (وتكتب بفتح الجيم وكسرها وضمها وبفتح العين وضم الجيم أوكسرها)، (وَعَجُزُ) بيت الشعر هو الشطر الثانى منه، و(أعجاز) النخل هى أصولها.

ويقال: (أعجز) فى الكلام أى أدى لمعانيه بأبلغ الأساليب. و(الإعجاز) بمعنى السبق والفوت مصدر من (أعجز).

وعلى ذلك تُعَرَّفُ (المعجزة) وجمعها (المعجزات) بأنها الأمر الخارق للعادة، السالم من المعارضة، المقرون بالتحدى لعجز البشر عن الإتيان بمثله.

«و(إعجاز) القرآن الكريم» معناه (عجز) الخلق أجمعين - إنسهم وجنهم، فرادى ومجتمعين - عن أن يأتوا بشيء من مثله، ولذلك أنزل ربنا - سبحانه وتعالى - فى محكم كتابه هذا التحدى الأزلى الذى يقول فيه:

* ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء: ٨٨].

ويقول سبحانه وتعالى:

* ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣ - ٢٤].

* ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٧ - ٣٨].

* ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود: ١٣].

* ويؤكد الله - سبحانه وتعالى - على كمال القرآن الكريم فيقول: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيراً ﴾ [النساء: ٨٢].

ويقول سبحانه وتعالى:

* ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٨٠].

* ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢].

* ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

* ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

والقرآن الكريم كتاب معجز فى بيانه ونظمه، معجز فى فصاحته وبلاغة أسلوبه، معجز فى كمال رسالته ودقة مضمونه، وقد أنزل للناس كافة بدين الإسلام الذى علمه ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ لأبينا آدم ﷺ لحظة خلقه، وكرر إنزاله على عدد من أنبيائه ورسله، وأكمله وأتمه وحفظه، فى هذه الرسالة الخاتمة المنزلة على خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ. وعلى ذلك فالقرآن الكريم معجز فى مجموع العقائد التى يدعو إلى الإيمان بها، وفى مجموع العبادات التى يأمر بأدائها، معجز فى دستوره الأخلاقى الفريد، وفى كل تشريع من تشريعاته الناطقة بدقتها، وعدلها، وشموليتها وتفاصيلها......!!

والقرآن الكريم معجز كذلك فى استعراضه التاريخى لعدد من الأمم السابقة، ولكيفية تعاملها مع رسل ربها، ولأسلوب مكافأتها أو عقابها، معجز فى أسلوبه التربوى، وخطابه النفسى، وفى إنبائه بالغيب، وفى إشاراته العديدة إلى الكون ومكوناته وظواهره.

وهذا الجانب الأخير من جوانب الإعجاز فى كتاب الله هو المقصود بتعبير **«الإعجاز العلمى للقرآن الكريم»** ويقصد به سبق هذا الكتاب العزيز بالإشارة إلى عدد من حقائق الكون وظواهره، التى لم يتمكن العلم الكسبى من الوصول إلى فهم شيء منها إلا بعد قرون متطاولة من تنزل القرآن الكريم تزيد على العشرة من القرون الكاملة فى أقل تقدير لها. ولا يمكن لعاقل أن يتصور لهذه الحقائق العلمية مصدراً غير الله الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ وفى إثبات ذلك تأكيد لأهل العلم فى عصرنا أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذى أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه

ورسله، وتصديق للنبى الخاتم والرسول الخاتم ﷺ فى نبوته ورسالته، وفى التبليغ عن ربه.

والإعجاز العلمى للقرآن الكريم أسلوب فريد فى الدعوة إلى دين الله بلغة مناسبة لعصر تفجر المعرفة العلمية الذى نعيشه. وقد سبق للقرآن الكريم الإخبار بتحقيق وقوعه فى حياة الناس من قبل أربعة عشر قرنًا، وذلك فى العديد من آياته التى نختار منها قوله ـ تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

* ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾

[سبأ: ٥ ـ ٦].

* ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

* ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

* ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩].

* ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٦ ـ ٦٧].

* ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣ ـ ١٤].

* ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦].

* ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٩٣].

* ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص: ٨٧ - ٨٨].

من الضوابط اللازمة للتعامل مع قضية الإعجاز العلمى للقرآن الكريم

من الاستعراض السابق يتضح لنا بجلاء أن إثبات الإعجاز العلمى للقرآن الكريم فى عصر التقدم العلمى والتقنى الذى نعيشه هو من مواقف التحدى للناس كافة - مسلمين وغير مسلمين - بأن كتابًا أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبى أمى ﷺ وفى أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين - فإن هذا الكتاب - يحوى من حقائق الكون ما لم يتوصل إليه الإنسان إلا فى العقود المتأخرة من القرن العشرين بعد مجاهدات طويلة خاضها عشرات الآلاف من العلماء، واستمرت وقتًا طويلاً.والمتحدى لا بد وأن يكون واقفًا على أرضية صلبة، وعلى ذلك فلا يجوز توظيف شىء فى هذا المجال غير الحقائق القطعية الثابتة حتى يبلغ التحدى مداه فى مجال إثبات الإعجاز العلمى للقرآن الكريم.

وهذا الالتزام واجب حتمى فى التعرض للآيات الكونية فى كتاب الله باستثناء آيات الخلق بأبعاده الثلاثة: خلق الكون، خلق الحياة، وخلق الإنسان. وذلك لأن عملية الخلق عملية غيبية لم يشهدها أحد من الإنس والجن فلا تخضع للإدراك المباشر من الإنسان، وفى ذلك يقول الحق - سبحانه وتعالى - :

﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: ٥١].

ولكن القرآن الكريم الذى جاء بهذه الآية الكريمة يأمرنا ربنا - سبحانه وتعالى - فيه بضرورة التأمل فى قضية الخلق - وهى قضية غير مشاهدة من قبل الإنسان - وذلك فى عدد غير قليل من الآيات التى منها قوله - سبحانه وتعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

[العنكبوت: ١٩ - ٢٠].

وقوله - سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

[آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

والجمع بين هذه الآيات الكريمة - وأمثالها كثير فى كتاب الله - يؤكد على أن خلق كل من السماوات والأرض، وخلق الحياة، وخلق الإنسان قد تم فى غيبة كاملة من الوعى الإنسانى، ولكن الله من رحمته قد أبقى لنا فى صخور الأرض وفى صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يمكن أنْ يعين الإنسان - بإمكانياته المحدودة - على الوصول إلى تصور ما لعملية الخلق، إلا أن هذا التصور يبقى فى مجال الفروض والنظريات، ولا يمكن أن يرقى إلى مقام الحقيقة أبدًا؛ لأن الحقيقة العلمية لا بد أن تكون واقعة تحت حس الإنسان وإدراكه - على الرغم من محدودية ذلك الحس وهذا الإدراك - ومن هنا فإن العلوم المكتسبة لا يمكن أن تتجاوز فى قضية الخلق - بأبعادها الثلاثة - مرحلة التنظير أبدًا، ولذلك تتعدد النظريات فى قضايا الخلق بتعدد خلفيات واضعيها: هل هم من المؤمنين، أو من الكفار، أو المشركين، أو المتشككين؟ وهل هم من السعداء فى حياتهم أم من التعساء والأشقياء والمهمومين؟ وهل هم من الأسوياء أم من المنحرفين؟ . . وفى هذا الخضم العميق يبقى للمسلم نور من الله - سبحانه وتعالى - فى آية قرآنية كريمة، أو حديث نبوى صحيح مرفوع إلى رسول الله ﷺ يعينه على الانتصار لإحدى هذه النظريات، والارتقاء بها إلى مقام الحقيقة، لا لأن العلوم المكتسبة قد أثبتت ذلك، ولكن لمجرد

وجود إشارة إلى تلك الحقيقة فى كتاب الله الخالق أو فى سنة رسوله ﷺ . ونحن فى هذه الحالة نكون قد انتصرنا للعلم بالقرآن الكريم أو بسنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ، ولم ننتصر بالعلم لأىّ منهما .

أما باقى الآيات الكونية الكريمة التى تعرض لها القرآن الكريم - وأغلبها من الآيات الوصفية - فلا يجوز أن يوظف فى الاستشهاد على سبقها العلمى إلا الحقائق القطعية الثابتة التى لا رجعة فيها ، وبالضوابط المنهجية التالية :

١ - حسن فهم النص القرآنى الكريم وفق دلالات الألفاظ فى اللغة العربية ، ووفق قواعد تلك اللغة ، وأساليب التعبير فيها ؛ وذلك لأن القرآن الكريم قد أنزل بلسان عربى مبين .

٢ - فهم أسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ - إن وجدا - وفهم الفرق بين العام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والمجمل والمفصل ، من آيات هذا الكتاب الحكيم .

٣ - فهم المأثور من تفسير المصطفى ﷺ والرجوع إلى أقوال المفسرين من الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى الزمن الحاضر .

٤ - جمع القراءات الصحيحة المتعلقة بالآية القرآنية الكريمة إن وجدت .

٥ - جمع النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع الواحد ، ورد بعضها إلى بعض بمعنى فهم دلالة كل منها فى ضوء الآخر ؛ لأن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضًا ، كما يفسره الصحيح من أقوال رسول الله ﷺ ، ولذلك كان من الواجب توظيف الصحيح من الأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بموضوع الآية المتعامل معها كلما توفر ذلك .

٦ - مراعاة السياق القرآنى للآية المتعلقة بإحدى القضايا الكونية ، دون اجتزاء للنص عما قبله وعما بعده .

٧ - مراعاة قاعدة : أن العبرة هى بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

٨ - عدم التكلف، أو محاولة لىّ أعناق الآيات من أجل موافقتها للحقيقة العلمية وذلك لأن القرآن الكريم أعز علينا وأكرم من ذلك؛ لأنه كلام الله الخالق، وعلم الخالق بخلقه هو الحق المطلق، الكامل، الشامل، المحيط بكل علم آخر، وهو العلم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٩ - عدم الخوض فى القضايا الغيبية غيبة مطلقة كالذات الإلهية والروح، والملائكة، والجن، وحياة البرزخ، وحساب القبر، وقيام الساعة، والبعث، والحساب، والميزان، والصراط، والجنة والنار وغيرها، والتسليم بالنصوص الواردة فيها تسليمًا إيمانيًا كاملاً انطلاقًا من الإيمان بكتاب الله وبسنة رسوله ﷺ، وبعجز الإنسان عجزًا كاملا عن الوصول إلى مثل هذه الغيبيات المطلقة.

١٠ - التأكيد على أن الآخرة لها من السنن والقوانين ما يغاير سنن الدنيا مغايرة كاملة، وأنها لا تحتاج هذه السنن الدنيوية الرتيبة، فهى كما وصفها ربنا - سبحانه وتعالى - أمر فجائى منه بـ(كن فيكون) أى بين الكاف والنون، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وعلى الرغم من ذلك فإن الله - سبحانه وتعالى - من رحمته بنا قد أبقى لنا فى صخور الأرض، وفى صفحة السماء أعدادا كثيرة من الشواهد الحسية التى تقطع بفناء الكون، وبحتمية الآخرة، وأن الإشارة إلى تلك الشواهد الكونية لا يمكن أن تفسر بمحاولة التعرف على موعد الآخرة؛ لأن الآخرة من الغيبيات المطلقة التى لا يعلمها إلا الله؛ ولأنها لن تتم بالسنن الكونية المشاهدة فى هذه الحياة.

١١ - توظيف الحقائق العلمية القاطعة فى الاستشهاد على الإعجاز العلمى للآية أو الآيات القرآنية فى الموضوع الواحد، أو فى عدد من الموضوعات المتكاملة، وذلك فى جميع الآيات الكونية الواردة فى كتاب الله، فيما عدا قضايا الخلق، والإفناء، والبعث، التى يمكن فيها توظيف الآية أو الآيات القرآنية

الكريمة أو الحديث النبوى الصحيح للارتقاء بإحدى النظريات المطروحة إلى مقام الحقيقة .

١٢ ـ مراعاة التخصص الدقيق فى مراحل إثبات وجه الإعجاز العلمى فى الآية القرآنية الكريمة ؛ لأن هذا مجال تخصصى على أعلى مراحل التخصص ، لا يجوز أن يخوض فيه كل خائض ، كما لا يمكن لفرد واحد أن يغطى كل جوانب الإعجاز العلمى فى أكثر من ألف آية قرآنية صريحة ، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقترب دلالتها من الصراحة ، خاصة وأن هذه الآيات تغطى مساحة هائلة من العلوم المكتسبة تمتد من علم الأجنة إلى علم الفلك ، وما بينهما من مختلف مجالات العلوم والمعارف الإنسانية .

١٣ ـ الأخذ فى الاعتبار إمكانية الانطلاق من الآية القرآنية الكريمة للوصول إلى حقيقة كونية لم يتوصل العلم المكتسب إلى شئ منها بعد ، انطلاقًا من الإيمان الكامل بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق ، فى صفائه الربانى ، وإشراقاته النورانية ، وأنه كله حق مطلق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

١٤ ـ عدم التقليل من جهود العلماء السابقين فى محاولاتهم المخلصة لفهم دلالة تلك الآيات الكونية فى حدود المعلومات التى كانت متاحة لهم فى زمانهم ؛ وذلك لأن الآية الكونية الواردة فى كتاب الله تتسع دلالتها مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية فى تكامل لا يعرف التضاد ، حتى يظل القرآن الكريم مهيمنًا على المعارف الإنسانية مهما اتسعت دوائرها . وهذا من أعظم جوانب الإعجاز فى كتاب الله .

١٥ ـ التفريق بين قضيتى الإعجاز العلمى والتفسير العلمى للقرآن الكريم ، فالإعجاز العلمى يقصد به هنا «إثبات سبق القرآن الكريم» بالإشارة إلى حقيقة من حقائق الكون أو تفسير ظاهرة من ظواهره قبل وصول العلم المكتسب إليها بعدد متطاول من القرون . وأما التفسير فهو محاولة بشرية لحسن فهم دلالة الآية القرآنية إن أصاب فيها المفسر فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد ، والمعول عليه فى ذلك هو نيته . وهنا يجب التأكيد على أن الخطأ فى التفسير ينسحب على المفسر ، ولا يمس جلال القرآن الكريم .

١٦ ـ يجب تحرى الدقة المتناهية فى التعامل مع كتاب الله، وإخلاص النية فى ذلك والتجرد له من كل غاية، وتذكّر قول المصطفى ﷺ : **«من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»**[١].

مبررات الاهتمام بقضية الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم

من مبررات الاهتمام بقضية الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ما يلى:

أولاً: إن القرآن الكريم أنزل إلينا لنفهمه، والآيات الكونية فيه لا يمكن فهمها فهمًا صحيحًا فى إطار اللغة وحدها ـ على أهمية ذلك وضرورته ـ، انطلاقًا من شمول الدلالة القرآنية، ومن كلية المعرفة التى لا تتجزأ.

ثانيًا: إن الدعوة بالإعجاز العلمى لكلّ من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هى الوسيلة المناسبة لأهل عصرنا ـ عصر العلم والتقنية ـ الذى فتن الناس فيه بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة، ونبذوا الدين وراء ظهورهم ونسوه، وأنكروا الخلق والخالق، كما أنكروا البعث والحساب والجنة والنار، وغير ذلك من الغيبيات؛ لأن هذه الأصول قد شوهت فى معتقداتهم تشويهًا كبيرًا، ولم تعد مقنعة لهم، وعلى ذلك فلم يبق أمام أهل عصرنا من وسيلة مقنعة بالدين إلا الإعجاز العلمى فى كتاب الله وفى سنة خاتم أنبيائه ورسله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين.

ثالثًا: الأصل فى الحضارات أنها تتكامل فيما بينها ولا تتصارع، ولكن فى زمن العولمة الذى نعيشه تحاول الحضارة المادية الغالبة ـ بما فيها من كفر بواح أو شرك صراح ـ أن تفرض من قيمها الهابطة، وأخلاقياتها الساقطة، وادياتها الجارفة على غيرها من الحضارات، وتوظف فى ذلك كل ما توفر لها من وسائل الغلبة المادية وأسبابها. وليس احتلال شراذم الصهاينة المجرمين لأرض فلسطين، وتجبرهم فى تعذيب وإذلال أهل الأرض الأصليين، ومحاولات القضاء عليهم، ولا الغزو الغربى الأنجلو أمريكى الجائر لكل من أفغانستان والعراق، ولا جرائم كلّ من الصرب والكروات على أرض البلقان، ولا الدعوات الباطلة بحتمية الصراع بين

---

(١) الترمذى (٢٩٥٠-٢٩٥١)، وأحمد (١/ ٢٣٣).

الحضارات، أو تبرير العديد من الجرائم والاعتداءات على حقوق الإنسان وعلى أراضى دول أعضاء فى هيئة الأمم تحت مظلة الدعوى الباطلة المسماة بالحرب ضد الإرهاب، أو الدعاوى الكاذبة تحت مسمى الخوف من الإسلام إلا حلقات فى هذا المخطط الشيطانى اللعين. وقد أسقط الأعداء من أيدى المسلمين فى هذه الأيام كل الوسائل المادية التى يمكن لهم الدفاع بها عن دمائهم، وأعراضهم، وأراضيهم، وممتلكاتهم، ودينهم، ومقدساتهم، وذلك فى سلسلة طويلة من المؤامرات التى بدأت باحتلال غالبية الدول المسلمة، والعمل على تغريبها، ثم السعى الدءوب من أجل إلغاء دولة الخلافة الإسلامية بعد إنهاكها وإضعافها حتى تم إسقاطها فى الربع الأول من القرن العشرين (سنة ١٩٢٤م)، ثم العمل على تمزيق الأمة إلى أكثر من خمس وخمسين دولة ودويلة، ونهب كل خيراتها وثرواتها، وتنصيب أنماط من الحكومات المتعارضة عليها للحيلولة دون إمكانية توحدها، بل العمل الدءوب من أجل المزيد من تفتيتها فى زمن التكتلات البشرية الكبيرة الذى نعيشه، ثم غرس كيان صهيونى غريب من حثالات الأمم ونفايات الشعوب فى قلب الأمة لإفسادها، وإثارة الحروب والقلاقل والفتن بين أبنائها، ولترسيخ العداوات بين الأشقاء للحيلولة دون توحدهم، وإشاعة الأفكار الهدامة، والسلوكيات المنحطة، والأخلاقيات المنهارة لإخراج الأمة عن دينها، وأخلاقها، وقيمها، وأعرافها، والعمل على المزيد من تغريبها لتيسير الهيمنة عليها.

ولم يبق بأيدى أمة الإسلام من طوق للنجاة فى زمن الغربة الذى نعيشه إلا المحافظة على دينها، هذا الدين الخاتم الذى لا يرتضى ربنا - سبحانه وتعالى - من عباده دينًا سواه، وهو وسيلة الدفاع الوحيدة التى بقيت بين أيدى مسلمى اليوم لحماية أنفسهم ولإنقاذ غيرهم من الأمم الضائعة من حولهم، والتى تهدد العالم كله بالدمار.

رابعًا: إن كلاً من الإسلام والمسلمين يتعرض اليوم لهجوم شرس فى كافة وسائل الإعلام بغير حق، والقائمون على تلك الوسائل من غلاة الصهاينة وغلاة الصليبيين، وأعداء القيم النبيلة والأخلاق الرفيعة وأصول الدين، ومن الشواذ جنسيًا وسلوكيًا والداعين إلى ذلك علنًا بلا أدنى حياء أو خجل، هؤلاء جميعًا ينكرون سماوية الإسلام، وربانية القرآن، ونبوة خاتم المرسلين ﷺ أو ينكرون

الدين كلية فى وقاحة وبجاحة سافرة، وأهم الوسائل وأنجعها للرد على هذا الهجوم هو إثبات الإعجاز العلمى لكتاب الله ولسنة رسوله ﷺ بالكلمة الطيبة، والحجة الواضحة البالغة، والمنطق السوى.

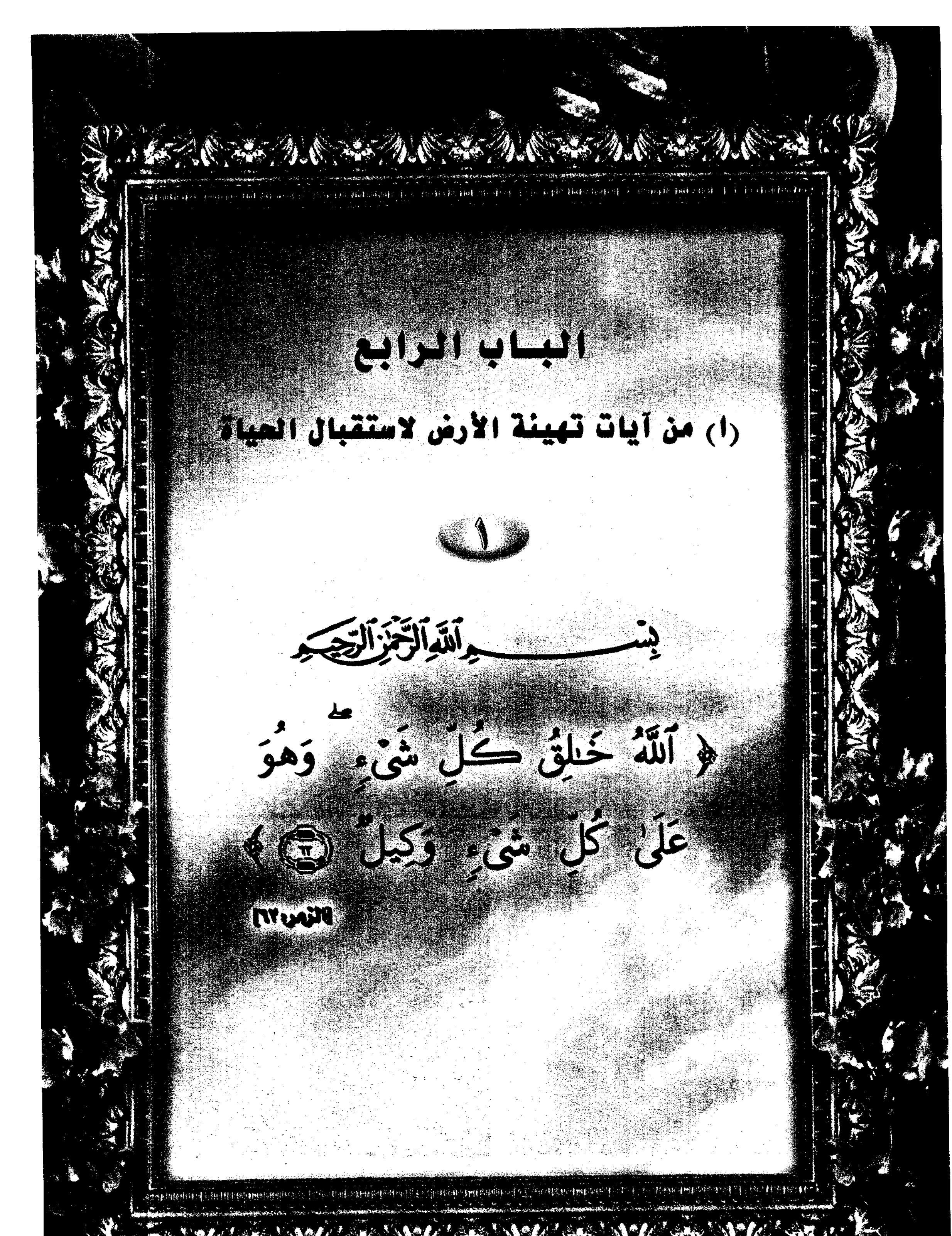
خامسًا: إن العالم اليوم يتحرك فى اتجاه كارثة كبرى، وقودها تطور علمى وتقنى مذهل، يُطغى أصحابه ويُغريهم بإفناء وإبادة غيرهم، فى غيبة الوعى الدينى الصحيح والالتزام الأخلاقى والسلوكى اللذين يرعيان حق الله، وحقوق الأخوة الإنسانية حق رعايتها، والمخرج من ذلك هو الدعوة للدين الحق، ومن أوضح وسائل الدعوة إليه هو ما فى كتاب الله، وفى سنة رسوله ﷺ من إعجاز علمى واضح وضوح الشمس فى رابعة النهار، يقنع المنبهرين بالعلم ومعطياته فى زمن تفجر المعارف العلمية الذى نعيشه كما لا يقنعهم أى أسلوب آخر.

سادسًا: إننا - معشر المسلمين - قصرنا كثيرًا فى التبليغ عن الله وعن رسوله ﷺ، وقد كلفنا بالتبليغ عنهما، ونحن اليوم نجنى ثمار ذلك التقصير كله: حروبًا طاحنة على كل أرض إسلامية من فلسطين والعراق إلى البلقان، ومنها إلى أرض الشيشان، وكشمير، وأفغانستان، وجنوب الفيليبين، وأراكان، والصومال، والسودان وغيرها من أراضى المسلمين الغارقة فى بحار من الدماء والأشلاء والخراب والدمار، وإنا لله وإنا إليه راجعون. هذا بالإضافة إلى حصار لأكثر من دولة مسلمة، ومصادرة لبلايين الدولارات من أموال المسلمين، واحتلال عسكرى مقنع لكل دولة من دول الجزيرة العربية وغالبية بلاد الشام والعراق، وأفغانستان، ومن الأراضى المغربية سبته ومليلة وجزيرة ليلى، والعديد من الجزر الآسيوية.

وفى غمرة هذه المؤامرات الغربية لا ننسى مطاردة المسلمين فى كل مكان من أماكن العالم ومحاولة اعتقالهم وتجريمهم، وإذلالهم، وتشويه سمعتهم بوصفهم بالإرهاب تارة وبالتخلف أخرى، وليس ببعيد عن الأذهان ما يجرى للمسلمين اليوم من إذلال وامتهان وتجاوزات لكل حقوق الإنسان فى معتقلات وسجون كل من الولايات المتحدة والبحر الكاريبى (من مثل معتقل جوانتانامو) والعراق (من مثل سجن أبو غريب) وأفغانستان.

سابعًا: إن فى إثارة قضية الإعجاز العلمى لكلٍّ من القرآن الكريم، وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ استنهاضًا لعقول المسلمين، واستثارة للتفكير الإبداعى فيها، وتشجيعًا على استعادة الاهتمام بقضية العلوم والتقنية التى تخلفت فيها الأمة مؤخرًا تخلفًا كبيرًا، فى الوقت الذى تقدمت فيه دول العالم الصناعية تقدمًا مذهلاً، حتى أصبح كم المعارف المتاح يتضاعف كل خمس سنوات، وتتجدد تقنياته مرة كل ثلاث سنوات تقريبًا، وبذلك أخذت الهوة الفاصلة بيننا وبينهم فى مجال العلوم والتقنية تزداد اتساعًا وعمقًا يومًا بعد يوم، وأصبحت مخاطر ذلك علينا تتضاعف مع تزايد تلك الهوة عمقًا واتساعًا.

***



الباب الرابع

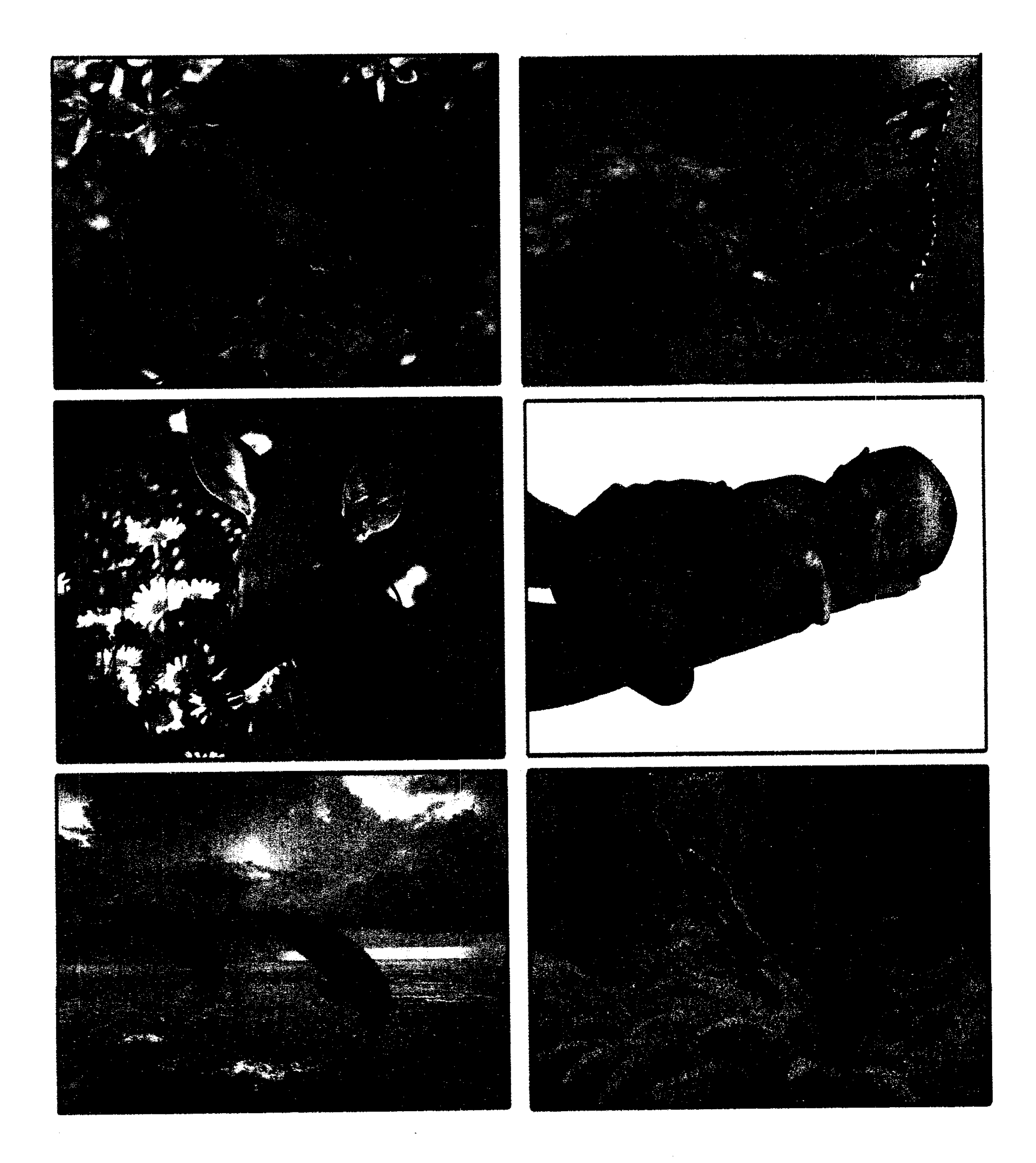
(أ) من آيات تهيئة الأرض لاستقبال الحياة

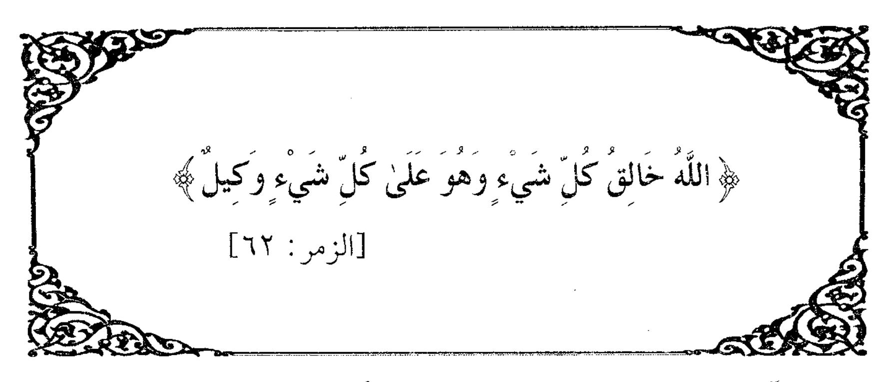
١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

(الزمر:٦٢)





﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾

[الزمر : ٦٢]

هذه الآية الكريمة جاءت فى مطلع الخمس الأخير من سورة الزمر، وهى سورة مكية، وآياتها خمس وسبعون بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم للإشارة فيها إلى سَوْق المجرمين من الكفار والمشركين فى يوم القيامة إلى جهنم زمراً، وإلى سَوْق المتقين من المؤمنين الموحدين الصالحين إلى الجنة زمراً.

عرض موجز لسورة الزمر

يدور المحور الرئيسى للسورة حول قضية العقيدة وجاءت بها بعض اللمحات عن طبيعة النفس الإنسانية، وعن مصائر المؤمنين والكافرين فى الآخرة، وعما أصاب المكذبين من الأمم السابقة. وضربت السورة الكريمة عدداً من الأمثال واحتوت على العديد من الآيات الكونية الدالة على طلاقة القدرة الإلهية فى إبداع الخلق وفى إثبات قدرته ـ تعالى ـ على البعث. ويمكن تلخيص أهم القضايا التى جاءت بها سورة الزمر فى النقاط التالية:

أولاً: من ركائز العقيدة فى سورة الزمر

(١) إن القرآن الكريم هو تنزيل من الله العزيز الحكيم على خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ أنزله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بالحق ـ قرآناً عربياً غير ذى عوج ـ يطالبه ﷺ كما يطالب الناس جميعاً بالإيمان به، وبعبادة الله ـ تعالى ـ وحده بإخلاص وتجرد تامين، بغير شريك، ولا شبيه ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد؛ لأن هذه كلها من صفات المخلوقين والله ـ تعالى ـ منزه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، ولذلك فهو ـ سبحانه وتعالى ـ لا يقبل من عباده إلا التوحيد الخالص لذاته العلية.

(٢) إن الذين اتخذوا أولياء يعبدونهم من دون الله، بدعوى أنهم يقربونهم إلى الله زلفى، هم كاذبون فى ادعائهم، ومفترون على الله، وسوف يحكم الله - تعالى - فيهم يوم القيامة، وهو - سبحانه - لا يهدى من هو كاذب كفار؛ لأنه لا يوجد من هو أظلم لنفسه ممن كذب على الله، وكذَّب بالحق إذ جاءه.

(٣) على الذين ادعوا لله - تعالى - ولدًا بغير علم ولا هدى ولا سلطان مبين أن يعلموا أن الله غنى عن الصاحبة والولد، وأنه لو أراد أن يتخذ ولدًا لاصطفى مما يخلق ما يشاء؛ لأنه - سبحانه - هو الله الواحد القهار.

(٤) إن الله - تعالى - لا يرضى لعباده الكفر، ولكنهم إن كفروا فالله غنى عنهم، وإن آمنوا وشكروا فالله يرضى عن ذلك منهم، و﴿**لا تزر وازرة وزر أخرى**﴾ والخلق جميعهم راجعون إلى الله فينبئهم بما كانوا يعملون، وهو عليم بذات الصدور.

(٥) إن الذين يشركون بالله قد يتمتعون قليلاً فى الدنيا، ثم هم فى الآخرة من أصحاب النار.

(٦) من شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، وأما الكفار والمشركون من أصحاب القلوب القاسية فهم فى ضلال مبين، والذى يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه يقف فى عبادة الله قانتًا آناء الليل ساجدًا وقائمًا، وغيره لاه فى الدنيا حتى يفاجئه الموت: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [الزمر: ٩].

(٧) إن للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة، وإن تعرضوا لشىء من الابتلاء والإيذاء فعليهم أن يهاجروا فأرض الله واسعة، أو أن يصبروا لأن الصابرين يوفون أجورهم بغير حساب.

(٨) من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، ومن يهد الله فما له من مضل، ومن يضلل فما له من هاد، والرسول الكريم ما عليه إلا البلاغ، فهو ﷺ ليس على الناس بوكيل، والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون.

(٩) إن رسول الله ﷺ ومن بعده كل المسلمين، بل كل الناس مأمورون جميعًا بعبادة الله -تعالى- مخلصين له الدين، وأن يكونوا لله من الشاكرين.

(١٠) إن الموت حق على العباد، وكذلك البعث والنشور.

(١١) إن الرزق من الله، وهو - سبحانه - الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

(١٢) إن الله -تعالى- هو الغفور الرحيم الذى يغفر الذنوب جميعًا.

(١٣) إن كل بنى آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون، ومن هنا كانت المسارعة فى التوبة إلى الله والإنابة إليه من أصول الدين.

(١٤) إن للآخرة نفختين: نفخة الصعق والتى تنفخ فى الصور فيصعق بها من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله، ونفخة البعث والتى إذا نفخت فى الصور فإذا هم قيام ينظرون.

ثانيًا: وصف مصائر كل من المؤمنين والكافرين

فى المقابلة بين ذل الأشقياء المعذبين من أهل النار الذين كفروا بالله أو أشركوا به، وبين تكريم السعداء المكرمين من أهل الجنة الذين آمنوا بالله واتقوه حق تقاته يقول ربنا - تبارك وتعالى:

﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ (١٩) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾ [الزمر: ١٤ - ٢٠].

ويقول عز من قائل: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٢٤].

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر : ٣٣ـ ٣٥].

ثالثًا : استعراض جانب من مصائر الأمم السابقة

تصف الآيات فى سورة الزمر حال المكذبين فى الدنيا والآخرة، وتعرض شيئًا من ذلك كى يعتبر به المعتبرون مؤكدة أن الذين يكذبون رسالات ربهم يأتيهم العذاب فى الدنيا من حيث لا يشعرون فيخزيهم به الله ويتوعدهم بعذاب الآخرة الذى هو أدهى وأمر، وفى ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى : ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الزمر : ٢٥ـ ٢٧].

رابعا : ضرب الأمثال

وفى التأكيد على عز التوحيد لله وذل الشرك به ضرب الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى سورة الزمر المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ بعبد مملوك لعدد من الشركاء المتشاجرين المتنازعين، وعبد مملوك لرجل واحد لا يشاركه فيه أحد، ولا ينازعه عليه منازع هل يستويان مثلاً، أى حالاً وصفة فيقول عز من قائل : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٢٩].

خامسًا : الآيات الكونية فى سورة الزمر

جاء فى سورة الزمر عدد غير قليل من الآيات الكونية الشاهدة لله ـ تعالى ـ بطلاقة القدرة فى خلق الكون، وبالقدرة على إفنائه، وبالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد، ومن هذه الآيات قوله ـ تعالى ـ :

(١) ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ [الزمر : ٥].

(٢) ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [الزمر : ٦].

(٣) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ٢١].

(٤) ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠].

(٥) ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٢].

(٦) ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر : ٤٦].

(٧) ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر : ٦٢].

(٨) ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر : ٦٧].

(٩) ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٦٩].

وكل آية من هذه الآيات الكونية التسع التى جاءت فى سورة الزمر تحتاج إلى معالجة خاصة فى عرض جوانب الإعجاز العلمى التى جاءت بها، ولكن لما كانت

آيتان منها فقط تقعان ضمن موضوع هذا الكتاب، وهما الآيتان رقم (٢١) ، (٦٢) فإنى سوف أتعرض لمناقشتهما مبتدءاً بالآية رقم (٦٢) لشمول دلالتها على قضية الخلق بصفة عامة. وقبل الدخول إلى ذلك، أرى لزامًا عليَّ أن أعرض لأقوال عدد من المفسرين فى شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

فى شرح قوله - تعالى - :

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

* ذكر ابن كثير - رحمه الله - ما نصّه: «أنه خالق الأشياء كلها، وربها، ومليكها، والمتصرف فيها، وكلٌّ تحت تدبيره، وقهره، وكلاءته . . .».

* وجاء فى تفسير الجلالين - رحمهما الله - مانصه: «﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أى يتصرف فيه كيف يشاء».

* وذكر صاحب الظلال - رحمه الله رحمة واسعة - ما نصه: «هذا القطاع الأخير فى السورة يعرض حقيقة التوحيد من جانب وحدانية الخالق الذى خلق كل شىء، المالك المتصرف فى كل شىء، فتبدو دعوة المشركين للنبى ﷺ إلى مشاركتهم عبادة آلهتهم فى مقابل أن يشاركوه عبادة إلهه!! تبدو هذه الدعوة مستغربة، والله هو خالق كل شىء، وهو المتصرف فى ملكوت السماوات والأرض بلا شريك، فأنى يعبد معه غيره، وله وحده مقاليد السماوات والأرض؟!».

* وجاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم - جزى الله كاتبيه خيراً - ما نصه: «﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ - وهو وحده - على كل شىء وكيل، يتولى أمره بمقتضى حكمته».

* وجاء فى صفوة التفاسير - جزى الله كاتبها خيراً - ما نصه: «﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى الله - جل وعلا - خالق جميع الأشياء وموجد جميع المخلوقات،

والمتصرف فيها كيف يشاء، لا إله غيره، ولا رب سواه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أى : هو القائم على تدبير كل شىء» .

ومن هذه الاستعراض يتضح أن المفسرين قد أوجزوا فى شرح دلالة هذه الآية الكريمة على الرغم من ضخامة تلك الدلالة .

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

تنص هذه الآية الكريمة على أن كل ما فى عالمى الغيب والشهادة هو من خلق الله الذى خلقه بعلمه وحكمته وقدرته، ويرعاه برعايته ورحمته التى لو تخلت عن الوجود طرفة عين أو أقل من ذلك لانهار وانتهى .

ومن مخلوقات عالم الغيب ما أخبرنا به القرآن الكريم عن الملائكة والجن، ومن مخلوقات عالم الشهادة أعلمنا بكل من الإنسان والحيوان والنبات - من الأحياء - ، وبمختلف صور المادة والطاقة - من الجمادات - ومن أبعاد الوجود المادى بالأماكن والأزمنة .

وعملية الخلق بأبعادها الثلاثة : خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الإنسان، عملية غيبية لم يشهدها أى من الجن أو الإنس؛ ولذلك يقول الحق - تبارك وتعالى - فى محكم كتابه : ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف : ٥١] .

وعلى الرغم من ذلك يقول ربنا - عز من قائل : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

[العنكبوت : ٢٠] .

وبالجمع بين هاتين الآيتين الكريمتين يتضح لنا أنه على الرغم من أن الإنسان لم يشهد عملية الخلق؛ لأنها سابقة لوجوده، إلا أن الله - تعالى - قد ترك له فى صخور الأرض، وفى صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يمكن أن يعين الإنسان المؤمن بالله على الوصول إلى تصور صحيح عن كيفية الخلق .

أما غير المؤمن فيرى الشواهد الحسية ويلمسها بيديه، ولكنه فى محاولة نسبة الخلق إلى غير الله فإنه يتوه فى سيل من الفروض والنظريات التى تحيد به عن الحق، ولا توصله إلى شىء صحيح أبداً.

ولذلك جاء فى هذه الآية الكريمة قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]. وجاء فى العديد غيرها من الآيات القرآنية التأكيد على حقيقة الخلق حتى لا يتوه الناس فى متاهات الكفار والمشركين الذين ضلوا وأضلوا البشرية حتى فى زمن العلوم والتقنية الذى نعيشه. ولذلك جاء الفعل خلق بمشتقاته المختلفة ٢٥٢ مرة فى القرآن الكريم، مؤكداً أن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شىء.

متاهة الكافرين فى قضيتى قدم الكون وتدرج عمارة الأرض بالحياة

فى محاولة لنفى الخلق وإنكار الخالق، ادعى الكافرون منذ القدم بأزلية العالم، وجاءت الكشوف العلمية المثبتة لقدم الكون، وقدم الحياة على الأرض فتصور الملحدون فى ذلك دعما لدعواهم.

كذلك جاءت عملية اكتشاف التدرج فى الخلق ابتداء من خلق اللبنات الأولية للمادة، إلى خلق كل من الجمادات والنباتات والحيوانات حتى توجت الحياة بخلق الإنسان ـ ذلك المخلوق المكرم كما وصفه الحق ـ تبارك وتعالى ـ جاءت تلك الكشوف فتخيل فيها الكافرون دعمًا لدعواهم الباطلة بعشوائية الخلق مما لايقوم عليه دليل واحد. فربنا ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الخلق كله على مراحل متطاولة ـ وهو القادر على أن يقول للشىء كن فيكون ـ وذلك لسببين واضحين:

أولهما: أن الله ـ تعالى ـ قد أراد بذلك أن يتيح للإنسان المتدبر فى الكون الفرصة الكافية لفهم سنن الله الحاكمة للوجود كله حتى يتمكن من حسن توظيفها فى عمارة الأرض، كما يتمكن من أن يرى من خلالها شيئًا من قدرة الخالق العظيم، وعلمه، وحكمته، فيسجد له بالعبادة والطاعة، ويرى الوحدة فى بناء الكون ناطقة بوحدانية الخالق العظيم، كما يرى الزوجية فى جميع المخلوقين من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان شاهدة لله الخالق بكمال الوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، تلك

الوحدانية التى لا ينازعه فيها منازع، ولا يشاركه فيها شريك، فالجميع إبداع خلقه، وتمام صنعته، فكيف يجرؤ أحدهم على أن يتطاول على مقام الألوهية؟ والله - تعالى - يتهدد المشركين بقوله العزيز:

﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٣].

ثانيهما: أن الزمن إذا كان حدّا من حدود الإنسان، ومن حدود غيره من المخلوقات، فهو من خلق الله، والمخلوق لايحد الخالق أبدا، فمهما تطاول الزمن فهو بين إصبعين من أصابع الله - تعالى - يتحكم فيه كيف يشاء.

وبدلاً من فهم القضية فى هذا الإطار، اندفع دعاة المادية إلى الافتراض الخاطئ بنفى الخلق، وإنكار الخالق - سبحانه وتعالى - بدعوى أزلية الخلق، أو عشوائيته، وهما افتراضان يتعارضان مع جميع الملاحظات العلمية الدقيقة فى صخور الأرض، وفى صفحة السماء، ومن هنا جاءت الآية القرآنية الكريمة التى نحن بصددها شاهدة، كما جاء غيرها من مئات الآيات التى تشهد بأن الله - تعالى - هو خالق كل شىء.

قدم الكون وانتفاء أزليته وأبديته يؤكدان حقيقة الخلق

تؤكد الملاحظات العلمية فى الجزء المدرك من الكون أن الحرارة تنتقل فيه باستمرار من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة، ولو كان الكون أزليّا كما يدعى المبطلون لتساوت حرارة جميع الأجسام فيه وانتهى وجوده منذ زمن بعيد، واستمرار الكون فى التواجد مع استمرار الانتقال الحرارى ينفى أزليته، كما ينفى أبديته، ويؤكد أنه مخلوق، مستحدث، له فى الأصل بداية (يقدرها العلماء اليوم بحوالى أربعة عشر بليونًا من السنين)، ولابد وأن سوف تكون له فى يوم من الأيام نهاية لا يعلمها إلا الله الخالق - سبحانه وتعالى - والسنن الحاكمة للكون اليوم تشير إلى حتمية وقوعها، ولا تحدد موعدها، ومن ذلك أن الشمس تفقد من كتلتها فى كل ثانية على هيئة طاقة ما يعادل ٤,٦ مليون طن، وكما تفقد الشمس من كتلتها تفقد بقية النجوم، فهذا الكون الذى تتواجد فيه هو حتمًا إلى زوال فى لحظة يحددها الخالق - جلت قدرته - الذى أنزل لنا فى محكم كتابه قوله الحق:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٧].

الانفجار العظيم يؤكد حقيقة الخلق

من الحقائق التى وصل إليها علماء الفلك منذ بدايات القرن العشرين حقيقة توسع الكون، وقد سبق القرآن الكريم بالإشارة إليها، وذلك بقول الحق - تبارك وتعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧].

وقال علماء الفلك: إننا إذا عدنا بهذا الاتساع إلى الوراء مع الزمن فلا بد من التقاء كل مادة الكون وطاقته مع المكان والزمان فى جرم واحد يتضاءل فى الحجم إلى حد العدم، ويتعاظم فى كم المادة والطاقة إلى حد توقف كل قوانين الفيزياء المعروفة، وهى حالةلا يستطيع. العقل البشرى أن يتصورها. وهذا الجرم الابتدائى انفجر فتحول إلى سحابة من الدخان خلقت منها الأرض والسماوات. وقد سميت هذه النظرية باسم «نظرية الانفجار العظيم»، ومن شواهدها تمدد الكون، ووجود درجة حرارة ثابتة - حوالى ٣ درجات مطلقة - على جميع أطراف الجزء المدرك من الكون، ومن شواهدها كذلك تصوير بقايا الدخان الكونى الأولى على أطراف الجزء المدرك من الكون.

وعلى الرغم من معارضة عدد قليل من المتخصصين فى مجال علوم الفلك والفيزياء الفلكية لنظرية الانفجار العظيم، فإننا - معشر المسلمين - نقبل هذه النظرية، ونرتقى بها إلى مقام الحقيقة لوجود إشارة لها فى كتاب الله من قبل أربعة عشر قرنًا يقول فيها ربنا - تبارك وتعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٠].

وخلق الكون بعملية انفجار كبرى من أعظم الدلائل على الخلق والتدبير؛ لأنه من المعروف أن الانفجار بطبيعته يؤدى إلى بعثرة المادة وتناثرها، مخلفًا وراءه الدمار، أما عملية الانفجار الكونى فقد أدت إلى إبداع نظام له تصميم دقيق،

محكم الكتل، والأحجام، والأبعاد، والمدارات، والسرعات، والعلاقات، وهذا النظام مبنى على نسق واحد من أدق دقائقه إلى أعظم وحداته على الرغم من تعاظم أجرامه وأبعاده ووحداته وتجمعاته، وتعقد علاقاته، مما يشهد للخالق العظيم بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه. وانفجار هذه نتيجته لا يمكن أن يكون قد تم بغير تدبير وتقدير بالغى الإحكام والإتقان والإحاطة والقدرة التى لا يستطيعها إلا الخلاق الحكيم العليم.

وجود المادة وأضدادها يؤكد على حقيقتى الخلق والتدبير

منذ الربع الأول للقرن العشرين، وكلّ من الحسابات الرياضية والاكتشافات فى صفحة السماء يؤكدان حقيقة الزوجية فى الخلق، فالضوء يتحرك أحيانًا على شكل موجات وأحيانًا أخرى على شكل جسيمات - فوتونات -، وهذه الزوجية فى الخلق تتحقق أيضًا للمادة، فالجزء من المادة ليس نقطة هندسية، ولكنه كيان ينتشر أيضًا فى الفضاء على هيئة موجية. وقد أدت هذه الملاحظة إلى اكتشاف نقيض للإلكترون (أو قرين له)، وأن هذين النقيضين إذا التقيا فإن أحدهما يلغى الآخر، أى يفنيه وينهى وجوده إلى العدم. ومعنى ذلك أن أية كمية محدودة من الطاقة يمكن أن تتجسد فى جسيمين، أحدهما نقيض لصاحبه فى كل صفاته، أى صورة طبق الأصل له ولكنه معكوس الصفات، وأن هذين النقيضين إذا التقيا فإنهما يفنيان معًا. والغريب فى الأمر أن يكتشف فى صفحة السماء المادة وأضدادها على مختلف المستويات من اللبنات الأولية للمادة إلى المادة ذاتها ومن ذلك:

- الكواركات وأضدادها (**Quarks and Antiquarks**).
- النيوترينوات وأضدادها **(Neutrinos and Antineutrinos)**.
- الإليكترونات وأضدادها
[Electrons (Negatrons) and Antielectrons (Positrons)].
- البروتونات وأضدادها **(Protons and Antiprotons)**.
- النيوترونات وأضدادها **(Neutrons and Antineutrons)**.
- المادة وأضدادها **(Matter and Antimatter)**.

ويعتقد علماء الفلك والفيزياء الفلكية أن الكون قد بدأ بتركيز من المادة وأضدادها أى بدأ من العدم. والسؤال الذى يفرض نفسه هو : من الذى فصل تلك الأضداد حتى يخلق الكون ؟ ولا يمكن لعاقل أن يتصور ذلك بغير تقدير الخلاق العليم ـ سبحانه وتعالى ـ.

وحتى بعد فصل الأضداد لكى يخلق الكون، يرى العلماء حتمية إفناء بعضها للبعض الآخر، والسؤال الذى يفرض نفسه هو : ما الفاصل بين المادة وأضدادها فى صفحة السماء الآن حتى يوجد الكون ؟ ومن الذى وضع هذا الفاصل؟ ولا يزال يحفظه؟ والجواب الذى لا مفر منه هو : وضعه الخالق العظيم الذى يقول للشىء كن فيكون. وعلى ذلك فإن مراحل خلق الكون منذ لحظة الانفجار العظيم قد خططت لها العناية الإلهية بدقة فائقة فى ضبط درجات الحرارة، ومعدلات تخلق الجسيمات الأولية للمادة، وسرعات الاتساع الكونى، وغير ذلك من أمور تمت بدقة فائقة وإحكام شديد حتى وصل الكون إلى حالته الراهنة، ولا يمكن لكل ذلك أن يتم بغير خلق وتدبير من الله الخبير العليم.

خلق العناصر فى داخل النجوم وفى صفحة السماء من أدلة الخلق والتدبير

فى دراسة للتركيب الكيميائى للجزء المدرك من الكون، اتضح أن غالبيته يتكون من غاز الأيدروچين الذى يشكل أكثر من ٧٤٪ من مادة الكون المنظور، والأيدروچين هو أخف العناصر وأقلها بناء. ويلى غاز الأيدروچين كثرةً غاز الهيليوم الذى يكون ٢٤٪ من مادة الكون المنظور ـ وهو العنصر الثانى فى الجدول الدورى للعناصر ـ وقد دفعت هذه الملاحظة إلى الاستنتاج الصحيح أن جميع العناصر المعروفة وعددها أكثر من مائة عنصر قد خلقت كلها من غاز الأيدروچين (تأصل العناصر).

وبدراسة أقرب النجوم إلينا ـ وهى الشمس ـ اتضح أن وقودها هو غاز الأيدروچين الذى تتحد أربع من نوياته ـ جمع نواة مصغر ـ لتكون نواة عنصر الهيليوم، و بعملية تسمى عملية الاندماج النووى تنطلق الطاقة، وعلى ذلك فالنجوم عبارة عن أفران ذرية كونية عملاقة تتخلق بداخلها العناصر من نوى ذرات

الأيدروچين، حتى الحديد الذى لا تصله عملية الاندماج النووى إلا فى آخر مراحل حياة النجوم العملاقة فى لحظات انفجارها المعروفة باسم «المستعرات العظمى»، وبانفجار المستعر الأعظم تتناثر مكوناته من الحديد فى صفحة السماء لتدخل فى مجال جاذبية أجرام تحتاج الحديد، أو لتصطاد بعض اللبنات الأولية للمادة مكونة العناصر الأعلى فى وزنها الذرى من عنصر الحديد. وهذه العملية وحدها كافية للتأكيد على حقيقة الخلق.

بناء الخلية الحية ينطق بحتمية الخلق والتدبير

* إذا علمنا أن عدد الأنواع الحية المعروفة لنا حتى الآن يتعدى المليون ونصف المليون نوع، وأن عدد الأنواع المندثرة والموجود لها بقايا على هيئة أحافير فى صخور الأرض يتعدى الربع مليون نوع، وأن عدد الأنواع المتوقعة للحياة الأرضية فى ضوء الاكتشافات المعاصرة يصل إلى حوالى خمسة ملايين نوع.

* وأن متوسط المدى الزمنى للنوع الواحد من أنواع الحياة يتراوح بين نصف مليون سنة إلى خمسة ملايين من السنين، وقد يصل إلى عشرة ملايين من السنين فى بعض الحالات، ويمثل النوع فى كل سنة من هذه الملايين من السنين ببلايين الأفراد.

* وأن جسم الإنسان على سبيل المثال يتكون فى المتوسط من ألف مليون مليون نوع من أنواع مختلفة من الخلايا، والأرض يعمرها اليوم أكثر من ستة بلايين إنسان.

* وأن الخلية الحية الواحدة على قدر من التعقيد فى البناء يفوق كل ما حققه الإنسان من إنجازات تقنية، فضلاً عن كل الذى فكر فى تحقيقه ولم يتمكن من ذلك بعد، على الرغم من ضآلة حجمها الذى يبلغ ٠,٠٣ من المليمتر فى المتوسط فى جسم الإنسان.

فالخلية الحية تتكون عادة من جدار حىٍّ - فى كلٍّ من الإنسان والحيوان - ملىء بالسائل الخلوى (الهيولى - السيتوپلازم)، وبوسط هذا السائل توجد النواة، والسائل الخلوى معقد التركيب، وغير متجانس، ويتكون بشكل رئيسى من البروتينات والدهون، والسكريات، وبعض العناصر المختلفة، وهذا السائل توجد

به أعداد من الجسيمات المتخصصة - العضيات - ويعمل كوسيط تمر من خلاله المواد والمركبات والأوامر من النواة إلى أى من هذه العضيات، ومن أى منها إلى عضى آخر، أو إلى خارج الخلية.

ويفصل النواة عن السيتوپلازم غشاءان، والنواة تختزن معظم مادة الشفرة الوراثية للخلية الحية. أما الشبكة الإندوپلازمية فتربط بين الغشاء النووى والغشاء الخلوى، وهى شبكة معقدة تتصل بها حبيبات صغيرة تدعى الريبوسومات تقوم بتصنيع أكثر من مائتى ألف نوع من البروتينات التى تحتاجها الخلية الحية، حسب التعليمات التى تتلقاها من نواة الخلية، ومن العضيات ما يحمل الإنزيمات وهى مواد پروتينية تصنعها الريبوسومات وتساعد على هضم المواد الغذائية داخل الخلية، ومن العضيات ما يقوم بتحويل المواد العضوية إلى طاقة تحتاجها الخلية الحية فى عدد من نشاطاتها المحددة، وتعرف باسم المتقدرات (**Mitochondria**).

وتختلف الخلية النباتية فى أن جدارها مكون من مواد غير حية، وأنها تحتوى على البلاستيدات الخضراء - اليخضور - وهى مادة لازمة لإتمام عملية التمثيل الضوئى.

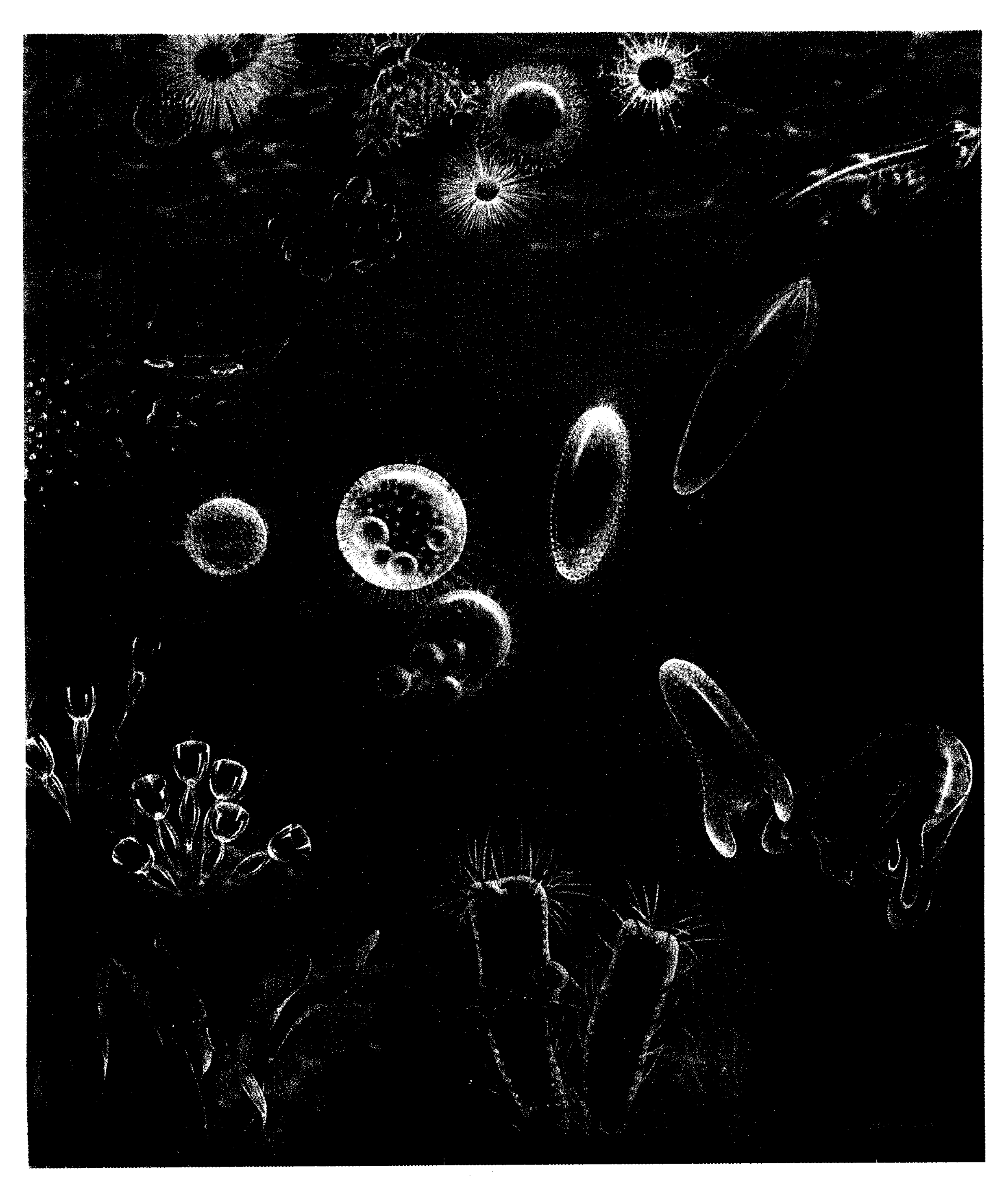
والشفرة الوراثية تحملها جسيمات دقيقة فى داخل نواة الخلية تعرف باسم «الصبغيات»، وعددها محدد لكل نوع من أنواع الحياة، والصبغيات تحمل المورثات (الچينات) التى تحمل صفات الفرد من هذا النوع، والتى تعطى الأوامر للخلية بالانقسام، والتميز، وتخليق الأنواع المختلفة من الپروتينات، وعلى ذلك فالنواة هى مركز المعلومات للخلية. وتحاط النواة بغشاء يسمى «الغلاف النووى»، وتحتوى على مادة حبيبية دقيقة تسمى «البلازما النووية» التى تحمل كلاً من الصبغيات والنوية، وقد تكون النوية واحدة أو أكثر.

وإذا علمنا أن الخلية الحية قد أعطاها الخالق - سبحانه وتعالى - القدرة على إنتاج مائتى ألف نوع من الپروتينات التى يوجد منها أكثر من مليون نوع، وأن الجزىء الپروتينى يتكون من سلاسل من جزيئات الأحماض الأمينية، وأن الأحماض الأمينية المعروفة والقادرة على بناء الجزيئات الپروتينية هى عشرون حمضًا أمينيًا، وأن هذه الأحماض مواد جامدة غير حية بذاتها، متبلورة وسهلة الذوبان فى الماء فى أغلب الأحوال. وأن الحمض الأمينى يتكون من ستة عناصر أساسية هى الكربون،

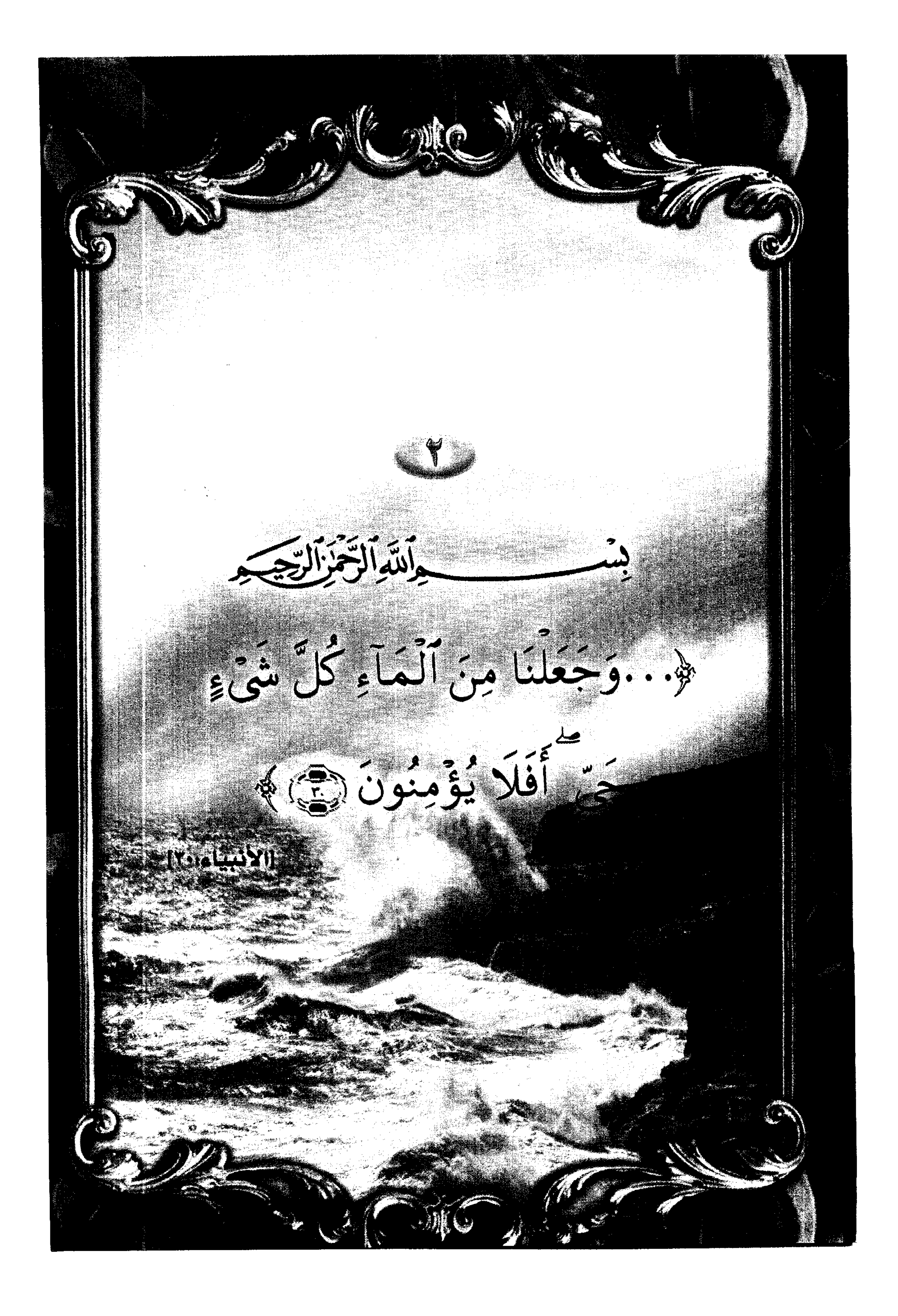
والأيدروچين، والأوكسچين، والنيتروچين، والكبريت، والفوسفور. وأن مجرد اختيار هذه العناصر الستة من بين أكثر من مائة عنصر معروف لنا اليوم بالصدفة هو - إحصائيًا - أمر مستحيل.

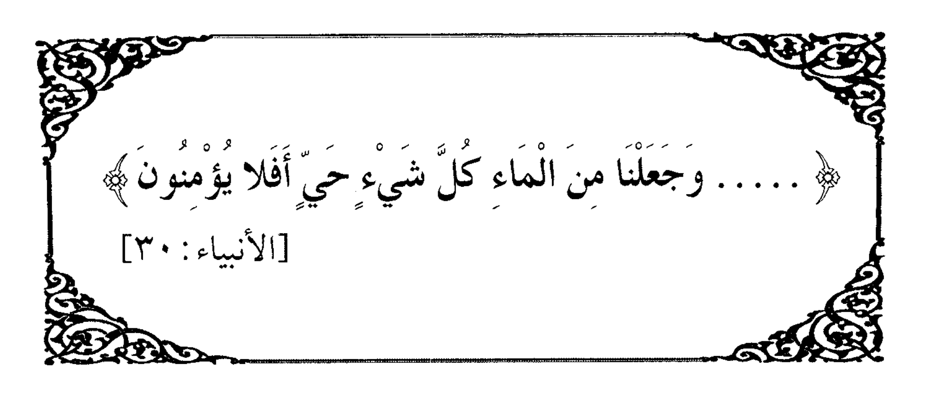
وإن الأحماض الأمينية المناسبة لبناء الجزىء البروتينى لا بد أن تكون من نوع خاص (ألفا)، وأن تكون الذرات مرتبة فيها حول ذرة الكربون ترتيبًا يساريًا، وأن تترتب هى فى الجزىء البروتينى ترتيبا يساريا كذلك، وأن ترتبط برباط خاص يعرف باسم «الرباط الپيپتيدى - **Peptide Bond**» وأن هذه القيود تجعل من تكوين جزىء بروتينى واحد بمحض الصدفة أمرًا مستحيلا.

وإذا علمنا أن أبسط جزىء بروتينى يتكون من خمسين جزيئا من جزيئات الأحماض الأمينية العشرين المعروفة، وأن جزيئات هذه الأحماض الأمينية لا ترتبط لتكون الجزىء البروتينى إلا بكل القيود السابقة، وأن بعض أنواع الجزىء البروتينى مكون من آلاف الجزيئات للأحماض الأمينية المرتبة ترتيبًا محددًا، اتضح لنا بجلاء أن مجرد تكون جزىء بروتينى واحد بمحض الصدفة هو - إحصائيًا - من مستحيل المستحيلات، وإذا كان هذا هو الحال فى نفى إمكانية تكون جزىء بروتينى واحد بمحض الصدفة فإن تكون خلية حية واحدة بمحض الصدفة هو أشد استحالة، وتتأكد استحالة عشوائية الخلق أو إمكانية للصدفة فيه إذا نظرنا إلى الأعداد غير النهائية من الخلايا الحية التى تنتظمها أنواع متخصصة، فى أنسجة متخصصة، فى أعضاء متخصصة تعمل بتوافق تام لخدمة النوع من الحياة التى تتجمع فيه، وتشهد لخالقها بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه. ولذلك جاءت هذه الآية الكريمة بهذا القرار الإلهى من قبل ألف وأربعمائة سنة لتريح هذه النفوس القلقة، والعقول المضطربة بين العديد من النظريات التى طرحت كبدائل للخلق وانتهت كلها بالفشل الذريع فسبحان القائل: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ وهو سبق علمى لكل المعارف البشرية يشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، ويشهد للنبي الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد الذى تلقى القرآن عن ربه فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد فى سبيل الله حتى أتاه اليقين، فجزاه الله عنا خير الجزاء، والحمد لله رب العالمين.



رسم توضيحى لبعض بدايات الحياة البحرية القديمة التى انتشرت فى بحار العصر الكمبرى (من ٥٧٠ مليون سنة مضت إلى ٥١٠ مليون سنة مضت) . وفيها بعض الأعشاب البحرية، والخلية ـ والإسفنجيات، والديدان الحلقية، والمفلطحة، والحلقية، وشوكيات الجلد، وبعض الرخويات والمرجانيات .


٢
بسم الله الرحمن الرحيم
﴿...وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ
حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾
[الأنبياء:٣٠]



هذا النص القرآنى المعجز جاء فى مطلع الربع الثانى من سورة الأنبياء وهى سورة مكية ، وآياتها اثنتا عشرة ومائة بعد البسملة ، ويدور محورها الرئيسى حول قضية العقيدة الإسلامية ومن ركائزها الإيمان بالله ربّا ، وبملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والتوحيد الخالص لجلال الله - بغير شريك ، ولا شبيه ، ولا منازع ، ولا صاحبة ، ولا ولد . وقد سميت السورة بهذا الاسم لاستعراضها سير عدد كبير من أنبياء الله .

عرض موجز لسورة الأنبياء

ابتدأت السورة الكريمة بالإشارة إلى غفلة الناس عن الحساب ، وعللت تلك الغفلة بانصراف أغلب أهل الأرض عن الهداية الربانية التى أنزلها الله - تعالى - على عدد من الأنبياء والمرسلين ، وأتمها ، وأكملها ، وحفظها فى القرآن الكريم ، وفى سنة خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين .

وضربت سورة الأنبياء مثلاً على ذلك بغفلة كفار قريش ، الذين أنكروا نبوة ورسالة هذا الرسول الخاتم - وأمثالهم فى هذا الزمان كثير - واتهموه - شرفه الله تعالى - كما يتهمه كفار ومشركو اليوم - بالسحر ، والهلوسة ، والافتراء ، والشعر ، وطالبوه بعدد من المعجزات الحسية كالتى جاء بها سلفه من الأنبياء والمرسلين ، ناسين أو متناسين كفر الكافرين بتلك السلسلة الطويلة من رسل الله وأنبيائه ، على الرغم من تأييد الله لهم بالمعجزات ، وناسين أو متناسين أن جميع هؤلاء الأنبياء والمرسلين كانوا بشراً مختارين ، مما يدحض اعتراضهم على بشرية

خاتمهم ﷺ، وناسين أو متناسين أن الله - تعالى - قد أهلك المتقدمين من الكفار والمشركين، ومن الطغاة المتجبرين، فلم يعتبروا بهلاكهم حتى إذا فاجأتهم عقوبة من الله رفعوا أصواتهم بالاستغاثة والضراعة صاغرين، متذللين. . . !!

وأكدت الآيات فى سورة الأنبياء أنه لو أعرض أهل الأرض جميعًا عن طاعة خالقهم وعبادته، فإن الملائكة لا يستكبرون عن الخضوع الدائم لجلاله، ولا عن تسبيحه، وتمجيده، وحمده، ولا يملون ذلك أبدًا: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

واستشهدت سورة الأنبياء بالعديد من الآيات الكونية على عظمة الخالق - سبحانه وتعالى - فى إتقانه لصنعته، وعلى وحدانيته المطلقة فوق جميع خلقه، وعلى تنزيهه - سبحانه - عن الشريك، والشبيه، والصاحبة، والولد، وهو - تعالى - رب كل شيء ومليكه، ومن ينازعه فى سلطانه فجزاؤه جهنم وبئس المصير.

وتؤكد السورة الكريمة أن الموت حق على العباد، وأن الدنيا دار ابتلاء بالخير والشر، وأن جميع المخلوقين عائدون حتمًا إلى خالقهم.

وتواسى الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بأن جميع من سبقوه تاريخيّا من أنبياء الله ورسله قد لاقوا من كفار أقوامهم، وشراذم أممهم، وحثالات مجتمعاتهم مثل ما لاقى - ولا يزال يلاقى - من التكذيب والسخرية والاستهزاء، وقد نال السابقون من هؤلاء المكذبين نكالاً من الله فى الدنيا، ولهم فى الآخرة العذاب المقيم، وهو نفس جزاء المكذبين من بعد ذلك إلى أيامنا هذه وإلى يوم الدين، فالله - تعالى - يضع الموازين العادلة فلا تظلم نفس شيئًا. . . !!

واستعرضت سورة الأنبياء قصص عدد من هؤلاء المصطفين الأخيار، منهم موسى وهارون - عليهما السلام - وقد آتاهما الله - تعالى - التوراة نورًا وضياءً، وجعلها فارقة بين الحق والباطل، وتذكرة للمتقين: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وتؤكد الآيات أن القرآن الكريم قد جاء من نفس المشكاة، وهو كتاب مبارك، أنزله الذى أنزل التوراة من قبل، فلا ينكره إلا ضال.

وممن ذَكَّرت بهم السورة من أنبياء الله ورسله : «أبو الأنبياء إبراهيم الخليل»، ولخصت حواره مع قومه من عبدة الأوثان، ودعوته إياهم إلى التوحيد الخالص، وتنجية الله - تعالى - له من كيدهم، وبعثه وابن أخيه لوطًا إلى أرض فلسطين المباركة، ووهبه - على الكبر - ذرية صالحة، وتنجية لوط من القرية التى كانت تعمل الخبائث، والتى دمرها الله - تعالى - تدميراً.

وأضافت السورة الكريمة ذكر نوح عليه السلام وقصته مع قومه الذين كذبوه فأغرقهم الله - تعالى - ونجى نوحًا ومن آمن معه، وقصة كل من داود وسليمان، وما أكرمهما الله - تعالى - به من معجزات وكرامات، وقصة أيوب وما مسه من ضر وبلاء صبر عليه فكشفه الله - تعالى - عنه، وقصص كلّ من إسماعيل، وإدريس، وذى الكفل، الذين كانوا من أهل الإحسان والصبر، وقصة يونس - على نبينا وعليه وعلى أنبياء الله جميعًا من الله السلام - والحوت الذى التقمه، وتنجية الله - تعالى - له منه، وقصة زكريا عليه السلام وقد رزقه الله تعالى - على الكبر - ابنًا صالحًا، وقصة السيدة مريم البتول، وولادتها بمعجزة حقيقية لابنها عيسى - عليه وعليها من الله السلام - ومن هنا كانت تسمية هذه السورة المباركة باسم «سورة الأنبياء».

وبعد هذا السرد التاريخى المعجز يأتى القرار الإلهى الحاسم : ﴿ **إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** ﴾ [الأنبياء : ٩٢].

وفيه من التأكيد على وحدة الرسالة السماوية، ووحدة هذه السلسلة الطويلة من الأنبياء والمرسلين، ما يدعم صدورها عن الإله الواحد الذى خلق الخلق، واصطفى منهم الأنبياء والمرسلين، وأوحى إليهم جميعًا بدينه القويم - الإسلام - الذى أنزله على فترة من الأنبياء والمرسلين (مائة وعشرين ألف نبى، اصطفى الله - تعالى - منهم ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً) وأكمله، وأتمه وحفظه فى الرسالة الخاتمة - القرآن الكريم - المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ .

وعلى الرغم من هذه الحقيقة الواضحة وضوح الشمس فى وسط النهار فقد اختلف الناس فى أمر الدين، وأصبحوا فيه شيعًا متعارضين، والجميع راجعون إلى

الله ـ تعالى ـ ليحاسبهم، ويجازيهم على ما كانوا يعتقدون، وما كانوا يعملون.
وقد أوضح الله ـ تعالى ـ للجميع، أن الذين أهلكوا فى الدنيا لكفرهم وشركهم وطغيانهم قد أدركوا ذلك بعد هلاكهم، وتمنوا العودة مرة أخرى إلى الحياة الدنيا ليتوبوا إلى الله، ويعودوا إلى طاعته وعبادته وتوحيده ولكن هيهات لهم أن يعودوا إلا عند قيام الساعة حين يبعث الخلق أجمعون.

وتتحدث الآيات فى سورة الأنبياء عن سد يأجوج ومأجوج، وعن الإشعار بقرب فتحه، وتدافع هذا الخلق للخروج منه، وانتشارهم، فى كل فج، وتزاحمهم على النزول من كل مرتفع، متسارعين للإفساد فى الأرض، وخروجهم من العلامات الكبرى للساعة، ومن نبوءات القرآن العظيم والرسول الخاتم ﷺ باقتراب وقتها . . . . ويومئذ يُرى الكافرون والمشركون وأبصارهم شاخصة من شدة الهول والفزع، وتصف الآيات جانبًا من مشاهد هذا اليوم العصيب، وتمايز بين موقف كل من المؤمنين والكافرين فيه.

وتؤكد السورة فى أواخرها أن الرسول الخاتم والنبى الخاتم ﷺ قد أرسله الله ـ تعالى ـ رحمة للعالمين، داعيًا الناس جميعًا إلى التوحيد الخالص لله الخالق، فإن تولوا فما عليه إلا أن يقول: قد أعلمتكم جميعًا بالحق، وأنذرتكم بما توعدون، ولا أدرى أقريب هو أم بعيد، وأخبرتكم بأن الله ـ تعالى ـ هو علام الغيوب، الذى لا يخفى عليه شيء، وأنه ـ تعالى ـ سوف يجازى كلاً بعمله، ولست أدرى إن كان إمهالكم لمزيد من البقاء فى الدنيا هو ابتلاء لكم أم فتنة.

وتختتم السورة الكريمة بهذا الدعاء الكريم على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ: ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١١٢].

أى: يا رب احكم بعدلك المطلق بينى وبين هؤلاء المكذبين بالحق الذى أرسلتنى به، وأنت المستعان على ما يصفون من الكفر والتكذيب، وبهذا التفويض لله ـ تعالى ـ والاستعانة به والضراعة إليه تختتم سورة الأنبياء.

من الآيات الكونية فى سورة الأنبياء

فى مقام الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة فى الخلق، وعلى وحدانية الخالق العظيم، أشارت سورة الأنبياء إلى عدد من الآيات الكونية التى يمكن إيجازها فيما يلى :

١ - التأكيد على أن خلق السماوات والأرض قد تم بالحق، أى بنظم فائقة الدقة والانتظام.

٢ - التلميح إلى أن وحدة البناء فى الخلق تؤكد وحدانية الخالق - سبحانه وتعالى.

٣ - الإشارة إلى أن السماوات والأرض كانتا رتقًا ففتقهما الله - تعالى.

٤ - التصريح بأن الله - سبحانه وتعالى - قد جعل من الماء كل شىء حى.

٥ - الإشارة إلى أن الله - تعالى - خلق الجبال، وجعلها رواسى للأرض، وجعل فيها فجاجًا سبلاً للناس، يسلكونها ويهتدون بها.

٦ - تأكيد أن الله - تعالى - قد جعل السماء سقفًا محفوظًا.

٧ - الإشارة إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس بتتابع كلٍّ من الليل والنهار وتبادلهما، وتأكيد جرى كلٍّ من الأرض والشمس والقمر فى مداراتها بالوصف القرآنى المعجز : ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء : ٣٣].

٨ - تأكيد حقيقة أن كل نفس ذائقة الموت.

٩ - الإشارة إلى أن الإنسان خلق من عجل.

١٠ - الإشارة إلى إنقاص الأرض من أطرافها فى مجاز معجز.

١١ - الإشارة إلى حتمية طى السماء كطى السجل للكتب، والعودة بالكون إلى هيئته الأولى - رتقًا متصلاً - قبل فتقه إلى السماوات والأرض الجدد.

ومن إعجاز القرآن الكريم أن تأتى الإشارة فيه إلى كيفية خلق الكون، وإلى كيفية إفنائه فى سورة واحدة، والإشارة إلى خلق كل شىء حى بين هذين الحدين.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة مستقلة، ولذلك فسوف أقصر حديثى هنا على النقطة الرابعة فقط من هذه القائمة والتى يقول فيها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ وقبل الدخول إلى ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين فى شرح هذه الآية الكريمة .

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله ـ تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] .

* ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما مختصره : «وقوله (وجعلنا من الماء كل شىء حى) أى أصل كل الأحياء، عن أبى هريرة قال، قلت : يا رسول الله إذا رأيتك طابت نفسى وقرت عينى، فأنبئنى عن كل شىء، فقال : «**كل شىء خلق من ماء**» قال : فأنبئنى بعمل إن عملت به دخلت الجنة، قال : «**أفش السلام، وأطب الكلام، وصل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام، تدخل الجنة بسلام**»[(١)] .

* وجاء فى تفسير الجلالين ـ رحمهما الله ـ ما مختصره : « ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ ﴾ النازل من السماء والنابع من الأرض ﴿ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ نبات وغيره، أى : فالماء سبب لحياته ﴿ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ بتوحيدى؟ » .

* وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه : « فأما شطر الآية الثانى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ فيقرر كذلك حقيقة خطيرة، يعد العلماء كشفها وتقريرها أمرًا عظيمًا . . إن الماء هو مهد الحياة الأول . وهى حقيقة تثير الانتباه حقًا، وإن كان ورودها فى القرآن الكريم لا يثير العجب فى نفوسنا، ولا يزيدنا يقينًا بصدق هذا القرآن، فنحن نستمد الاعتقاد بصدقه المطلق فى كل ما يقرره من إيماننا بأنه من عند الله، لا من موافقة النظريات أو الكشوف العلمية له، ومنذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا كان القرآن الكريم يوجه أنظار الكفار إلى عجائب صنع الله فى الكون، ويستنكر ألا يؤمنوا بها وهم يرونها مبثوثة فى الوجود : أفلا يؤمنون؟ وكل ما حولهم فى الكون يقود إلى الإيمان بالخالق المدبر الحكيم» .

(١) أحمد فى «مسنده» (٢/ ٤٩٣ : حديث ١٠٣٤٩) .

* وجاء فى صفوة البيان لمعانى القرآن - رحم الله مؤلفه - ما نصه: « ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ خلقنا من الماء كل شيء حى، أى متصف بالحياة الحقيقية وهو الحيوان، أو كل شيء نام فيدخل النبات، ويراد من الحياة ما يشمل النمو. وهذا العام مخصوص بما سوىً الملائكة والجن مما هو حى».

* وذكر أصحاب المنتخب فى تفسير القرآن الكريم - جزاهم الله خيراً - ما نصه: «أعمى الذين كفروا، ولم يبصروا . . . . ، وجعلنا من الماء الذى لا حياة فيه كل شيء حى؟ ! فهل بعد كل هذا يعرضون، فلا يؤمنون بأنه لا إله إلا الله؟ !».

وجاء بالهامش هذا التعليق: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾: «تقرر هذه الآية حقيقة علمية أثبتها أكثر من فرع من فروع العلم، فقد أثبت علم الخلية أن الماء هو المكون المهم فى تركيب مادة الخلية، وهى وحدة البناء فى كل كائن حى نباتًا كان أو حيوانًا، وأثبت علم الكيمياء الحيوية أن الماء لازم لحدوث جميع التفاعلات والتحولات التى تتم داخل أجسام الأحياء، فهو إما وسط، أو عامل مساعد، أو داخل فى التفاعل، أو ناتج عنه. وأثبت علم وظائف الأعضاء أن الماء ضرورى لقيام كل عضو بوظائفه التى بدونها لا تتوافر له مظاهر الحياة ومقوماتها».

* وجاء فى صفوة التفاسير - جزى الله كاتبها خيراً - ما نصه: «﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أى جعلنا الماء أصل كل الأحياء وسببًا للحياة، فلا يعيش بدونه إنسان ولا حيوان ولا نبات ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: أفلا يصدقون بقدرة الله؟».

الماء فى اللغة العربية وفى القرآن الكريم

الماء سائل شفاف تقوم عليه الحياة، وهو فى نقائه لا لون له، ولا طعم ولا رائحة، وقد وهبه الله - تعالى - من الصفات الطبيعية والكيميائية ما يمكنه من القيام بدوره الأساسى فى أجساد كل صور الحياة.

والهمزة فى اسمه مبدلة من الهاء لأن أصله (موه) وجمعه (أمواه) فى القلة، و(مياه) فى الكثرة، وتصغيره (مويه)، والنسبة إلى (ماء) هى (مائى) أو (ماوى).

ولفظة (ماء) وردت فى القرآن الكريم ثلاثا وستين مرة، وهى لفظة تدل على الجمع والمفرد معًا ـ فتقول ماء البحر كما تقول قطرة ماء ـ وذلك لأن (ماء) اسم جنس إفرادى: قليله وكثيره سواء من مثل لفظة (زيت).

ومن هذه المرات الثلاث والستين والتى جاءت ـ فى معظمها ـ بمعنى السائل المعروف الذى يشربه كلٌّ من الإنسان والحيوان، ويروى به النبات، جاءت لفظة (ماء) فى القرآن الكريم أربع مرات بمعنى النطفة ـ أى: ماء التناسل ـ كما جاءت كلمة (ماء) تسعًا وخمسين مرة غير متصلة بضمير، وأربع مرات متصلة بضمير من الضمائر.

وهذه المرات الثلاث والستون التى جاء فيها ذكر لفظة (ماء) أو (الماء) فى كتاب الله (فى إحدى وستين آية مباركة ورد فى اثنتين منها ذكر الماء مرتين) يمكن تصنيفها فى المجموعات العشر التالية:

أولاً: آية واحدة تدل على أن عرش الله ـ تعالى ـ كان على الماء (هود: ٧)، وعرش الله ـ تعالى ـ من أمور الغيب المطلق الذى لا يستطيع العلم المكتسب أن يقول فيه شيئًا.

ثانيًا: آية واحدة تدل على أن أصل ماء الأرض كله من داخل الأرض (النازعات: ٣١).

ثالثًا: آيتان كريمتان تثبتان أن الله ـ تعالى ـ قد خلق كل شىء من الماء (الأنبياء: ٣٠)، (النور: ٤٥).

رابعًا: ثمان وعشرون آية كريمة تصف دورة الماء حول الأرض بإنزاله من السماء، وتصريف الرياح وتسخير السحاب فى تلك الدورة التى جعلها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ لتطهير ماء الأرض، ولسقيا كلٍّ من الإنسان والحيوان وإنبات مختلف أنواع النباتات وريها بانتظام (البقرة: ٢٢، ١٦٤؛ الأنعام: ٩٩؛ الأعراف: ٥٧؛ الأنفال: ١١؛ الرعد: ٤، ١٧؛ إبراهيم: ٣٢؛ الحجر: ٢٢؛ النحل: ١٠، ٦٥؛ طه: ٥٣؛ الحج: ٥، ٦٣؛ الفرقان: ٤٨؛ النمل: ٦٠؛

العنكبوت : ٦٣؛ الروم : ٢٤؛ لقمان : ١٠؛ السجدة : ٢٧؛ فاطر : ٢٧؛ فصلت : ٣٩؛ الزخرف : ١١؛ ق : ٩؛ الواقعة : ٦٩؛ المرسلات : ٢٧؛ النبأ : ١٤؛ عبس : ٢٥).

خامسًا : خمس آيات تصف خزن ماء المطر تحت سطح الأرض بتدبير من الله - سبحانه وتعالى - وتقدير حكيم منه (البقرة : ٧٤، الكهف : ٤١، المؤمنون: ١٨، الزمر : ٢١، الملك : ٣٠، وقد ذكر فيها الماء مرتين).

سادسًا : ثمانى آيات مباركات تشير إلى ماء له علاقة بأحداث تاريخية (هود : ٤٢، ٤٣، ٤٤ والقصص : ٢٣والقمر : ١١، ١٢، ٢٨ والحاقة: ١١).

سابعًا : آيتان كريمتان تشيران إلى التيمم فى غيبة وجود الماء (النساء : ٤٣، المائدة: ٦).

ثامنًا : خمس آيات مباركات تذكر الماء فى الآخرة إما فى الجنة أو فى النار (الأعراف : ٥٠، إبراهيم : ١٦، الكهف : ٢٩، محمد : ١٥ وقد أشير فيها إلى الماء مرتان، الواقعة : ٣١).

تاسعًا : خمس آيات كريمات استخدمت للتشبيه أو لضرب المثل (يونس : ٢٤، الرعد : ١٤، الكهف : ٤٥، النور : ٣٩، الجن : ١٦).

عاشرًا : أربع آيات تشير بالماء إلى النطف، أى إلى ماء التناسل (الفرقان : ٥٤، السجدة : ٨، المرسلات : ٢٠، الطارق : ٦).

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

من الدلالات العلمية التى يمكن استخلاصها من قول الحق - تبارك وتعالى - : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] ما يلى :

أولاً : أن الماء سابق فى وجوده على جميع الخلائق، فقد أثبتت دراسات علوم الأرض أن هذا الكوكب يرجع عمره إلى أكثر من ٤,٦ بليون سنة، بينما يرجع عمر أقدم أثر للحياة فى صخور الأرض إلى ٣,٨ بليون سنة، وهذا يعنى أن عملية إعداد الأرض لاستقبال الحياة استغرقت أكثر من ثمانمائة مليون سنة وربنا - تبارك وتعالى - قادر على أن يقول للشيء كن فيكون، **وإنما جاء الخلق على مراحل**

متطاولة من الزمن بهدف إعانة الإنسـان على تتبع سنن الله فى الأرض، وعلى حسن توظيفها فى عمارة الحياة؛ لأن كلاً من الزمان والمكان إذا كان من أبعاد المادة، وحدود الإنسان، فـهو من خلق الله، والمخلوق لا يحـد الخالق أبدًا ... فالله ـ تعـالى ـ فوق جميع خلقه بما فى ذلك الـمادة والطاقـة والزمان والمكان.

وخلال هذه الفترة الطويلة من إعداد الأرض لاستقبال الحياة، فجّر الله ـ تعالى ـ الأرض بالثـورات البـركـانيـة التى أخـرجت كـلاً من أغلفـة الأرض الصـخـرية، والمائيـة، والغـازية، كـمـا كـوّنت السـلاسل الجبليـة، التى اندفعت من قـاع المحيط الأولى الغـامر للأرض، وشكلت أعلى قـمة فى هذه السلاسل الجبلية ارتفعت فوق مستوى سطح الماء أول يابسة ظهرت من الغلاف الصخرى للأرض، وكـانت هى أرض مكة المكرمـة، وظلت هذه اليـابسـة فى النمـو حـتى تكونت القـارة الأم التى قسمهـا الله ـ تعالى ـ بعد ذلك بالتصدع إلى سبع قـارات بدأت تنزاح متباعدة عن بعضهـا البعض حتى وصلت إلى مـواقعهـا الحالية ولا تزال فى حركـة مستمرة إلى اليوم، وبهذا تهيأ كوكبنا ليكون محضنًا صالحًا للحياة الأرضية.

ثانيًا : أن الله ـ تعالى ـ خلق كل صـور الحيـاة الأرضـيـة البـاكـرة فى الماء؛ لأن الأوسـاط المائيـة فى بدء خلق الأرض كـانت أنسب البـيئـات لاسـتـقبـال الحيـاة، ودراسات بقـايا الحياة فى صخور الأرض تشير إلى أن الحياة المائية استمرت وحدها قرابة ٣٣٦٠ مليـون سنة (فى الفترة من ٣٨٠٠ مليون سنة مضت إلى ٤٤٠ مليون سنة مضت حين وجد أقدم بقايا للنباتات الأرضية التي نمت على اليابسة.

ثالثًا : كذلك أثبتت دراسات علوم الأرض أن خلق النبات كان دومًا سابقًا لخلق الحيوان، وأن عملية الخلق قد توجها الله ـ تعالى ـ بخلق الإنسان، وعلى ذلك فإن خلق النبـاتات البـحرية كـان سابقًا لخلق الحيـوانات البـحرية، وكـذلك خلق النبـاتات الأرضية على اليابسة كان سابقًا لخلق الحيوانات على اليابسة، وكل ذلك كـان سابقًا لخلق الإنسان وهو المخلوق الذى كرمه الله ـ سبحانه وتعالى ـ فقال عز من قائل :
﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : ٧٠].

والحكمـة من ذلك جلية، بينة واضـحة؛ لأن الإنسـان يعتمـد فى غـذائه على كلٍّ من النبات والحيوان. **ولأن كلاً من الإنسان والحيوان يعـتمد فى غذائه على النبات،**

ولأن النباتات لعبت ـ ولا تزال تلعب ـ الدور الرئيسى فى إمداد الغلاف الغازى للأرض بالأكسچين الذى بدونه ما كانت حياة أى من الإنسان أو الحيوان ممكنة...!!

يضاف إلى ذلك أن النبات الأخضر هو المصنع الربانى الذى تتخلق فيه الجزيئات العضوية اللازمة لبناء أجساد كل صور الحياة النباتية والحيوانية والإنسية، وذلك بواسطة الماء المرتفع مع العصارة الغذائية المستمدة من الأرض، وثانى أكسيد الكربون المستمد من الغلاف الغازى للأرض، والطاقة المستمدة من الشمس. وعملية التمثيل الضوئى فى النباتات الخضراء لا تتم فى غيبة الماء، الذى يتكون كل جزىء فيه من ذرتى أيدروچين، وذرة أكسچين واحدة، والنبات يستمد الماء من العصارة الغذائية التى تمتصها جذوره من تربة وصخور الأرض، ويستمد الطاقة من ضوء الشمس بواسطة الصبغة الخضراء المعروفة باسم «اليخضور»، والتى أودعها الله ـ تعالى ـ فى خلايا النبات وأعطاها القدرة على تحليل جزىء الماء إلى أيون من الأيدروچين يحمل شحنة كهربائية موجبة، وأيون آخر من الإيدروكسيد يحمل شحنة كهربائية سالبة، وباتحاد كل اثنين من أيونات الإيدروكسيد يتكون جزىء من الماء وذرة من ذرات الأكسچين الذى ينطلق إلى الغلاف الغازى للأرض لتعويض ما تستهلكه بقية الكائنات الحية من هذا الغاز الضرورى للحياة عن طريق التنفس.

وتتحد أيونات الأيدروچين الناتجة عن عملية تحلل الماء مع جزيئات ثانى أكسيد الكربون الذى يستمده النبات من الجو المحيط به ليكوّن جميع أنواع الجزيئات العضوية اللازمة لبناء الخلايا الحية، مبتدئًا بأبسطها، وهو سكر العنب (الجلوكوز) وغيره من أنواع السكر الأخرى، والنشويات (الكربوهيدرات)، منتهيًا إلى البروتينات، والزيوت، والدهون، وغير ذلك من مركبات الأحماض الأمينية، والأحماض النووية التى تكتب بها الشفرة الوراثية لكل كائن حى.

وبهذه العملية يختزن جزء من طاقة الشمس على هيئة روابط كيميائية تلعب الدور الرئيسى فيها أيونات الأيدروچين الموجودة فى الماء، بينما يستخدم الأكسچين المنطلق من الماء إلى الجو عن طريق عملية التمثيل الضوئى بواسطة بقية الكائنات الحية فى عملية التنفس، وهى عملية ينتج عنها أكسدة المواد العضوية فى الطعام (والمأخوذة أصلاً من النبات مباشرة أو بطريقة غير مباشرة عن طريق الحيوان) إلى ثانى أكسيد كربون وماء، وبذلك يسترجع الغلاف الغازى للأرض ثانى أكسيد

الكربون الذى أخذه منه النبات، كما يسترجع قدراً من طاقة الشمس التى استفاد بها النبات على شكل حرارة ناتجة عن جميع الأنشطة التى تقوم بها الكائنات الحية، أو تتركها على هيئة بقايا وفضلات تتأكسد وتعود هى الأخرى إلى الجو.

من هنا يتضح أن الماء ضرورى لبناء أجساد كل الكائنات الحية، كما أنه ضرورى لمساعدتها على الاستمرار فى القيام بمختلف نشاطاتها ومظاهرها الحيوية.

رابعًا: أن الماء أعظم مذيب يعرفه الإنسان، ولذلك يشكل الوسط المذيب للعديد من العناصر والمركبات التى يقوم بنقلها من تربة وصخور الأرض إلى مختلف أجزاء النبات، ومن الطعام إلى مختلف أجزاء جسم كل من الإنسان والحيوان. وذلك بما له من درجة عالية من اللزوجة والتوتر السطحى، وخاصية شعرية فائقة.

خامسًا : أن الماء يشكل العنصر الأساسى فى بناء أجساد جميع الكائنات الحية، فقد ثبت بالتحليل أن نسبة الماء فى جسم الإنسان تتراوح بين حوالى ٦٠٪ و٧٢٪ فى الطفل، وبين ٥٤٪ و٦٢٪ فى الإنسان البالغ، وحوالى ٩٣٪ فى الجنين ذى الأشهر المحدودة، بينما يكون الماء أكثر من ٨٠٪ من تركيب دم الإنسان، وأكثر من ٩٠٪ من أجساد العديد من النباتات والحيوانات.

سادسًا: أن جميع الأنشطة الحياتية وتفاعلاتها المتعددة من التغذية إلى الإخراج ومن النمو إلى التكاثر لا تتم فى غيبة الماء، بدءاً من التمثيل الغذائى، وتبادل المحاليل بين الخلايا وبعضها البعض، وبينها وبين المسافات الفاصلة للخلايا، وذلك بواسطة الخاصية الشعرية للمحاليل المائية التى تعمل من خلال جدر الخلايا، وانتهاء ببناء الخلايا والأنسجة الجديدة مما يعين على النمو والتكاثر، وقبل ذلك وبعده التخلص من سموم الجسم وفضلاته عن طريق مختلف صور الإفرازات والإخراجات.

هذا بالإضافة إلى ما يقوم به الماء من أدوار أساسية فى عمليات بلع الطعام، وهضمه، وتمثيله، ونقله، وتوزيعه، ونقل كلٍّ من الڤيتامينات، والهرمونات، وعناصر المناعة، ونقل الأكسچين إلى جميع أجزاء الجسم، وإخراج السموم والنفايات إلى خارج الجسم، وحفظ حرارة الجسم ورطوبته وما يقدم ذلك أو يترتب عليه من العمليات الحيوية، وعلى ذلك فلا يمكن للحياة أن تقوم بغير الماء

أبداً، فمن الكائنات الحية ما يمكنه الاستغناء كلية عن أكسچين الهواء، ولكن لا يوجد كائن حي واحد يمكنه الاستغناء عن الماء كلية، فبالإضافة إلى منافعه العديدة وفي مقدمتها أنه منظم لدرجة حرارة الجسم، بما له من سعة حرارية كبيرة، ومنظم لضغط الدم، ولدرجات الحموضة، فإن في نقصه تعطش الخلايا ويضطرب عملها، وتتيبس الأنسجة، وتتلاصق المفاصل، ويتجلط الدم ويتخثر، ويوشك الكائن الحي على الهلاك. ولذلك فإن أعراض نقص الماء بالجسم الحي خطيرة للغاية، فإذا فقد الإنسان على سبيل المثال ١٪ من ماء جسده أحس بالظمأ، وإذا ارتفعت نسبة فقد الماء إلى ٥٪ جف حلقه ولسانه، وصعب نطقه، وتغضن جلده، وأصيب بانهيار تام، فإذا زادت النسبة المفقودة على ١٠٪ أشرف الإنسان على الهلاك بالموت.

وفي المقابل فإن الزيادة في نسبة الماء بجسم الكائن الحي عن القدر المناسب له قد تقتله، فالزيادة في نسبة الماء بجسم الإنسان قد تسبب الغثيان، والضعف العام وتنتهي بالغيبوبة التي تفضي إلى الموت.

سابعًا: يغطي الماء في زماننا الراهن حوالي ٧١٪ من مساحة سطح الأرض المقدرة بنحو ٥١٠ ملايين كيلومتر مربع، بينما تشغل مساحة اليابسة حوالي ٢٩٪ من تلك المساحة. والأرض هي أغنى كواكب المجموعة الشمسية بالماء الذي تقدر كميته على السطح بحوالي ٤ , ١ بليون كيلومتر مكعب، بالإضافة إلى مخزون يقدر بمئات أضعاف هذا الرقم في نطاق الضعف الأرضي، يخرجه لنا ربنا - تبارك وتعالى - بقدر معلوم مع ثورات البراكين.

ويتوزع أغلب الماء على سطح الأرض (حوالي ٢٢ , ٩٧٪) في البحار والمحيطات التي تغطي مساحة تزيد على ٣٦٢ مليون كيلومتر مربع، بمتوسط عمق يقدر بحوالي ٣٨٠٠ متر مما يعطي لبحار ومحيطات الأرض حجمًا يزيد قليلاً على ١٣٧٥ مليون كيلومتر مكعب من الماء المالح.

هذا بالإضافة إلى كم من الجليد يغطي قطبي الأرض، وقمم الجبال بسمك يصل إلى أربعة كيلومترات في القطب الجنوبي وإلى ٣٨٠٠ متر في القطب الشمالي، ويمثل كم الماء في هذا الغطاء الجليدي حوالي (١٥ , ٢٪) من مجموع الماء على سطح الأرض، والنسبة الباقية وتقدر بحوالي (٦٣ , ٠٪) من مجموع ماء الأرض يمثل

أغلبها بالمخزون المائى فى صخور قشرة الأرض ما نسبته (٦١٣ , ٠٪) ويمثل الباقى (وتقدر نسبته بحوالى ٠١٧ , ٠٪) بمخزون البحيرات الداخلية، وكم الماء الجارى فى الأنهار والجداول، ورطوبة كل من الجو والتربة، التى تعين الأرض على الإنبات، وتلعب دورًا مهمًا فى تكوين السحب التى تدفع عن الأرض جزءًا كبيرًا من حرارة وأشعات الشمس بالنهار، كما ترد إلى الأرض معظم الدفء الذى تشعه صخورها إلى الجو بمجرد غياب الشمس.

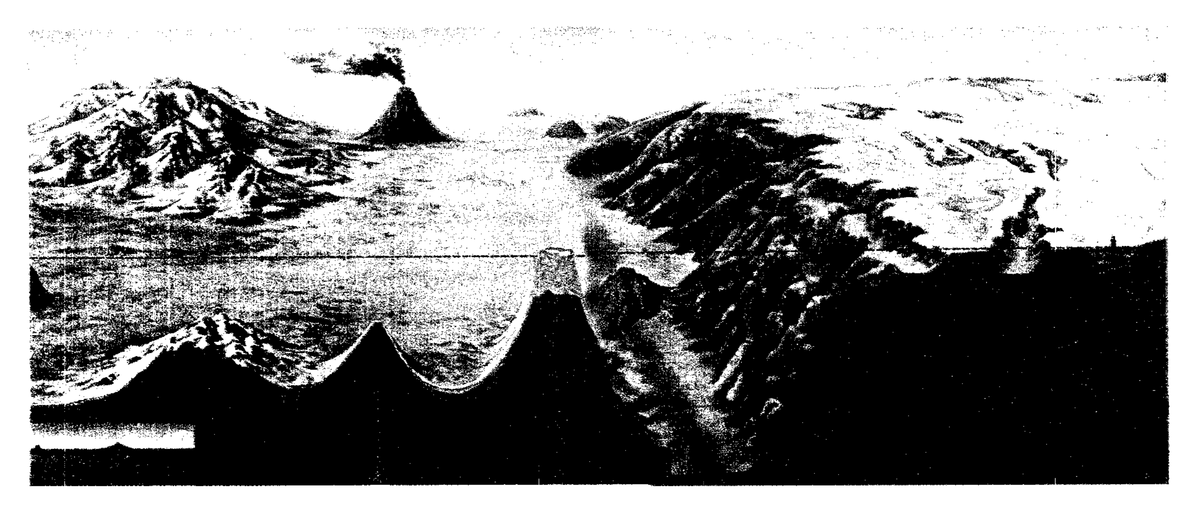
وهذا التوزيع المعجز للماء على سطح الأرض لعب - ولا يزال يلعب - دورًا أساسيا فى تهيئة مناخ الأرض لاستقبال الحياة، فلولا هذه المساحات المائية والجليدية الشاسعة لاستحالت الحياة التى نعرفها على سطح الأرض؛ لأن درجة حرارة نطاق المناخ كان من الممكن أن تصل إلى أكثر من مائة درجة مئوية بالنهار، وأن تنخفض إلى ما دون المائة درجة تحت الصفر المئوى بالليل، وهو تباين لا تقوى عليه كل صور الحياة المعروفة لنا، ولكن شاءت إرادة الله ورحمته أن تحمينا من هذه المخاطر بواسطة الغلاف المائى للأرض الذى ينظم درجة حرارتها، وحرارة الهواء المحيط بها فى نطاق المناخ، وذلك بتكرار عمليات التبخير بكميات كبيرة من الماء (تقدر سنويًا بحوالى ٠٠٠ , ٣٨٠ كيلومتر مكعب)، وتكثيف هذا الكم الهائل من بخار الماء على هيئات السحاب والضباب والندى، وإنزاله إلى الأرض على هيئة المطر، والثلج والبرد، وما يصاحب ذلك من رعد وبرق، وما ينزل معهما من مركبات النيتروچين وغيره من العناصر التى تثرى تربة الأرض بما يحتاجه النبات من مركبات، وما يصاحب كل ذلك من إحياء للأرض بعد موتها، بتقدير من الخالق البارئ المصور ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ٢ - ٣].

ثامنًا: الماء يساعد على حفظ درجات الحرارة فى البحار والمحيطات فى الحدود التى تعين الحياة البحرية على النشاط، وذلك باختلاط التيارات البحرية الدافئة والباردة، وبامتصاص جزء كبير من أشعة الشمس وبما تنتجه الأحياء البحرية من حرارة نتيجة لمختلف أنشطتها الحيوية، والعمل على إعادة توزيعها، وكذلك توزيع الحرارة الناتجة عن ثورات البراكين فوق قيعان كل محيطات الأرض، وقيعان أعداد من بحارها، وقبل ذلك وبعده وقاية الأحياء البحرية من مختلف التقلبات الجوية خاصة عندما تنخفض درجات الحرارة إلى ما دون الصفر المئوى، وهنا يلحظ كل

عاقل دور القدرة الإلهية المبدعة فى الخلق والتى أعطت الماء عدداً من الخصائص الفيزيائية والكيميائية التى لا تتوافر لغيره من العناصر ومركباتها، وأبرزها قلة كثافة الماء عند تجمده مما يضطره إلى الطفو على سطح مياه البحار والمحيطات فى المناطق الباردة والمتجمدة بدلاً من الغوص إلى قيعانها والقضاء على مختلف صور الحياة فيها، ويقوم الجليد الطافى على سطح الماء بدور العازل بين درجات حرارة الهواء الشديد البرودة من فوقه، والماء الدافئ نسبيًّا من تحته وما فيه من حياة زاخرة.

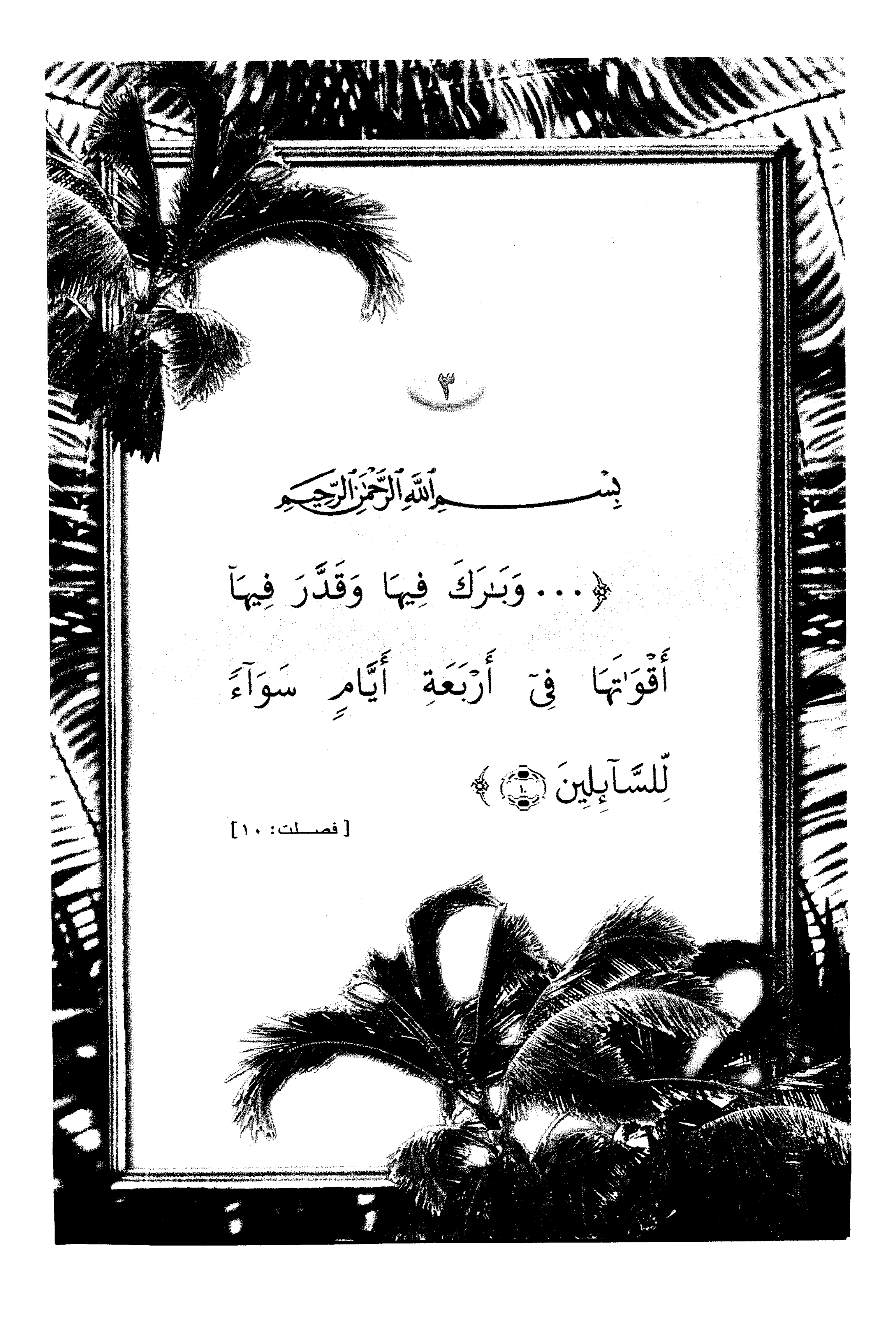
هذا قليل من كثير مما حبا الله ـ تعالى ـ به الماء من صفات طبيعية وكيميائية فريدة، من أهمها قدرته الفائقة على إذابة أعداد كبيرة من المواد الصلبة والسائلة والغازية، وبناؤه الجزيئى ذو القطبية المزدوجة والمقاوم للتحلل والتأين، ودرجتا التجمد والغليان المتميزتان، والحرارة النوعية المرتفعة، والحرارة الكامنة العالية، واللزوجة والتوتر السطحى الفائقان، وقلة كثافته عند التجمد، وقدرته الكبيرة على الأكسدة والاختزال، وعلى التفاعل مع العديد من المركبات الكيميائية، وعلى تصدع التربة وشقها لمساعدتها على الإنبات،وبذلك هيأه الله ـ سبحانه وتعالى ـ للقيام بدوره الرئيسى فى أجساد كل أنواع الحياة النباتية والحيوانية والإنسانية مما يعتبر معجزة كبرى من معجزات الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ الذى أنزل فى محكم كتابه من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق : ﴿ ... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾
وجاء ذلك مباشرة بعد تقرير خلق السماوات والأرض بعملية فتق الرتق وهى من أعظم معجزات الخالق ـ سبحانه ـ فى إبداعه للكون. والخطاب فى مطلع الآية الكريمة موجه للذين كفروا، ولذلك ختمت بهذا الاستفهام التقريرى، التقريعى، التوبيخى: ﴿أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ ؟.

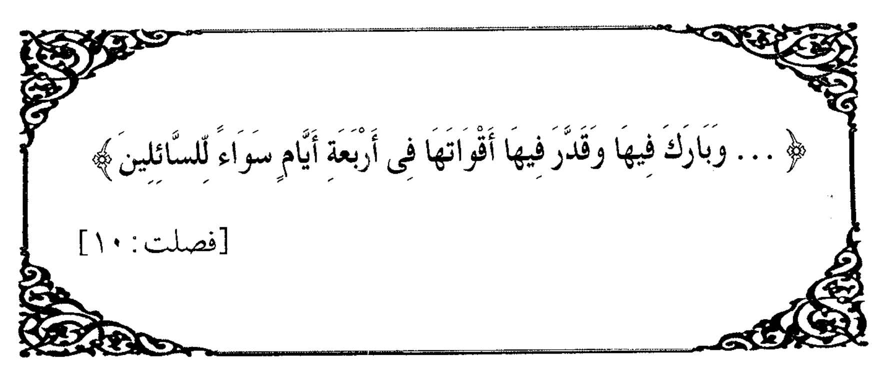
وهذه حقائق لم يصل إليها علم الإنسان إلا فى منتصف القرن العشرين، وورودها فى كتاب الله بهذه الدقة العلمية المبهرة، والإيجاز المعجز، مع الشمول والإحاطة لمما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة والرسالة للنبى والرسول الخاتم الذى تلقاه، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.





رسم تخطيطى لبعض أنواع النباتات الأرضية الأولية التى خلقت على
سطح اليابسة لأول مرة مع بدايات العصر السيليورى (فى الفترة من ٤٤٠
مليون سنة مضت إلى ٤١٠ مليون سنة مضت).


٣
بسم الله الرحمن الرحيم
﴿... وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ
أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً
لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾
[فصلت: ١٠]



هذا النص القرآنى المعجز جاء فى الخمس الأول من سورة فصلت، وهى سورة مكية، وآياتها أربع وخمسون بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لوصفها القرآن الكريم فى مطلعها بأنه كتاب فصلت آياته - أى ميزت لفظًا ومعنى - لتناولها كلام الله وهدايته إلى الثقلين بأسلوب معجز فى بيانه، ونظمه، وبلاغته، ومحتواه مشتملاً قضايا الدين بركائزه الأربع الأساسية : العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات . . وهذه القضايا هى إما من صميم الغيب المطلق الذى لا سبيل للإنسان فى الوصول إليه إلا ببيان من الله - تعالى - بيانًا ربانيًا خالصًا لا يداخله أدنى قدر من التصورات البشرية كقضايا العقيدة، أو هى أوامر ربانية خالصة لا يصح للبشر أن يتدخلوا فيها كقضايا العبادة، والله - تعالى - يحب أن يعبد بما أمر، أو هى ضوابط للسلوك والمعاملات، والإنسان كان عاجزًا دومًا عن أن يضع لنفسه بنفسه ضوابط لسلوكه وتشريعات لمعاملاته، ومن هنا كان تميز القرآن الكريم فوق غيره من الكتب، ومن ثم تميز هذه السورة المباركة التى نحن بصددها، وتميز الإسلام العظيم فوق غيره من الأديان .

عرض موجز لسورة فصلت

تبدأ سورة فصلت بالحرفين المقطعين «حم»، ولذا تسمى أحيانا باسم حم السجدة؛ لأن بها سجدة تلاوة واحدة . والحروف المقطعة التى افتتحت بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم، والتى تضم نصف أسماء حروف الهجاء الثمانية والعشرين، تعتبر سرًا من أسرار القرآن الكريم التى لا يعلمها إلا الله - تعالى، وإن حاول بعض المفسرين التعرض لشرح دلالات لها .

وبعد هذا الاستفتاح تحدثت السورة المباركة عن الوحى بالقرآن الكريم الذى تصفه بقول الحق ـ تبارك وتعالى :

﴿حمٓ ① تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ② كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت : ١ ـ ٤].

وتؤكد السورة الكريمة هذه الحقيقة فى مقام آخر منها يقول فيه الحق ـ تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ... ﴾ [فصلت : ٤٤].

وتشير سورة فصلت إلى كتاب الله فى عدد آخر من آياتها، مؤكدة أنه كلام الله الخالق، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وتشير إلى كتاب موسى عليه السلام واختلاف قومه فيه، وتلفت النظر إلى أن القرآن الكريم هو للذين آمنوا هدى وشفاء، وهو فى آذان الذين لا يؤمنون به وقر وهو عليهم عمى...!!!

وتتحدث السورة عن مواقف المعرضين عن كتاب الله، وعن انغلاق قلوبهم دون هدايته، ورفض أسماعهم للحق الذى جاء به، وعجز طبائعهم عن موافقة دعوته إلى توحيد الله ـ الخالق ـ والاستقامة على أوامره، واجتناب نواهيه، والانصياع لتحذيره المتكرر من أخطار الوقوع فى الكفر بالله ـ تعالى ـ، أو الشرك به، أو منع شرائعه أن تقام.

وقارنت السورة الكريمة بين الموقف الجاحد لهؤلاء الكفار والمشركين وما سوف ينالهم يوم القيامة من الويل والثبور، وبين موقف المؤمنين الذين سوف يعطيهم ربهم أجرًا غير ممنون.

وفى محاجة ملجمة للكافرين، استشهدت سورة فصلت على وجود الله ـ تعالى ـ وعلى ألوهيته، وربوبيته، ووحدانيته، وعلى طلاقة قدرته بخلق الأرض فى يومين ـ أى على مرحلتين ـ، وبخلق الجبال، ومباركة الأرض، وتقدير أقواتها فى أربعة أيام ـ أى أربع مراحل ـ من أجل تهيئتها للعمران، والمرحلتان الأوليان داخلتان فى المراحل الأربع التالية، أو فى المرحلتين التاليتين اللتين أتم الله ـ تعالى ـ فيهما بناء الكون، وجعل السماوات سبعًا، وزين السماء الدنيا منها بالنجوم

وحفظها بها ؛ وذلك لأن خلق السماوات قد تم فى نفس الوقت الذى تم فيه خلق الأرض، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك تعالى - : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فصلت: ٩ - ١٢]. .

وبعد استعراض هذه الآيات الكونية المبهرة، تنذر السورة جميع المعرضين عن دين الله، والكافرين به بعقاب من مثل عقاب أقوام عاد وثمود، وعقاب أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس، وفصلت السورة شيئًا مما حدث لكل منهم، وكيف نجّى الله المتقين من بينهم.

واستشهدت السورة الكريمة ببعض مشاهد العذاب فى الآخرة، ومن أخطرها أن الله - تعالى - سوف يُنطق سمع، وأبصار، وجلود العصاة من عباد الله، لتشهد عليهم بما كانوا يعملون، وتشير السورة إلى ما سوف يدور من حوار بين هؤلاء الخاطئين وجوارحهم التى تشهد على جرائمهم، وفى ذلك يقول الحق - عز من قائل:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [فصلت: ٢٠ - ٢١].

وتحذر السورة الكريمة الكافرين من الجحود بآيات الله، والانصراف عن الاستماع إلى القرآن الكريم، ومحاولة اللغو فيه إذا قرئ عليهم، وتهددهم بعذاب شديد، يوقفهم موقف الندم والاعتذار، ساعة لا ينفع الندم ولا يجدى الاعتذار فتقول:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦ - ٢٧].

وتتحدث سورة فصلت عن شيء من مبشرات المؤمنين الذين آمنوا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبسيدنا محمد ﷺ نبيًا ورسولاً، واستقاموا على منهج الله، بتنزل الملائكة عليهم فى الدنيا وفى الآخرة، وفى لحظات الموت وسكراته، وحشرجة الصدر وضيقه، مطمئنة إياهم برضا الله - سبحانه وتعالى - عنهم وغفرانه لهم، ورحمته بهم، وبالنعيم الذى ينتظرهم فتقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾

[فصلت: ٣٠ - ٣٢].

وتقارن السورة بين طيب حال المؤمنين فى الدنيا والآخرة، وسوء حال الكافرين والمشركين فى الدارين، وتتحدث عن شيء من أخلاق الدعاة إلى الله، وأساليبهم فى الدعوة إليه، وتمايز بين الخير والشر، وبين الحسنة والسيئة، وفى ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾

[فصلت: ٣٣ - ٣٥].

وتُثَبِّتُ الآيات رسول الله ﷺ بحقيقة أن ما يقال له من الكافرين والمشركين قد قيل للرسل من قبله؛ وأن الله - تعالى - الذى هو صاحب المغفرة، هو فى الوقت نفسه ذو عقاب أليم. وتؤكد السورة أن من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها... وأن الله - تعالى - ليس بظلاَّم للعبيد، فهو أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأنه - تعالى - يرد إليه علم الساعة، وعلم كل شيء...!!!

وتنتهى السورة إلى الحديث عن شيء من طبائع النفس الإنسانية، وتختتم بهذا الوعد الإلهى القاطع بأن الله - تعالى - سوف يكشف للإنسان - فى مستقبل يأتى بعد

زمن الوحى - من الحقائق العلمية فى آفاق الكون وفى داخل النفس الإنسانية والجسد البشرى، ما يؤكد صدق كل ما جاء فى كتاب الله من الإشارات إلى الكون ومكوناته وظواهره، وإلى كل ما يتعلق بالإنسان ومراحل خلقه، وبناء جسده، وحديث نفسه، وإذا ثبت سبق القرآن بالإشارة إلى تلك الحقائق من قبل أن تصل إلى علم الإنسان بعدد متطاول من القرون، وثبت صدق القرآن الكريم فى الإشارة إليها بقدر من الدقة والشمول والإحاطة التى لم يصل إليها علم الإنسان بعد فى زمن التقدم العلمى والتقنى المذهل الذى نعيشه . . . إذا ثبت كل ذلك أصبحت تلك الإشارات الكونية والإنسانية فى كتاب الله من أعظم الآيات الدالة على أنه الحق، والدالة على صدق حديثه عن الغيب، وعن الدين بركائزه الأساسية، وصدق إخباره عن الأمم السابقة، وعن البعث والحساب والميزان والصراط والجنة والنار، وكان الشك فى إمكان البعث هو أحد الحجج الرئيسية لكفر الكافرين، وإعراضهم عن الإيمان بدين الله القويم، ولذلك تختتم السورة بقول الحق - تبارك وتعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾

[فصلت : ٥٣ - ٥٤] .

من الآيات الكونية فى « سورة فصلت »

من الآيات الكونية التى استشهدت بها السورة الكريمة على طلاقة القدرة الإلهية :

خلق الأرض فى يومين - أى على مرحلتين - ، وخلق الجبال، ومباركة الأرض بتهيئتها للعمران، وتقدير أقواتها فيها فى أربعة أيام - أى أربع مراحل - وإتمام بناء الكون، وجعل السماوات سبعًا، والأرضين سبعًا، وتزيين السماء الدنيا بالنجوم، وجعلها حفظًا لها، وتبادل كلّ من الليل والنهار، وحركة كلّ من الشمس والقمر، واهتزاز الأرض وربوها - أى انتفاخها وارتفاعها إلى أعلى - عند إنزال الماء عليها، ودلالة ذلك الإحياء للأرض على إمكان البعث وإحياء الموتى .

وكل واحدة من هذه القضايا لا يوفيها حقها مقال منفصل، ولذا فإننى سوف أقتصر هنا على قضية واحدة منها ألا وهى قضية تقدير الأقوات فى الأرض على أربع مراحل متتالية، وقبل الدخول فى هذا الموضوع لا بد من التعرض للدلالة اللغوية لألفاظ الآية الكريمة ولأقوال عدد من المفسرين فيها .

الدلالة اللغوية لألفاظ الآية الكريمة

(١) (**بارك**): (البركة) هى ثبوت الخير الإلهى فى الشىء بنمائه وزيادته بغير أسباب مدركة؛ و (المبارك) هو ما فيه ذلك الخير، ولما كان الخير الإلهى يصدر من حيث لا يُحَسُّ، وعلى وجه لا يُحْصَى، ولا يُحْصَر، قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة: إنه (مبارك)، وأن فيه (بركة)؛ و (بارك) الشىء أى أودع فيه الخير الإلهى؛ ويقال: (بارك) الله لك، وفيك، وعليك، و (باركك) أى أودع خيره فيك؛ و(تبارك) الله أى اختص تعالى بكل خير؛ ويقال: (تبرك) بالشىء أو بالفرد من البشر أى تيمن به .

(٢) (**قَدَّر**): يقال فى العربية (قَدَّر) أو (قَدَرَ) الشىء (يقدره) (تقديرًا) أى حدد كميته؛ و (القدر) كمية الشىء أو مبلغه، و (مقدار) الشىء للشىء المقدر له أو به وقتًا كان أو زمنًا أو كيلاً هو كميته؛ يقال: (قدرته) و (قدرته). ويقال: (قَدَّره) أى أعطاه (القدرة) وذلك مثل قولك: (قَدَّرنى) الله على كذا أى قوانى عليه؛ و(تقدير) الله الأشياء على وجهين: أحدهما بإعطاء القدرة، وذلك مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿**فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ**﴾ [المرسلات: ٢٣]، والثانى بأن يجعلها على مقدار مخصوص، ووجه مخصوص حسبما اقتضت الحكمة؛ وذلك مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿**قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾ [الطلاق: ٣]. وقوله: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر: ٤٩]، وقوله: ﴿**وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ**﴾ [المزمل: ٢٠]، وقوله: ﴿**مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ**﴾ [عبس: ١٩]، وقوله: ﴿**وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ**﴾ [الأعلى: ٣].

و (التقدير) من الإنسان على وجهين أحدهما: التفكير فى الأمر بحسب نظر العقل وبناء الأمر عليه وذلك محمود؛ والثانى: أن يكون بحسب التمنى والشهوة

وذلك مذموم يقول فيه الحق - تبارك وتعالى - : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ [المدثر : ١٨ - ١٩].

(٣) **(أقوات)** : (القوت) هو كل ما (يُقْتَاتُ) به أو ما يمسك الرمق : أى ما يقوم به بدن الإنسان - وغيره من الكائنات الحية - من الطعام، وجمعه (أقوات) وفعله (قات) أو (قوت) فيقال : (قاته) (يقوته) (قوتا) أى أطعمه قوته، أو (أقاته) (يقيته) (قوتًا) أى جعل له ما يقوته، أو (استقاته) (يستقيته) (استقاتة) أى سأله (القوت) ويقال : (قُتُّهُ) (فاقتات)؛ وهو (يَتَقَوَّتُ) بكذا أو (يقتات) على كذا.

كذلك يقال : (أقات) على الشىء اقتدر عليه ؛ و (المقيت) هو القائم على الشىء يحفظه ويقيته، وقد يقصد به المقتدر والحافظ والشاهد، و (المقيت) من أسماء الله الحسنى ومن معانيه خالق الأقوات وموزعها على الخلائق.

(٤) **(أيام)** : (اليوم) فى العربية وجمعه (أيام) الفترة من طلوع الشمس إلى غروبها أو ما يعبر عنه بالنهار وهو فترة النور بين ليلين متتاليين أو قد يعبر بلفظة (اليوم) عن فترتى النهار والليل معًا وهو ما يعرف باليوم الكامل، أو بيوم الأرض الشمسى، ويمثل الفترة التى تتم فيها الأرض دورة كاملة حول محورها أمام الشمس، ويعبر عنها بالفترة الزمنية بين شروقين متتاليين أو بين غروبين متتاليين للشمس ويساوى - فى زماننا - أربعًا وعشرين ساعة كاملة.

ويقال فى العربية : (من أول يوم) أى من أول أيام تاريخ محدد، وقد يعبر بلفظ (اليوم) عن يوم محدد فى السنة أو فى الشهر أو فى الأسبوع، وقد يعبر به عن الشدة التى يمر بها الفرد أو الجماعة من الناس وذلك مثل قولهم : (يوم كيوم عاد) أو (يوم) من (أيام) الدهر، وقد يعبر به عن واقعة محددة فى التاريخ (كيوم الفتح)، أو أيام الآخرة، أو أيام الله التى لا يعرف مداها إلا هو - سبحانه وتعالى - وقد يعبر (باليوم) عن مدة من الزمان أيّا كان طولها، أو عن فترة من الفترات أو مرحلة من المراحل، بغض النظر عن الزمن الذى استغرقته.

وقد استخدمت لفظة (يوم) فى القرآن الكريم بهذه المعانى كلها.

(٥) (سواء) : أى يعدل فى الحكم بين الفرقاء، (فالسِّواء) العدل، وفعله (سوى) (يسوى) (تسوية) و (سواء) أى عدلاً، و(ساوى) (يساوى) (تسوية) أى عادل؛ وتسوية الشىء جعله سواء، فالمساواة هى المعادلة المعتبرة فى كل شىء، أو يقال : قسم الشىء بينهما بالسوية أى بالعدل، و (سوى) و (سواء) الشىء وسطه أو غيره؛ وتأتى بمعنى العدل، (كما تأتى بالفتح والكسر والضم للسين ؛ فإذا ضممت السين أو كسرتها قصرت، وإذا فتحتها مددت) ؛ يقال : مكانا (سُوى) و(سِوى) و(سواء) أى عدل ووسط ؛ و (سُواك) و(سِواك) و(سَوَائك) أى غَيرك.

يقال : هما فى الأمر (سواء) أو (سواءان)، وهم (سواء) أو (أسواء) أو (سواسية).

ويقال : (استوى) الشىء بمعنى اعتدل والاسم (السواء) ؛ و (السِّىُّ) و(السَّوِىُّ) صفة لكل ما يصان من الإفراط والتفريط من حيث القدر والكيفية وجمعه (أسواء).

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله ـ تعالى :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [فصلت : ٩ـ ١٠].

* ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما مختصره : «هذا إنكار من الله ـ تعالى ـ على المشركين الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شىء، المقتدر على كل شىء **﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ﴾** . . أى نظراء وأمثالاً تعبدونها معه ، **﴿ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾** أى الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم، وهذا المكان فيه تفصيل لقوله، تعالى : **﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾** [الاعراف : ٥٤] ففصل ههنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولاً لأنها كالأساس، والأصل أن يبدأ بالأساس، ثم بعده بالسقف،

كما قال عز وجل : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة : ٢٩] الآية، فأما قوله، تعالى : ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ إلى قوله : ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾، ففي هذه الآية أن دحو الأرض كان بعد خلق السماء، فالدحو مفسر بقوله : ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ وكان هذا بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص. . . ، وخلق الأرض فى يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن فى يومين آخرين، ثم دحا الأرض ؛ ودحوها أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام، وما بينها فى يومين آخرين، فذلك قوله تعالى : ﴿دَحَاهَا﴾ ، وقوله : ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ﴾ فخلق الأرض وما فيها من شىء فى أربعة أيام وخلق السماوات فى يومين».

* وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ رحمهما الله ـ ما نصه : «﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ﴾ بتحقيق الهمزة الثانية، وتسهيلها، وإدخال ألف بينها ـ بوجهيها ـ وبين الأولى، وتركه ﴿لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾. . و﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ شركاء ﴿ذَلِكَ رَبُّ﴾ مالك ﴿الْعَالَمِينَ﴾ جمع عالم وهو ما سوى الله، وجمع لاختلاف أنواعه بالياء والنون وتغليبا للعقلاء».

«﴿وَجَعَلَ﴾ مستأنف ولا يجوز عطفه على صلة ـ الذى ـ للفاصل الأجنبى ﴿فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالا ثوابت تثبتها ﴿مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ بكثرة المياه والزروع والضروع ﴿وَقَدَّرَ﴾ قَسَمَ ﴿فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ للناس والبهائم فى تمام ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أى الجعل وما ذكر معه. . ﴿سَوَاءً﴾ منصوب على المصدر أى استوت الأيام الأربعة استواء لا تزيد ولا تنقص ﴿لِّلسَّائِلِينَ﴾ عن خلق الأرض بما فيها».

وجاء فى التعليق بالهامش ما يلى :

«قوله ـ تعالى : ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ ، ثم قوله بعد ذلك : ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ ثم قوله : ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ، هذا تفصيل لمثل قوله تعالى فى سورة (ق) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أى : تعب

وإعياء، فتم خلق الأرض وتقدير أقواتها فى مقدار أربعة أيام، وتم خلق السماوات فى مقدار يومين، كل ذلك بلا ترتيب زمنى؛ لأن (ثم) فى مثل قوله ـ تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ لا تفيد فى حق الله ـ تعالى ـ ترتيبًا زمنيًا؛ لأنه ـ تعالى ـ لا يجرى عليه زمان، فكان خلق السماوات والأرض وما بينهما فى مقدار ستة أيام من غير تحديد ولا تعيين على الصحيح».

* وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه : «إنه يذكر حقيقة خلق الأرض فى يومين، ثم يعقب عليها قبل عرض بقية قصة الأرض، يعقب على الحلقة الأولى من قصة الأرض، ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ . . وأنتم تكفرون به وتجعلون له أندادًا، وهو خلق هذه الأرض التى أنتم عليها، فأى تبجح وأى استهتار وأى فعل قبيح؟!»

«وما هذه الأيام : الاثنان اللذان خلق فيهما الأرض ، والاثنان اللذان جعل فيهما الرواسى وقدر فيهما الأقوات، وأحل فيها البركة، فتمت بهما الأيام الأربعة؟»

«إنها بلا شك أيام من أيام الله التى يعلم هو مداها، وليست من أيام هذه الأرض. . والأيام التى خلقت فيها الأرض أولاً، ثم تكونت فيها الجبال، وقدرت فيها الأقوات، هى أيام أخرى، مقيسة بمقياس آخر، لا نعلمه، ولكننا نعرف أنه أطول بكثير من أيام الأرض المعروفة».

«وأقرب ما نستطيع تصوره وفق ما وصل إليه علمنا البشرى أنها هى الأزمان التى مرت بها الأرض طوراً بعد طور، حتى استقرت وصلبت قشرتها وأصبحت صالحة للحياة التى نعلمها. . . . ».

«و﴿بَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ . . وقد كانت هذه الفقرة تنقل إلى أذهان أسلافنا صورة الزرع النامى فى هذه الأرض وبعض ما خبأه الله فى جوف الأرض من معادن نافعة كالذهب والفضة والحديد وما إليها. . فأما اليوم بعدما كشف الله للإنسان أشياء كثيرة من بركته فى الأرض ومن أقواتها التى خزنها فيها على أزمان طويلة، فإن مدلول هذه الفقرة يتضاعف فى أذهاننا».

* وجاء فى صفوة البيان لمعانى القرآن ـ على كاتبه من الله الرضوان ـ ما نصه : « ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ أى أوجدها فى مقدار يومين من أيام الدنيا . وقيل : اليوم منهما كألف سنة من أيامنا » .

«والآية تنديد بالمشركين ، لتماديهم فى الشرك مع ظهور الدلائل الموجبة للإيمان بوحدانيته ـ تعالى ـ وكمال قدرته . ﴿ أَندَادًا ﴾ أمثالاً من مخلوقاته تعبدونها . ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالاً ثوابت ﴿ مِن فَوْقِهَا ﴾ لئلا تميد وتضطرب ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا ﴾ جعلها مباركة قابلة للخير ، كالإنبات وإخراج ما ينفع الناس . ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ جعل أقوات أهلها التى يحتاجون إليها فى معايشهم على مقادير معينة ، بحيث جعل فى كل قطر ما يناسب أهله ؛ ليكون الناس محتاجًا بعضهم إلى بعض فيما يرتفقون به . وهو سبب عمارة الأرض ونظام العالم . ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ أى خلق ما فى الأرض فى تمام أربعة أيام ﴿ سَوَاءً ﴾ مستوية كاملة . مصدر مؤكد لمضمر هو صفة لـ ﴿ أَيَّامٍ ﴾ ، أى استوت سواء أى استواء ، وقيدت به لدفع توهم التجوز بإطلاقها على ما دونها بقليل ﴿ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ أى قدر فيها أقواتها لأجل الطالبين لها ، المحتاجين إليها من المقتاتين . فمدة خلق كلٍّ من الأرض وما فيها مقدار يومين . وتمام المدتين أربعة أيام كاملة» .

* وذكر أصحاب المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه : «قل ـ أيها الرسول ـ لهؤلاء المشركين : عجبًا لكم ! تكفرون بالله الذى خلق الأرض فى يومين ، وأنتم ـ مع هذا ـ تجعلون له شركاء متساوين معه ، ذلك الخالق للأرض مالك العوالم كلها ومربيهم . وجعل فى الأرض جبالاً ثابتة من فوقها لئلا تميد بكم ، وأكثر فيها الخير وقدر فيها أرزاق أهلها ، حسبما تقتضيه حكمته ، كل ذلك فى يومين ، وأنتم ـ مع هذا ـ تجعلون له شركاء ، وقدر كل شىء لا نقص فيه ولا زيادة ، هذا التفصيل فى خلق الأرض وما عليها بيان للسائلين» .

وجاء فى التعليق الهامشى ما يلى : «وحدات الزمن التى يستخدمها الناس مرتبطة بالأرض ودورانها حول محورها وحول الشمس ، فإذا ما غادر أحد الأرض إلى جرم سماوى اختلفت هذه الوحدات طولاً أو قصراً . والآيات الكريمة تشير إلى هذه الحقيقة وإلى أن الزمن نسبى . .

* وذكر صاحب صفوة التفاسير - جزاه الله خيراً - ما نصه : «﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتعجب أى كيف تكفرون بالله وهو الإله العلى الشأن القادر على كل شيء، خالق الأرض فى يومين؟ ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ﴾ أى تجعلون له شركاء وأمثالاً تعبدونها معه ﴿ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى ذلك الخالق المبدع هو رب العالمين كلهم. . ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا ﴾ أى جعل فى الأرض جبالاً ثوابت لئلا تميد بالبشر ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا ﴾ أى أكثر خيرها بما جعل فيها من المياه والزروع والضروع ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ أى قدر أرزاق أهلها ومعاشهم. قال مجاهد : خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ أى فى تمام أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها».

أيام الخلق الستة فى منظور العلوم الكونية

يرى أهل العلوم المكتسبة مراحل خلق الكون الست حسب الترتيب التالى والله - تعالى - أعلم بخلقه :

(١) مرحلة الرتق : وهى مرحلة الجرم الأولى الذى بدأ منه خلق السماوات والأرض، ويعتقد علماء الفلك والفيزياء الفلكية أن عمره يرجع إلى حوالى الأربعة عشر بليونًا من السنين.

(٢) مرحلة الفتق (مرحلة الدخان) : وهى مرحلة انفجار الجرم الأولى وتحوله إلى سحابة من الغاز المكون من اللبنات الأولية للمادة، ويعتقد علماء الفلك والفيزياء الفلكية أن هذا الحدث قد استغرق حوالى الأربعمائة ألف سنة بعد عملية الانفجار العظيم، وهى مرحلة تخلق العناصر فى السماء الغازية عبر تكون نويات غازى الهيدروچين والهيليوم وبعض نويات الليثيوم، كما يعتقدون أن أول النجوم تكون بعد حوالى الثلاثمائة مليون سنة بعد عملية الانفجار العظيم وأن أول المجرات تكون بعد بليون سنة تقريبًا، تلى ذلك مرحلة تخلق كل من الأرض وباقى أجرام السماء بانفصال دوامات من السحابة الدخانية الأولى وتكثفها على ذاتها بفعل الجاذبية.

(٣) **مرحلة الدحو**: أي مرحلة دحو الأرض وتكوين أغلفتها الغازية والمائية والصخرية وذلك بإنزال الحديد عليها، واندفاعه إلى جوفها وانصهاره وانصهار مادة الأرض الأولية، وتمايزها إلى سبع أرضين، أولها، الغلاف الصخرى للأرض، ثم تصدع ذلك الغلاف وبدء تحرك ألواحه، وتكون كلّ من القارات وقيعان المحيطات، وبدء دورات كلّ من الماء، والصخور، وتبادل القارات والمحيطات، وشق الأودية والفجاج والسبل، والتعرية، وتسوية سطح الأرض، وتكون التربة، واختزان المياه تحت السطحية.

(٤) **مرحلة تكون الجبال**. عن طريق تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض وتصادمها مع بعضها البعض:

(٥) مرحلة خلق الحياة النباتية والحيوانية من أبسط صورها إلى أكثرها تعقيدًا ويعتقد علماء الأرض أن هذه الفترة قد استغرقت ٣,٨ بلايين من السنين ازدهرت خلالها صور الحياة فى البحار والمحيطات، ثم على اليابسة منذ (٤٤٠) مليون سنة مضت.

(٦) خلق الإنسان منذ حوالى مائة ألف سنة علي أكثر تقدير.

ويقدر عمر الكون بحوالى ١٤ بليون سنة، بينما يقدر عمر أقدم صخور الأرض بنحو ٤,٦ بليون سنة، وهو نفس العمر الذى تم التوصل إليه بتحليل صخور وتراب سطح القمر وصخور العديد من النيازك التى سقطت على الأرض، والفارق الكبير بين العمرين المقدرين لكل من الأرض والسماء - وقد خلقا فى لحظة واحدة - سببه أن صخور الأرض تدخل فى دورات عديدة من التيبس والانصهار، وأن العمر المقدر لها حاليًا هو عمر لحظة تيبس صخور قشرتها فى آخر دورة من هذه الدورات، وليس عمر تكون ذرات عناصرها، وعمر تيبس قشرة الأرض لا يشمل أيّا من مراحل الأرض الابتدائية، ولا مراحل تخلق العناصر التى كونت أرضنا الابتدائية وما أتبع ذلك من أحداث.

وتشير الآيات القرآنية التى تحمل الأرقام (٢٩) من سورة البقرة، و (٩-١٢) من سورة فصلت، إلى سبق خلق الأرض لعملية تسوية السماء الدخانية الأولية إلى

سبع سماوات، ويبدو أن المقصود هنا بالسبق هو خلق عناصر الأرض، والذى تلاه تجميع تلك العناصر على هيئة الأرض الابتدائية والتى تم رجمها بوابل من النيازك الحديدية، وتمايزها إلى سبع أرضين، ثم دحوها وتكوين أغلفتها الغازية والمائية والصخرية وتشكيلها إلى صورتها الحالية؛ وذلك لأن خلق السماوات والأرض عمليتان متلازمتان، ولا يمكن لإحداهما أن تنفصل عن الأخرى.

تقدير أقوات الأرض فى منظور العلوم الكونية

الأرض هى ثالث الكواكب بعداً عن الشمس، وهى تجرى حول هذا النجم فى فلك بيضاوى قليل الاستطالة (إهليلجى) بسرعة تقدر بنحو ٣٠ كيلومتراً فى الثانية، لتتم دورتها هذه فى سنة شمسية مقدارها ٢٥ , ٣٦٥ يوم تقريبًا، وتدور حول نفسها بسرعة مقدارها نحو ٣٠ كيلومتراً فى الدقيقة، لتتم دورتها هذه فى يوم مقداره ٢٤ ساعة تقريبًا، يتقاسمه ليل ونهار بتفاوت يزيد وينقص حسب الفصول التى تتبادل بسبب ميل محور دوران الأرض على دائرة البروج بزاوية مقدارها ٦٦,٥ درجة تقريبًا، ويعزى للسبب نفسه هبوب الرياح، وهطول الأمطار، وفيضان الأنهار، وتتابع الدورات الزراعية بأمر من الله ـ تعالى.

ويقدر متوسط طول المسافة بين الأرض والشمس بنحو ١٥٠ مليون كيلومتر، وهذه المسافة التى حددتها كتلة الأرض بتقدير من الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ تلعب دوراً مهمّا فى تقدير الأقوات فى الأرض؛ وذلك لأن كمية الطاقة التى تصل من الشمس إلى كل كوكب فى مجموعتها تتناسب تناسبا عكسيا مع بُعد الكوكب عن الشمس، وكذلك تتناسب سرعة جرى الكوكب فى مداره حولها. والشمس هى المصدر الرئيسى لجميع صور الطاقة الأرضية، ومن هنا تتضح الحكمة البالغة من تحديد كلٍّ من كتلة الأرض ومتوسط بعدها عن الشمس، فقد قدرت الطاقة التى تشعها الشمس من كل سنتيمتر مربع على سطحها بنحو عشرة أحصنة ميكانيكية، يصل إلى الأرض منها جزء من بليونى جزء من هذه الطاقة الهائلة التى تشكل مصدراً مهمًا من مصادر أقوات الأرض بالقدر المناسب لنوعية الحياة الأرضية.

فلو كانت الأرض أقرب قليلاً إلى الشمس لكانت كمية الطاقة التى تصلها محرقة لجميع صور الحياة على سطحها، ومبخرة لمياهها، ومخلخلة لغلافها الغازى، ولو كانت أبعد قليلاً لتجمدت مياهها ولتوقفت الحياة على سطحها. ويرتبط ببُعد الأرض عن الشمس بقية أبعاد هذا الكوكب. ويقدر حجم الأرض بنحو مليون كيلومتر مكعب، ومتوسط كثافتها بنحو ٥,٥٢ جم/ سم٣، وعلى ذلك تقدر كتلتها بنحو ستة آلاف مليون مليون مليون طن، وهذه الأبعاد قد حددها ربنا - تبارك وتعالى - بدقة بالغة، فلو كانت أكبر قليلاً أو أصغر قليلاً ما كانت صالحة للحياة الأرضية.

وللأرض مجال جاذبية مكنها من الاحتفاظ بغلافها الغازى، ولو فقدته جزئيّا لاستحالت الحياة على الأرض، وقد بدأت الأرض بكومة من الرماد، ثم رجمت بوابل من النيازك الحديدية والنيازك الحديدية الصخرية، والصخرية - والتى تحوى كثيراً من العناصر المعروفة لنا - والتى لا تزال تصل إلى الأرض بآلاف بل بعشرات الآلاف من الأطنان سنويا، وهذه العناصر وإنزالها إلى الأرض بأقدار معلومة من صور تقدير الأقوات فيها.

ثم مرت الأرض بمرحلة الدحو، وهو إخراج كل من أغلفتها المائية والغازية والصخرية، وغمرتها المياه بالكامل. وبدأت عملية الدحو بتصدع الغلاف الصخرى للأرض واندفاع الصهارة الصخرية بملايين الأطنان عبر تلك الصدوع، وعبر فوهات البراكين، ومن ثم بدأت عملية تحرك ألواح الغلاف الصخرى للأرض، والتى نتج عنها تكون الجزر البركانية فى وسط ذلك المحيط الغامر، ثم أخذت تلك الجزر البركانية فى التدافع تجاه بعضها البعض لتكون اليابسة بسلاسلها الجبلية الناتجة عن تصادم تلك الألواح الصخرية، وبدأت دورة التعرية تفتت صخور الأرض لتكون التربة، وبدأت دورات الصخور، والمياه، وتكون القارات وتفتتها حتى أصبحت الأرض مهيأة لاستقبال الحياة.

وبما أن عمر أقدم صخور الأرض يقدر بنحو ٤,٦٠٠ مليون سنة، وأن أقدم أثر للحياة الأرضية يقدر عمره بنحو ٣,٨٠٠ مليون سنة، فإن إعداد الأرض لاستقبال الحياة قد استغرق ما لا يقل عن ثمانمائة مليون سنة.

وقد خلق الله ـ تعالى ـ الحياة الباكرة فى مياه البحار والمحيطات؛ لأنها كانت الوسط الذى يحوى قدرًا من الأملاح المذابة التى حملتها الأمطار والسيول والأنهار من اليابسة إلى قيعان البحار والمحيطات، وفى هذه الأثناء كانت صخور اليابسة تتفتت لتكوين التربة، وكانت مياه الأمطار تختزن فيها فى تهيئة حكيمة لاستقبال الحياة الأرضية.

ومن حكمة الله البالغة فى الخلق أن النبات كان سابقًا فى وجوده على الحيوان لأن الله ـ تعالى ـ قد أعطاه القدرة على صناعة غذائه بعملية التمثيل الضوئى مستفيداً من طاقة الشمس وغازات الجو ومياه ومعادن الأرض، أما الحيوان فيعتمد فى غذائه على النبات أو على افتراس غيره من الحيوان إذا كانت له القدرة على ذلك.

وأقدم أثر للحياة على اليابسة لا يتعدى عمره ٤٤٠ مليون سنة، وقد بدأ بالنباتات الأرضية التى عمرت الأرض وسادت سيادة هائلة مما ساعد على تكوين راقات الفحم من بقاياها فى عصر سمى باسم «عصر الفحم»، وامتد من حوالى ٣٦٠ مليون سنة مضت إلى نحو ٣٩٠ مليون سنة مضت، واستمرت الحياة الأرضية فى الازدهار حتى اكتملت بخلق العديد من أنواع الحياة النباتية والحيوانية، ولعب كل نوع منها دورًا مهمًا فى استقبال المراحل التالية عليه، كما لعبت بقاياها دورًا أهم فى تكوين كلّ من النفط والغاز، ولعبت عوامل التعرية والحركات البانية للجبال دورها فى تمهيد الأرض وتهيئتها لاستقبال هذا المخلوق المكرم المعروف باسم الإنسان، والذى لا يكاد أقدم أثر له على الأرض أن يتعدى المائة ألف من السنين.

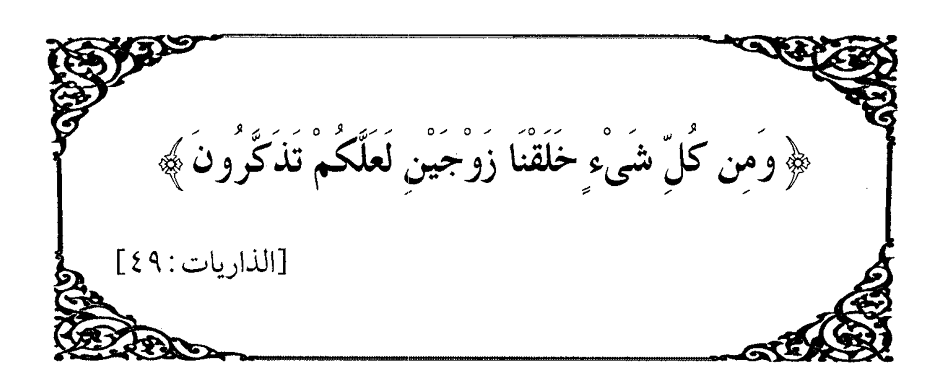
فسبحان الذى خلق الأكوان، ومنها الأرض، وهيأها لاستقبال هذا المخلوق المكرم بهذه المراحل المتطاولة من الخلق، وهو ـ تعالى ـ القادر على أن يقول للشىء كن فيكون. وسبحان الذى بارك الأرض، وقدر فيها أقواتها فى أربع مراحل متتالية: ثم قال ـ عزَّ من قائل ـ معاتبًا الكافرين والمشركين من عباده: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾

[فصلت: ٩ ـ ١٠].



رسم تخطيطى لإحدى خلايا جسم الإنسان على خلفية من الطين اليابس المتشقق يوضح تعقيد بناء هذه الخلية الحية، ومن أعقد وأعجب ما فيها الشفرة الوراثية المكتوبة بالحمض النووى الريبى المنقوص الأكسچين ومكوناته والتى تشكل الصبغيات التى يرى فى خارج الخلية واحد منها. وعدد الصبغيات فى نواة الخلية يحدد كل نوع من أنواع الحياة.


بسم الله الرحمن الرحيم
﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾
[الذاريات :٤٩]



هذه الآية الكريمة جاءت فى الخمس الأخير من سورة الذاريات، وهى سورة مكية، وعدد آياتها ستون بعد البسملة، ويدور محورها الرئيسى حول قضية العقيدة الإسلامية، ومن ركائزها التى جاءت بها هذه السورة المباركة ما يلى:

(١) الإيمان بالله ـ تعالى ـ رب السماء والأرض، إلهًا واحدًا أحدًا، فردًا صمدًا، بغير شريك ولا شبيه ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد، وتنزيهه ـ سبحانه وتعالى ـ تنزيهًا كاملاً عن كل وصف لا يليق بجلاله.

(٢) اليقين بالبعث بعد الموت، وبالجزاء فى الآخرة، على الرغم من اختلاف الناس بشأنهما؛ لأنه لا يُصْرَفُ عن الإيمان بحتميتهما إلا صاحب هوى أو جنون، أو استكبار فى الأرض.

(٣) القبول بحقيقة النار وعذابها، وبأنها مآل الكافرين والمشركين، والضالين المكذبين بالله وملائكته، وكتبه ورسله، المنكرين ليوم الدين، والقائلين فيه بالظن والتخمين، أو اللاهين عنه والمتشككين فى وقوعه، حتى يسألوا عنه سؤال المستهزئ به، والمستبعد لإمكانية تحقيقه . . . !! وهؤلاء تؤكد السورة الكريمة حتمية هلاكهم وورودهم إلى النار التى كانوا بها يستعجلون.

(٤) التصديق بالجنة ونعيمها، وبأنها مآل المتقين، الذين يحسنون العمل فى الدنيا، ومن مظاهر العمل الصالح فيها: قلة النوم بالليل، وكثرة الاستغفار بالأسحار، وإخراج المال للسائل والمحروم.

(٥) الإيمان بملائكة الله المقسمات الأمور المقدرة بين الخلق على ما أمرت به من الله ـ سبحانه وتعالى .

(٦) الإيمان برسل الله وأنبيائه أجمعين، الذين أرسلوا لتعليم الناس حقيقة رسالتهم فى الحياة، وكيف يطبقونها على الوجه الذى يرتضيه الله، وما لهم من بعد الموت، وينذرونهم من أخطار الشرك بالله ومن عذاب يوم عظيم، وقد طولبوا بمداومة التذكير والوعظ بذلك .

(٧) التصديق بكل ما جاء بالقرآن الكريم خاصة ما ورد عن عقاب العاصين من أبناء الأمم السابقة الذين أنكروا رسالات ربهم، واستهزءوا برسله، متهمين إياهم بالسحر أو الجنون .

(٨) اليقين بأن الله ـ تعالى ـ لم يخلق كلاً من الجن والإنس إلا لعبادته بما أمر، ولحسن القيام بواجب الاستخلاف فى الأرض، وإقامة عدل الله فيها .

(٩) الإيمان بأن الله ـ تعالى ـ هو الرزاق ذو القوة المتين .

(١٠) اليقين بأن لكل ظالم نصيبه من عذاب الله، وأن هذا العذاب واقع به لا محالة فى الدنيا قبل الآخرة، كما نزل بالظالمين والكفار والمشركين من أبناء الأمم السابقة .

استعراض سريع لسورة الذاريات

تدعو سورة الذاريات إلى التأمل فى آيات الله المبثوثة فى الأرض، وفى الأنفس، وفى الآفاق، وإلى التعرف على ما فى هذه الآيات الكونية من دلائل على الإيمان بالله، واليقين بوحدانيته، كما تدعو إلى استخلاص الدروس والعبر من قصص عدد من أنبياء الله ورسله السابقين على بعثة خاتمهم ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ منهم: أبو الأنبياء إبراهيم، وكليم الله موسى، وأول أولى العزم من الرسل نوح ـ على نبينا وعليهم من الله السلام ـ . كذلك عرضت السورة الكريمة لعدد من الأمم البائدة، وإلى ما أصاب تلك الأمم من عذاب

الله فى الدنيا قبل الآخرة، وما لحق بها من هلاك ودمار وخراب؛ بسبب انحرافها عن فطرة الله ومنهجه، وتكذيبها لأنبيائه ورسله، ومن هذه الأمم التى أبيدت أقوام لوط، وفرعون، وعاد، وثمود، ومن قبل هؤلاء جميعًا قوم نوح.

ثم عاودت سورة الذاريات استعراض عدد آخر من الآيات الكونية الدالة على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة فى الكون، وعقبت بالدعوة إلى رجوع الخلق إلى الله، وحذرت من الشرك به - سبحانه وتعالى - فى مواضع عديدة منها، وكررت وصف الرسول الخاتم ﷺ بأنه نذير مبين من الله إلى الناس كافة، وأن عبادة الله -تعالى- وحده هى الغاية من خلق كل من الجن والإنس، وأنذرت هذه السورة المباركة كل من يجرؤ على التكذيب ببعثة رسول الله ﷺ بمثل ما أصاب الأمم السابقة من عذاب.

والسورة فى مجملها دعوة إلى الناس جميعًا كى يخلصوا العبادة لله وحده، ويطهروا القلوب من درن الشرك، ومن كل وصف لا يليق بجلال الله .. ومن كل معوقات الحياة .. وأن يصلوها بخالقها الذى هو رب هذا الكون ومليكه، ولذلك أوردت فى خواتيمها هذه الدعوة المباركة: **﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾** [الذاريات: ٥٠، ٥١].

ثم خلصت سورة الذاريات إلى استنكار موقف الكافرين والمشركين من تكذيب رسل الله، وأمرت خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بأن يشيح بوجهه الشريف عنهم، وألا ينشغل بهم عن تذكير الناس .. فإن الذكرى تنفع المؤمنين. وأكدت أن كلاً من الجن والإنس ما خلق إلا لعبادة الله -تعالى- وحده (بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد) فالله - سبحانه وتعالى - لا يريد من أحد منهم رزقا ولا إطعامًا؛ لأنه هو - سبحانه - الرزاق ذو القوة المتين.

وختمت هذه السورة المباركة بالتأكيد على أن للذين ظلموا فى هذه الدنيا نصيبًا وحظًا من العقاب نازلاً بهم لا محالة، مثل نصيب من سبقوهم من الكفار والمشركين، وتهددهم بعذاب أشد وأنكى فى الآخرة، يوم لاينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

فى مقام الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية فى إبداع الخلق، والشهادة على أن الذى أبدع هذا الخلق قادر على إفنائه وعلى إعادة خلقه من جديد أى بعثه، استعرضت سورة الذاريات عدداً من الآيات الكونية لمحاجة الكفار المكذبين بيوم الدين منها ما يلى :

(١) قسم بالرياح التى سخرها ربنا - تبارك وتعالى - لتذرية التراب ذرواً، ودور ذلك فى برى الصخور، وتسوية سطح الأرض، وتكوين التربة، وتلقيح كل من السحاب والنبات بما تحمل الرياح من هباءات الغبار ومن حبوب اللقاح، ودور ذلك فى إنزال المطر وإخصاب كل من الأرض والنبات.

(٢) قسم بالسّحب التى يُحَمِّلُهَا ربنا - تبارك وتعالى - ثقلاً عظيمًا من بخار الماء لينزله بتقديره وعلمه حيث يشاء، وبالقدر الذى يشاء، وفى الوقت الذى يشاء، رحمة منه بخلقه أو عقابًا وعذابًا للعاصين من عباده.

(٣) قسم بالسفن الجاريات فى يسر على سطح الماء، ولولا أن الله -تعالى- قد وهب الماء قدراً من الصفات الفطرية المميزة له، لما جرت السفن على سطحه أبدًا بهذا اليسر، وتلك السهولة.

(٤) قسم بالملائكة التى تقسم الأمور المقدرة فى الكون حسب أوامر الله - سبحانه وتعالى - وحسب مشيئته، فتحمل الأوامر الإلهية، وتوزعها وفق تلك المشيئة بين الخلق، وبين مختلف قوى الكون بدقة وانضباط بالغين، ولو أن الملائكة من الأمور الغيبية بالنسبة لنا، إلا أن أثرها فى الكون لا يمكن إغفاله.

(٥) قسم بالسماء ذات الحبك أى ذات الإحكام فى الخلق، والترابط والتماسك المحكم الشديد، والكثافات المتباينة بين مختلف أجزائها وأجرامها.

(٦) الإشارة إلى أن ما فى الأرض من آيات يَدُلُّ على طلاقة قدرة الله انطلاقًا من قوله -تعالى- ﴿ وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات : ٢٠].

(٧) التأكيد على آيات الأنفس بقول الحق ـ تبارك وتعالى : ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات : ٢١].

(٨) إثبات أن ما يوعد الناس، وما يرزقون به يقرر فى السماء وينزل منها انطلاقًا من قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات : ٢٢].

(٩) الإشارة إلى حقيقة توسع الكون التى لم يصل إليها علم الإنسان إلا فى الثلث الأول من القرن العشرين، وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات : ٤٧].

(١٠) الإشارة إلى عمليات تمهيد وتسوية سطح الأرض، وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [الذاريات : ٤٨].

(١١) التأكيد على الزوجية المطلقة فى الخلق انطلاقًا من قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات : ٤٩].

وكل آية من هذه الآيات تحتاج إلى معالجة خاصة، لفهمها وفهم دلالاتها العلمية فهمًا صحيحًا، ولما كان المقام لايتسع لذلك، أجدنى مضطرًا إلى قصر الحديث هنا على النقطة الأخيرة من قائمة الآيات الكونية السابقة ألا وهى التأكيد على الزوجية المطلقة فى الخلق، وقبل البدء فى ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين فى شرح دلالة هذه الآية الكريمة . .

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات : ٤٩]

* ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما مختصره : « . . . ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أى جميع المخلوقات أزواج : سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء (نور) وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة،

وجنة ونار، حتى الحيوانات والنباتات ولهذا قال تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أى لتعلموا أن الخالق واحد لاشريك له . . ».

* وجاء فى تفسير الجلالين - رحمهما الله - ما مختصره : «﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يتعلق بقوله خلقنا ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ صنفين كالذكر والأنثى، والسماء والأرض، والشمس والقمر، والسهل والجبل، والصيف والشتاء، والحلو والحامض، والنور والظلمة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ بحذف إحدى التاءين من الأصل (تتذكرون) فتعلمون أن خالق الأزواج فرد فتعبدونه».

* وذكر صاحب الظلال - رحمه الله رحمة واسعة - ما نصه : «وهذه حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق فى هذه الأرض - وربما فى هذا الكون، إذ أن التعبير لا يخصص الأرض - بقاعدة الزوجية فى الخلق. وهى ظاهرة فى الأحياء، «ولكن كلمة (شىء) تشمل غير الأحياء أيضًا، والتعبير يقرر أن الأشياء كالأحياء مخلوقة على أساس الزوجية».

«وحين نتذكر أن هذا النص عرفه البشر منذ أربعة عشر قرنًا، وأن فكرة عموم الزوجية - حتى فى الأحياء - لم تكن معروفة حينذاك، فضلا عن عموم الزوجية فى كل شىء . . حيث نتذكر هذا نجد أننا أمام أمر عجيب عظيم . . وهو يطلعنا على الحقائق الكونية فى هذه الصورة العجيبة المبكرة كل التبكير !».

«كما أن هذا النص يجعلنا نرجح أن البحوث العلمية الحديثة سائرة فى طريق الوصول إلى الحقيقة، وهى تكاد تقرر أن بناء الكون كله يرجع إلى الذرة، وأن الذرة مؤلفة من زوج من الكهرباء : موجب وسالب ! فقد تكون تلك البحوث إذن على طريق الحقيقة فى ضوء هذا النص العجيب».

«وفى ظل هذه اللمسات القصيرة العبارة، الهائلة المدى، فى أجواء السماء، وفى آماد الأرض، وفى أعماق الخلائق، يهتف بالبشر ليفروا إلى خالق السماء والأرض والخلائق، متجردين من كل ما يثقل أرواحهم ويقيدها . . موحدين الله الذى خلق هذا الكون وحده بلا شريك».

* وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن - رحم الله كاتبه - ما نصه: «﴿زَوْجَيْنِ﴾ نوعين متقابلين كالليل والنهار، والسماء والأرض، والهدى والضلال، إلى غير ذلك.

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم - جزى الله كاتبيه خيراً - ما نصه: « ومن كل شيء خلقنا صنفين، مزدوجين، لعلكم تتذكرون فتؤمنوا بقدرتنا».

* وجاء في صفوة التفاسير - جزى الله كاتبها خيراً - ما نصه: «﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي ومن كل شيء خلقنا صنفين ونوعين مختلفين ذكراً وأنثى، وحلواً وحامضًا ونحو ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي كي تتذكروا عظمة الله فتؤمنوا به، وتعلموا أن خالق الأزواج واحد أحد».

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

في قوله - تعالى - :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

تأكيد على قاعدة الزوجية المطلقة في خلق كل شيء من الأحياء والجمادات، بمعنى أن الله - تعالى - خلق كل شيء في زوجية حقيقية، وأن هذه الزوجية ظاهرة عامة في كل المخلوقات، وعلى جميع المستويات: من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان وإلى مختلف وحدات الكون، وأنها سمة من سمات التناسق والتناغم والتوافق في الخلق، وشهادة ناطقة بالوحدانية المطلقة للخالق - سبحانه وتعالى - تلك الوحدانية المطلقة التي تؤكد أن الخالق - سبحانه وتعالى - فوق جميع خلقه، وهو الذي وصف ذاته العلية بقوله الحق: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]

كما وصف هذه الذات العلية بأمره الواضح الصريح إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، ومن ثم إلى كل مؤمن بالله أن يردد في كل وقت وفي كل حين: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

[الإخلاص: ١ - ٤].

وهذه الزوجية فى الخلق، الناطقة بوحدانية الخالق - سبحانه وتعالى - تتجلى لنا فى المراحل التالية :

١ - الزوجية من ذكر وأنثى فى الكائنات الحيّة من الإنسان إلى كل من الحيوان والنبات، وفى الخلايا الجسدية لكل جنس.

٢ - الزوجية فى الخلايا التناسلية بنوعيها : الذكرية والأنثوية.

٣ - الزوجية فى النطفة الذكرية التى قد تحمل صبغى التذكير(Y) أو صبغى التأنيث(X).

٤ - الزوجية فى أعداد الصبغيات الموجودة فى نواة الخلية الحيّة.

٥ - الزوجية فى حاملات الوراثة - المورثات أو الناسلات أو الچينات - الموجودة على كل صبغى من الصبغيات.

٦ - الزوجية فى بناء جزىء الحمض النووى٦ , ١٨ بليون قاعدة كيميائية فى جدارين متقابلين تفصلهما سلميات متتابعة تتكون كل سلمية منها من زوج من القواعد النيتروچينية.

٧ - الزوجية فى ترابط كل قاعدتين من القواعد النيتروچينية الأربعة البانية لسلميات الحمض النووى (**DNA**). وتعرف بالرموز (**A, T; C, G**).

٨ - الزوجية فى ترابط جزىء سكر الريبوز - وهو جزىء عضوى - مع جزىء الفوسفات - وهو جزىء غير عضوى - لتكوين جدار جزئ الحمض النووى(**DNA**).

٩ - الزوجية فى بناء كل من الأحماض الأمينية و البروتينات المتجمعة منها فى صورها اليمينية واليسارية.

١٠ - الزوجية فى بناء البروتينات وأضدادها (**Proteins and Antiproteins**).

١١ - الزوجية فى بناء الجزىء الكيميائى للمادة بشقيه : الموجب والسالب (**Cation and Anion**).

١٢ ـ الزوجية فى الذرة بنواتها التى تحمل شحنة موجبة وإلكتروناتها التى تحمل شحنة سالبة (Elementary Particles and their Counters) .

١٣ ـ الزوجية فى الجسيمات الأولية للمادة وأضدادها .

١٤ ـ الزوجية فى اللبنات المكونة للجسيمات الأولية للمادة وأضدادها .

١٥ ـ الزوجية فى المادة ونقيض المادة (Matter and Antimatter) .

١٦ ـ الزوجية فى شحنات الطاقة الموجبة والسالبة .

١٧ ـ الزوجية فى كل من المادة والطاقة وهما وجهان لعملة واحدة ولجوهر واحد يشير إلى وحدانية الخالق العظيم .

ويستطيع المتأمل فى الكون أن يستمر فى هذا السياق إلى ما لا نهاية، ليؤكد على حقيقة الزوجية المطلقة فى كل أمر من أمور هذا الكون : دق أم عظم، وليكون فى ذلك شهادة بأن الوحدانية المطلقة هى لله الخالق وحده، لا يشاركه فيها شريك، ولا ينازعه عليها منازع، فهى من صفات الواحد الأحد، الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد) .

وكل صورة من صور الزوجية تلك تحتاج إلى مقال مستقل، ولذلك فسوف أختار هنا بعض النماذج منها فقط فى السطور التالية :

أولاً: الزوجية فى الكائنات الحيّة:

تتكاثر الكائنات الحيّة من الإنسان والحيوان بالتزاوج بين ذكر وأنثى ويعرف ذلك باسم «**التكاثر الجنسى**» الذى تأتى فيه نصف الصفات الوراثية للجنين من الأب، وخط الأب إلى أبينا آدم ـ عليه السلام ـ والنصف الآخر من الأم وخط الأم إلى أمنا حواء ـ عليها السلام ـ. فالتركيب الوراثى للخلية الجسدية فى الإنسان على سبيل المثال تحمل نفس عدد الصبغيات فى كلّ من الذكر والأنثى ويختلفان فى الصبغيات المحددة للجنس فقط، فخلية الذكر الجسدية تحمل ٤٦ صبغيّا منها صبغيّان جنسيان أحدهما مذكر (Y)، والآخر مؤنث (X) بينما تحمل الخلية الجسدية فى الأنثى نفس

عدد الصبغيات (٤٦) منها صبغيان أنثويان، (XX) أما الخلايا التناسلية فتحمل نصف عدد الصبغيات الموجودة فى الخلية الجسدية، فالحيوان المنوى يحمل ٢٣ صبغيًا، وكذلك البويضة، وفى الحيوان المنوى يكون أحد الصبغيات محدداً للصفات الجنسية ويكون إما مذكرًا (Y) (22+Y) وإما مؤنثًا (X) (22+X)، وعلى ذلك فإن طبيعة الحيوان المنوى (22+Y) أو (22+X) هى التى تحدد - بتقدير مسبق من الله تعالى - جنس الجنين ذكرًا أو أنثى.

وفى معظم حالات الحيوان والنبات تكون الذكور والإناث منفصلة عن بعضها البعض، وفى بعض الحيوانات البسيطة توجد الخلايا الذكرية والأنثوية فى جسد الفرد الواحد الذى يقايض خلاياه الذكرية مع فرد آخر. وفى التكاثر الجنسى قد يتم الإخصاب فى داخل الجسم أو فى خارجه.

أما الكائنات الحيوانية الأكثر بساطة فتتكاثر بالانشطار، أو بالتبرعم، أو التجزؤ، أو بالتجدد أى التراكم، أو بالتوالد العذرى أى بدون إخصاب، ويعرف كل ذلك بـ«**التكاثر غير الجنسى**»، وقد يتبادل الحيوان الواحد كلا النوعين من التكاثر فى دورة حياته التى تعرف باسم «دورة تبادل الأجيال».

ومن معرفتنا بالزوجية فى كل من اللبنات والجسيمات الأولية للمادة. نستطيع أن نجزم بأن صورة من صور الزوجية تتم فى حالات التكاثر غير الجنسى.

وفى النبات تتضح الزوجية بشكل بَيِّن فى الأنواع المنتجة للأزهار والمعروفة باسم النباتات المزهرة - والتى يزيد عددها علىٰ الربع مليون نوع، وأزهارها التى تنتج عن تفتح براعمها تحمل أعضاء التكاثر من الخلايا الذكرية والأنثوية التى قد توجد فى زهرة واحدة، أو فى زهرتين مختلفتين على نبات واحد، وقد يكون من النبات الواحد الذكر والأنثى.

وتؤدى عملية الإخصاب فى النباتات المزهرة إلى إنتاج البذور، وتحتوى كل بذرة على جنين النبتة الجديدة، ومخزون من الطعام قَدَّره الخالق المبدع لهذا الجنين حتى ينمو إلى نبتته الكاملة والقادرة على تجهيز غذائها بما وفر الله - تعالى - لها من قدرات، وتحفظ البذور عادة فى الثمرة أو قد تكون هى الثمرة.

أما النباتات غير المزهرة فتتكاثر بالنوعين الجنسى وغير جنسى على مرحلتين فى دورة واحدة تعرف باسم «دورة تبادل الأجيال»، فى المرحلة الأولى منها ينتج النبات كلا من الخلايا الجنسية الذكرية والأنثوية، وتنفصل الخلايا الذكرية وتتحرك فى الأوساط المائية للوصول إلى خلية أنثوية من نبات آخر من نفس النوع والقيام بتلقيحها وإخصابها بالاتحاد معها، وفى الدورة الثانية ينتج النبات خلايا تناسلية اسمها «الأبواغ»، تتناثر عن النبات الحامل لها عند نضجها، وتنمو فى الأوساط المناسبة لها نباتًا جديدًا.

ثانيًا: الزوجية فى الخلايا التناسلية الذكرية والأنثوية:

أعطى الخالق - سبحانه وتعالى - لجسم الذكر البالغ القدرة على إنتاج خلايا جنسية ذكرية تعرف باسم «الحيوان المنوى أو الحيمن»، كما أعطى لجسم الأنثى القدرة على إنتاج خلايا جنسية أنثوية تعرف باسم البويضة أو «البييضة» - تصغير بيضة -، وهذان الزوجان من الخلايا التناسلية إذا اتحدا فإنهما يكونان معًا نطفة مختلطة - نطفة أمشاج - تبدأ فى الانقسام المطرد حتى تتكون التوبتة التى تنغرس فى جدار الرحم، وتتغذى الأم، وتنمو بالتدريج فى مراحل محددة ومتعاقبة حتى يتم تخليق مولود جديد بإذن الله - تعالى.

ثالثًا: الزوجية فى النطفة الذكرية ذاتها:

كما سبق وأن أشرنا فإنه بالإضافة إلى الصبغيات الجسدية فإنه يوجد فى كل حيوان منوى صبغى جنسى واحد إما (X) ويعنى الأنوثة أو (Y) ويعنى الذكورة، وتحتوى البييضة على نفس عدد الصبغيات الجسدية الموجودة فى الخلية الذكرية بالإضافة إلى الصبغى الأنثوى(X)، بينما الحيوانات المنوية إما أن تحمل الصبغى المذكر أو المؤنث، فإذا كان الحيوان المنوى الذى أخصب البييضة مما يحمل صبغى التذكير جاء الجنين ذكرًا بإذن الله، وإذا كان مما يحمل صبغى التأنيث جاء المولود أنثى بإذن الله. فالزوجية موجودة حتى فى نطف الذكر، وليست بين نطفة الذكر ونطفة الأنثى فقط.

رابعًا: الزوجية فى الصبغيات نفسها:

توجد الصبغيات فى نواة الخلية الحيّة على هيئة خيوط متشابكة من مادة تسمى باسم المادة المصبوغة أو كروماتين - (Chromatin) تعطى للنواة مظهرًا شبكيًا أو حبيبيًا، وتتكون هذه الصبغيات إلى حد كبير من الحمض النووى المعروف باسم الحمض النووى الريبى المنقوص الأكسجين أو الحامض الرايبوزى غير الأكسجينى - (Deoxyribonucleic Acid or DNA) الذى تكتب به الشفرة الوراثية للخلية، بالإضافة إلى كم من البروتينات بنسب متساوية تقريبًا.

وكل واحد من هذه الصبغيات - التى يعتبر عددها من العوامل المحددة للنوع - يتكون من شريطين متصلين ببعضهما بجزء دقيق يعرف باسم شريط اللحمة المركزى أو القطعة المركزية (Centromere) له مكان محدد على كل صبغى، يكون أحيانا قريبا من وسط الصبغيين، وغالبًا ما يقع قرب أحد طرفيهما، وهذه صورة من صور الزوجية المبهرة فى الخلق.

خامسًا: الزوجية فى وحدات الوراثة (المورثات أو الناسلات أو الچينات):

تتوزع وحدات الوراثة على طول كل واحد من الصبغيات على هيئة قطع منفصلة من الحمض النووى الريبى المنقوص الأكسچين (DNA) فى زوجية واضحة؛ لأن أحد هذه المورثات يأتى إلى الجنين من جهة الأب والآخر يأتيه من جهة الأم.

سادسًا: الزوجية فى بناء جزىء الحمض النووى، وفى بناء كل من سلمياته وجداريه:

بالدراسة اتضح أن كل جزىء من جزيئات الحمض النووى الريبى المنقوص الأكسچين (DNA) ينبنى على هيئة سلم حبلى مفتول، أو ما يعرف باسم «اللولب المزدوج» (Double Helix) تتضح فيه الزوجية فى جانبيه المصنوعين من جزيئات سكر الريبوز المنقوص الأكسچين، وجزيئات من الفوسفات، كما تتضح الزوجية فى درجات هذا السلم الحبلى المفتول والتى تتكون كل درجة من درجاته من زوج من قواعد نيتروچينية أربع هى:

الأدينين (Adenine = A)، والثيامين (Thyamine = T)، والجوانين (Guanine = G)، والسيتوسين (Cytosine = E) على أن يرتبط الأولان فى زوجية واضحة معًا (AT)، وأن يرتبط الأخيران كذلك معًا (GC)، ومعًا فقط فى زوجية واضحة كذلك، ليشكل كل زوج منهما درجة من سلميات جزىء الحمض النووى الريبى المنقوص الأكسچين (DNA) على شكل نويدتين (Two Nucleotides) تتكون كل منهما من قاعدة نيتروچينية (Nitrogenous Base) مستندة إلى زوج من السكر والفوسفات تأكيدًا على الزوجية فى الخلق من أدق الدقائق إلى أكبر الوحدات.

سابعًا: الزوجية فى بناء كل من الأحماض الأمينية والبروتينات:

تعد الأحماض الأمينية (Amino Acids) الوحدة البنائية الأساسية لمختلف جزيئات المواد البروتينية (Protein Molecules) التى تتبنى منها أجساد الكائنات الحيّة. والأحماض الأمينية من الأحماض الدهنية، التى تذوب فى الماء بسهولة فى أغلب الأحيان، ولها فى حالتها المتبلورة نشاط ضوئى ملحوظ بسبب احتواء جزيئاتها على ذرة كربون محاطة بأربع مجموعات مختلفة هى: مجموعة الأمين (NH_2)، ومجموعة الكربوكسيل (COOH)، ومجموعة الحمض (R)، وذرة أيدروچين (H) ولذلك فالجزىء غير متماثل، وتتحرك هذه المجموعات لتتبادل الأوضاع حول ذرة الكربون، فقد توجد مجموعة الأمين (NH_2) فى مواضع مختلفة بالنسبة لمجموعة الكربوكسيل.

ونظرًا لعدم تماثل جزىء الحمض الأمينى فإن كل واحد من الأحماض الأمينية يمكن أن يوجد فى شكلين أحدهما يدير مستوى الضوء المستقطب إلى اليمين ويعرف باسم «الشكل اليمينى» (Right-handed isomer)، والشكل الآخر يديره إلى اليسار ويعرف باسم «الشكل اليسارى» (Left-handed isomer).

وقد ثبت أن الأحماض الأمينية فى أجساد جميع الكائنات الحيّة - النباتية والحيوانية والإنسية - هى من الأشكال المرتبة ترتيبًا يساريًا، فإذا ما مات الكائن الحى فإن الأحماض الأمينية اليسارية الترتيب فى بقايا جسده تبدأ بإعادة ترتيب الذرات فى داخل جزيئاتها من الترتيب اليسارى إلى الترتيب اليمينى بمعدلات ثابتة حتى يتساوى الشكلان، ويعرف هذا الخليط باسم «الخليط الراسيمى - Racemic

«Mixture» وهو خليط لايمكنه تحريك مستوى الضوء المستقطب، ولكنه يمثل: صورة من صور الزوجية فى أضيق صورها.

ويمكن استخدام نسبة الشكلين اليمينى واليسارى للحمض الأمينى الواحد فى بقايا أى من النبات أو الحيوان أو الإنسان فى تحديد لحظة وفاته بدقة بالغة نظرًا لثبات معدلات التحول من الشكل اليسارى إلى الشكل اليمينى.

ويعرف العلماء من الأحماض الأمينية البانية للبروتينات عشرين نوعًا كل منها ممثل بزوجية واضحة، وباتحاد هذه الأحماض الأمينية العشرين يمكن بناء أكثر من مليونى نوع من أنواع البروتينات. والخلية الحيّة فى جسم الإنسان قد أعطاها الله - تعالى - القدرة على إنتاج مائتى ألف نوع من أنواع هذه البروتينات، وبالمثل فإن كل جزىء من جزيئات البروتينات العديدة يمكن أن يكون له شكل يمينى وآخر يسارى، وهى فى أجساد جميع الكائنات الحيّة من الشكل اليسارى.

وكذلك النويدات (Nucleotides) على الصبغيات وهى أصغر وحدات الحمض النووى الريبى والريبى المراسل (DNA, mRNA) فإن منها اليمينى واليسارى، وكلها فى أجساد الكائنات الحيّة من الشكل اليمينى. وفوق ذلك فإن هناك «الشفيرات - Codons» التى تتكون الواحدة منها من ثلاث نويدات، وهناك «السيسترونات Cistrons» التى تتكون من عدة مئات إلى عدة ألوف من النويدات وهى الوحدة الوراثية الوظيفية فى حاملات الوراثة (أو الجينات)، وكل واحد من هذه الوحدات الوراثية له نظيره، و كل واحد من البروتينات المعروفة له ضده (Proteins And Antiproteins)، وكل جسم من الأجسام المكونة من البروتينات له ضده (Bodies And Antibodies)؛ بالإضافة إلى أن من البروتينات بروتينات بانية وأخرى هادمة (Constructive Proteins and Destructive ones).

ثامنًا: الزوجية فى المادة وفى مركباتها:

تتضح الزوجية فى مركبات المادة فى شقيها الموجب (Cation)، والسالب (Anion). كما تتضح فى تركيب الذرة بنواتها التى تحمل شحنة موجبة، وإلكتروناتها التى تدور حول النواة حاملة شحنة سالبة مكافئة.

وقد ثبت أن للمادة قرابة الثلاثين نوعًا من أنواع اللبنات الأولية، وكل واحدة منها لها نقيضها، كما أن الجسيمات الأولية للمادة لها لكل جسيم نقيضه، وأن المادة ككل لها نقيض المادة، وإذا التقت النقائض فإن كل واحد منها يفنى نظيره؛ لأنهما يتخليان عن طبيعتهما المادية، ويتحولان إلى طاقة تعلن عن فناء المادة، ومن هنا كان الوجود والعدم، وكانت إمكانية الإيجاد من العدم أى الخلق على غير مثال سابق، وإمكانية الإفناء إلى العدم، ولا يقدر على ذلك أحد غير الإله الخالق سبحانه وتعالى.

تاسعا: الزوجية فى الطاقة:

وكما تتضح الزوجية فى المادة فإنها تتضح كذلك فى الطاقة، فإن لكل صورة من صورها ما هو ضدها، فالكهرباء فيها الموجب والسالب، والمغناطيسية فيها العادى والمقلوب (المعكوس)، حتى الضوء له زوجية واضحة؛ لأنه يتحرك أحيانًا على هيئة أمواج، وأحيانًا أخرى على هيئة جسيمات.

كذلك فقد ثبت أن المادة والطاقة وجهان لعملة واحدة، وصورتان لجوهر واحد، يشير إلى وحدانية الخالق - سبحانه وتعالى -، وخلق اللبنات الأولية للمادة على هيئة أزواج من الطاقة، وتحويلها إلى طاقة على هيئة زوجية أيضًا، وإمكانية رد الطاقة إلى حالة مادية كما خلقت أول مرة، كل ذلك تأكيد على حقيقة بدء الخلق من العدم وعلى إمكانية إفنائه إلى العدم.

ونحن نرى الزوجية فى كل صورة من صور الخلق: من أدق دقائقه إلى أكبر وحداته، حتى يبقى الخالق - سبحانه وتعالى - متفردًا بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، ونرى كذلك وحدة البناء فى الخلق تجسيدًا لوحدانية الخالق سبحانه وتعالى.

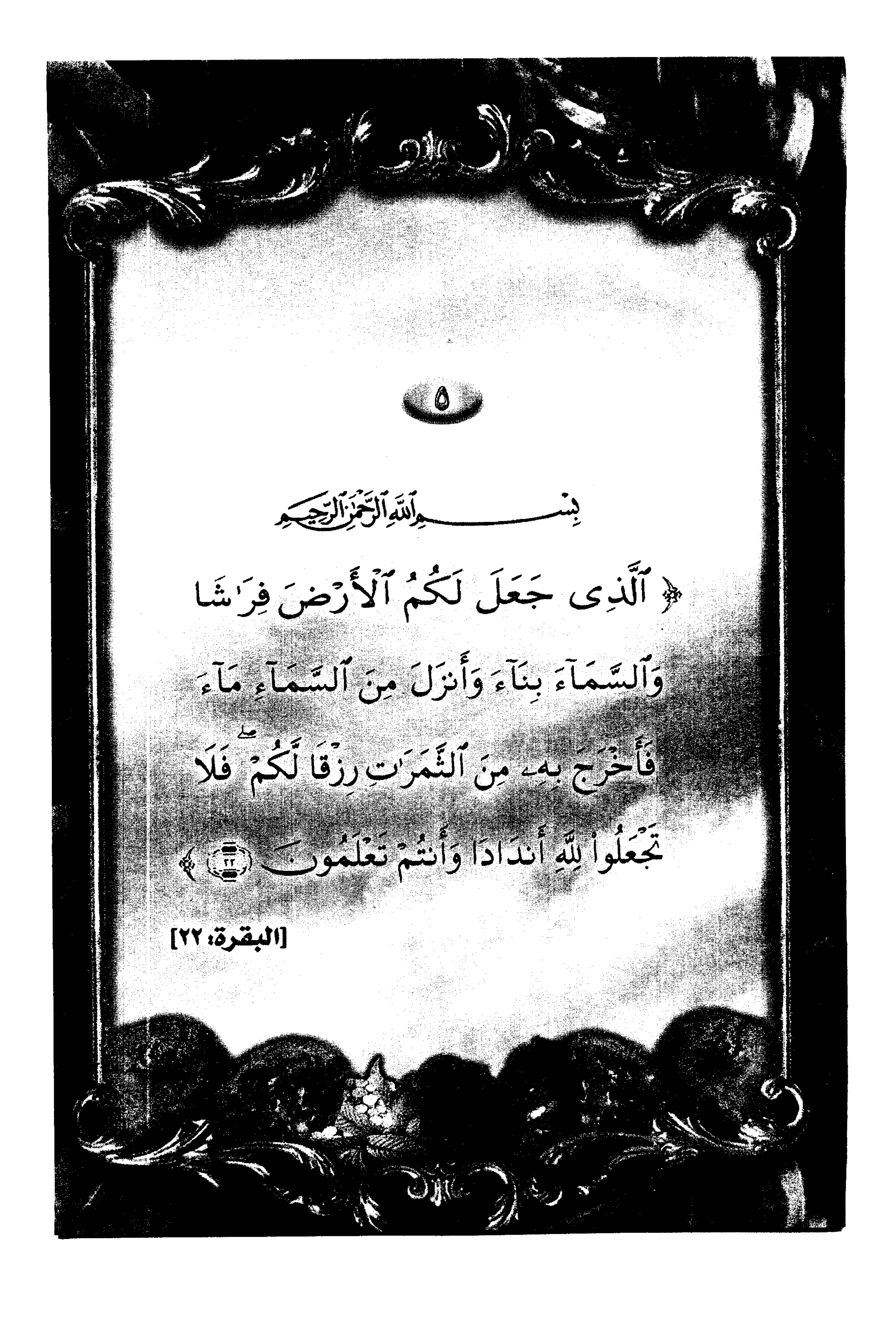
فلكل جسيم فى الذرة جسيم نقيض . . وهذه الجسيمات ونقائضها تكون المادة والمادة النقيضة، وفى النقائض توجد كل الصفات معكوسة من الشحنات الكهربية إلى المجالات المغناطيسية إلى اتجاهات الدوران، وعلى ذلك فلا يمكن لمثل تلك النقائض أن تجتمع فى مكان واحد وإلا أفنى بعضها بعضًا.

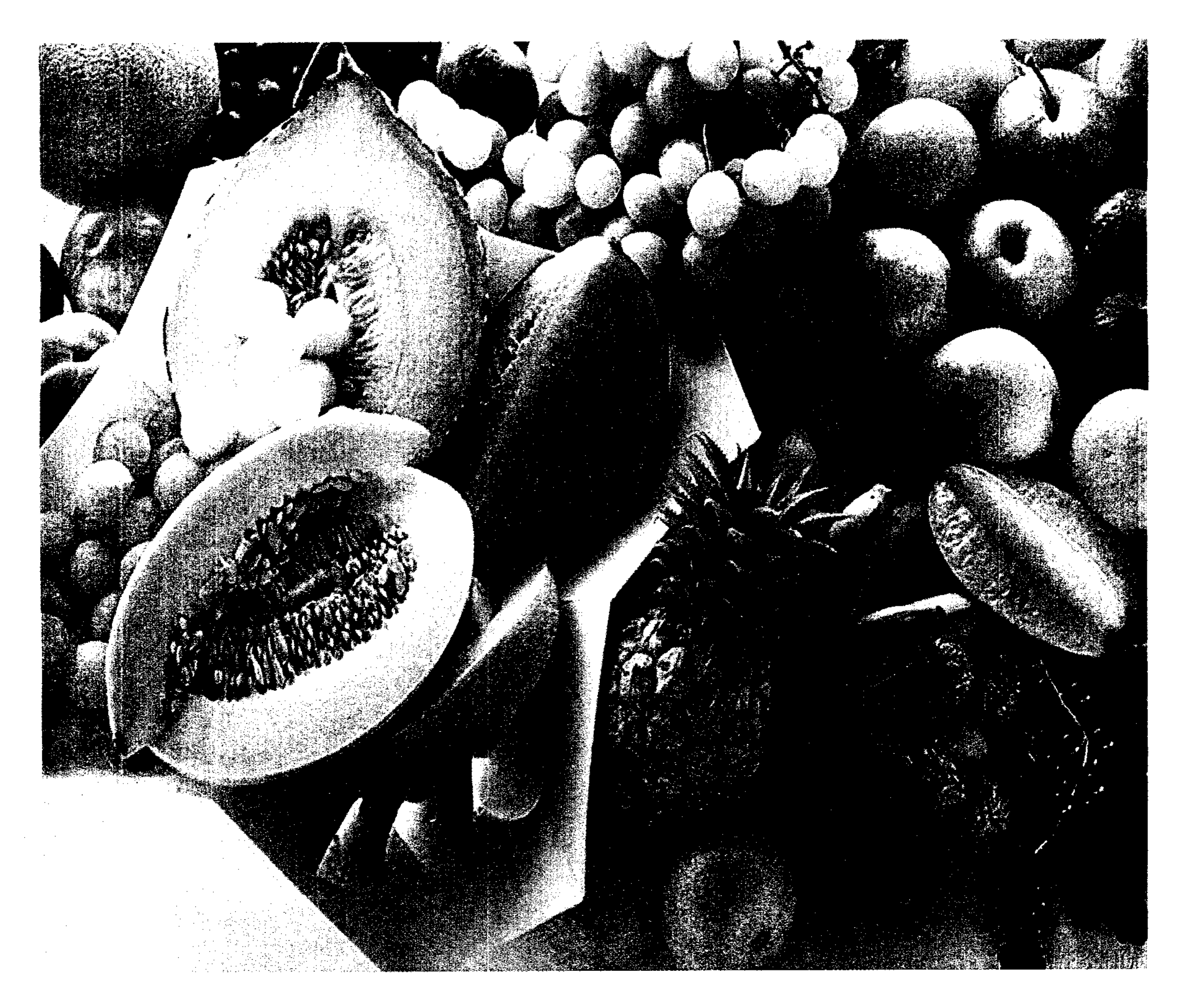
فسبحان الذى خلق الخلق فى زوجية واضحة تشهد له بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وسبحانه إذ خلق المادة ونقائضها من الطاقة، وسبحانه إذ خلق تلك النقائض فى نفس الوقت وبنفس القدر حتى يثبت لنا الخلق من العدم، وإمكانية الإفناء إلى العدم !!.

وسبحانه إذ فصل بين المادة ونقائضها حتى يوجد هذا الكون الشاسع الاتساع، الدقيق البناء، المحكم الحركة، المنضبط فى كل أمر من أموره، والمبنى على وتيرة واحدة تشهد للخالق - سبحانه وتعالى - بالوحدانية. وسبحانه إذ أبقى المادة النقيضة فى مكان ما عنده حتى إذا شاءت إرادته إفناء الكون جمع المادة ونقائضها بأمره: «كن فيكون»، وإذا شاء بعث كل شيء بفصلهما كذلك بالأمر «كن فيكون».

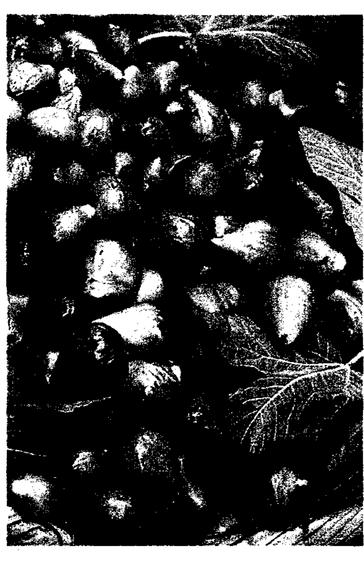
وسبحانه إذ قرر هذه الحقيقة الكونية فى محكم كتابه (القرآن الكريم) الذى أنزله بعلمه من قبل ألف وأربعمائة سنة، على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ ذلك النبى الأمى الذى بعث فى أمة أمية، فتلقى القرآن الكريم من ربه وبَلَّغَه أحسن تبليغ، وتعهد هذا الإله العظيم بحفظ رسالته الخاتمة فى نفس لغة وحيها (اللغة العربية) لتكون هداية للخلق أجمعين منذ لحظة الوحى بها وإلى يوم الدين؛ لأنه ليس من بعد خاتم الأنبياء والمرسلين من نبى ولا من رسول. وفى إرساء هذه الحقيقة قال عز من قائل ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]. وهى حقيقة لم يدركها علم الإنسان الكسبى إلا فى العقود المتأخرة من القرن العشرين، وورودها فى كتاب الله المنزل على خاتم أنبيائه ورسله من قبل ألف وأربعمائة من السنين لمما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ويجزم بالنبوة وبالرسالة لسيدنا محمد بن عبدالله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

* * *

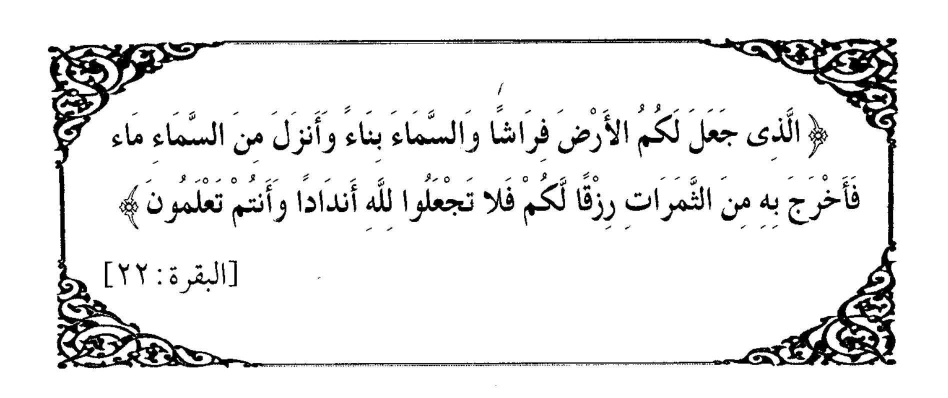

٥
بسم الله الرحمن الرحيم
﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا
وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا
تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾
[البقرة: ٢٢]











هذه الآية الكريمة جاءت فى مقدمات سورة البقرة، وهى سورة مدنية، وآياتها ست وثمانون ومائتان بعد البسملة، وعلى ذلك فهى أطول سور القرآن الكريم على الإطلاق. وأول سورة بعد فاتحة الكتاب فى ترتيب سور المصحف الشريف، وقد عظمها رسول الله ﷺ تعظيمًا كبيرًا فقال: «**إن الشيطان ينفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة**». وقد سميت السورة بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى تلك المعجزة التى أجراها الله ـ تعالى ـ على يد نبيه موسى ـ عليه السلام ـ حين تعرض فرد من قومه للقتل، ولم يعرف قاتله فأوحى الله ـ تعالى ـ إلى عبده موسى أن يأمر قومه بذبح بقرة وأن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا بإذن الله ليخبر عن قاتله ثم يموت وذلك إحقاقًا للحق، وشهادة عملية لقدرة الله ـ تعالى ـ على إحياء الموتى.

ويدور المحور الرئيسى لسورة البقرة حول عدد من الأحكام الشرعية، والقضايا التعبدية، والضوابط الأخلاقية والسلوكية، والركائز العقدية التى يمكن إيجازها فى النقاط الأساسية التالية :

أولاً: من ركائز العقيدة فى سورة البقرة:

(١) الإيمان بالله ـ تعالى ـ وحده ـ بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

(٢) هذا الإيمان يقتضى التسليم بوحدة الرسالة السماوية التى أنزلها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على فترة من الرسل، وختمها وأتمها، وأكملها فى القرآن الكريم،

الذى تعهد ربنا - سبحانه وتعالى - بحفظه، فحفظ حفظًا كاملاً فى لغة وحيه (اللغة العربية) على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية وإلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها، ليبقى مصدراً لهداية الناس كافة إلى يوم الدين .

(٣) الإيمان بوحدة الجنس البشرى دون تمييز عرقى أو عنصرى أو على أى أساس آخر؛ لأن البشرية كلها أسرة واحدة ينتهى نسبها إلى آدم وحواء - عليهما السلام، وآدم خلق من تراب .

(٤) الإيمان بحتمية الآخرة وبضرورتها، والتحذير من فجائية وقوعها، وأهوالها، والعمل الجاد فى الاستعداد لمواجهتها، وفى ذلك جاء قول الله - تعالى - : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١] وهو آخر ما نزل من القرآن الكريم .

ثانيًا: من أوامر العبادة فى سورة البقرة:

(١) الالتزام بركائز الدين من الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً .

(٢) عدم التفرقة بين رسل الله، وترك التفضيل بينهم لله، وتتويج الإيمان بهم جميعًا بالتصديق بالنبى الخاتم والرسول الخاتم سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ وبالرسالة الخاتمة التى أوحيت إليه والتى حفظت فى القرآن الكريم وفى سنته الشريفة .

(٣) ضرورة تلقى الدين بواسطة الأنبياء والمرسلين عن طريق الوحى السماوى، وعرضه على العقل والقلب فى موضوعية وحيدة حتى يصل الإنسان إلى القناعة العقلية والقلبية الكاملة، والتسليم بأن دين الله مبنى على اليسر، ورفع الحرج، وأن من أصوله الثابتة أنه : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ.... ﴾ [البقرة : ٢٥٦].

(٤) التسليم بأن القتال مشروع فى الإسلام لدفع المظالم، وللدفاع عن الأرض، والعرض، وعن النفس والمال والولد والأهل، وعن الدين ومقدساته، ولتأمين سيادة عدل الله فى الأرض، ولضمان حرية التدين، وللمحافظة على كرامة

الإنسان من أى جور أو طغيان، ولذلك تدعو سورة البقرة إلى الجهاد فى سبيل الله دون اعتداء، وإلى تعظيم منازل الشهداء، وإكبار الجهاد والمجاهدين، وإلى تقدير مقامات الصابرين فى البأساء والضراء، ومقامات الموفين بعهودهم إذا عاهدوا، وإلى غير ذلك من القيم السامية التى تقع من مكارم الأخلاق فى الصميم.

(٥) الدعوة إلى التأمل بعين البصيرة فى آيات الله العديدة المنتشرة فى الأنفس والآفاق؛ لأنها هى كتاب الله المنظور، كما أن القرآن الكريم هو كتابه المقروء .

ثالثا: من قواعد المعاملات فى سورة البقرة:

(١) فصلت سورة البقرة أحكام الأسرة من الزواج، والطلاق، والعدة، والرضاع وغيرها .

(٢) تدعو سورة البقرة فى مواضع عديدة منها إلى الإنفاق فى سبيل الله، وإلى الإحسان إلى الخلق بصفة عامة، وتدعو إلى إيثار الخير ونبذ الشر، كما تدعو إلى العمل الصالح المنطلق من الإيمان الصادق بالله، وإلى الاستعانة على كل جليل من الأمور بالصبر والصلاة، وإلى ترك العصبيات العرقية والإقليمية الضيقة، وإلى نبذ الموروثات المغلوطة، والتقليد الأعمى، وإلى التمسك بتحكيم العقل من أجل الوصول إلى سلامة الحكم فى كل أمر من أمور الحياة، كما تنعى السورة الكريمة على كل من يدعو إلى الحق وفضائل الأعمال ثم ينسى نفسه، وتحذر بشدة من التعامل بالربا وتهدد الواقعين فيه بحرب من الله ورسوله، كما تحذر من كتم الشهادة، وتؤكد المحافظة على حقوق الآخرين بكل وسيلة مشروعة، وتحذر من التساهل فى التعامل مع ديون العباد، وتضع الشروط الواجبة لحفظ حقوق الآخرين .

(٣) مايزت سورة البقرة فى مواقع عديدة منها بين صفات كل من المتقين، والكفار، والمشركين، والمنافقين، وضربت نماذج لكل منهم، وألمحت إلى نعيم المتقين فى الجنة، وإلى عذاب كل من المنافقين والكفار والمشركين فى النار، وصورت

جانبًا من ذلهم وحيرتهم يوم القيامة، وحذرت المؤمنين من موالاتهم أو الركون إليهم فى الدنيا، كما حذرت من متابعة الشيطان الرجيم وأعوانه وجنده.

(٤) وللتأكيد على هذه المعانى والقيم، ألمحت سورة البقرة لقصة أبينا آدم عليه السلام وزوجه، وإلى جوانب من قصة نبى الله إبراهيم على نبينا وعليه السلام، وأشارت إلى اختلاف أتباع نبى الله عيسى عليه السلام من بعده بقول الحق - تبارك وتعالى - : ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

كما تحدثت سورة البقرة عن واقعة تحويل القبلة، وعن قرار الله - تعالى - بجعل أمة الإسلام أمة وسطًا ليكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليهم شهيدًا.

(٥) وختمت سورة البقرة بدعاء إلى الله - تعالى - يهز القلوب والعقول، ويحرك الضمائر والمشاعر حيث تقول: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

من الآيات الكونية فى سورة البقرة

(١) التأكيد على أن القرآن الكريم كتاب لا ريب فيه، وإشاراته الكونية تثبت هذه الحقيقة وتؤكدها (الآية ٢).

(٢) الإشارة إلى أمراض القلوب، ومنها الخوف، والوسوسة، والشك، فى زمن لم يكن معروفًا لأحد شىء من تلك الأمراض (الآية ١٠).

(٣) التمييز بين كل من الضياء والنور والنار، والمقابلة بين الظلمات والنور وهى من الحقائق العلمية التى لم يدركها الإنسان إلا فى القرن العشرين (الآية ١٧).

(٤) ذكر الصَّيِّب من السماء وهو المطر الغزير الذى يكثر هطوله بالليل، والمصحوب بالرعد والبرق والصواعق والعواصف، وهو تجمع فريد من الظواهر الكونية التى لم تدرك إلا مؤخرًا (الآية ١٩).

(٥) الإشارة إلى خطف البصر عن طريق النَّظر مباشرة بشيء من التركيز إلى ضوء البرق، وتقديم السمع على البصر (الآية ٢٠)، وهى إشارة إلى تكامل خلق حاسة السمع قبل تكامل حاسة البصر وهو ما أثبتته الدراسات فى علم الأجنة فى العقود المتأخرة من القرن العشرين.

(٦) الإشارة بأن الله - تعالى - هو خالق كل شيء (الآية ٢١).

(٧) الإشارة إلى فرش الأرض وتمهيدها، وبناء السماء وإحكامها وحبكها، وإنزال الماء من السحاب، وإخراج مختلف الثمرات بواسطته (الآية ٢٢).

(٨) ضرب المثل بالبعوضة وما فوقها وهى من الحشرات المميزة فى بناء جسدها، والخطيرة فى إيذائها للإنسان (الآية ٢٦).

(٩) التأكيد على أن الموت سابق للحياة ولاحق بها، وأن الله - تعالى - خلق ما فى الأرض جميعًا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم، ومثل هذه القضايا لا تستطيع العلوم المكتسبة الوصول إليها أبدًا لأنها خارجة عن نطاق القدرة البشرية وإمكاناتها المحدودة (الآية ٢٩).

(١٠) إثبات واقعة فلق البحر وفرقه إلى فرقتين كرامة ومعجزة لنبى الله موسى ﷺ، ونجاته ومن معه، وهلاك فرعون وجنده، وهى من حقائق التاريخ التى لم تكن معروفة للناس فى زمن الوحى (الآية ٥٠).

(١١) الإشارة إلى انفجار اثنتى عشرة عينًا من عيون الماء بضربة من عصا موسى ﷺ على الضفة الشرقية من خليج السويس فى منطقة تعرف اليوم باسم «عيون موسى» (الآية ٦٠).

(١٢) الإشارة بالمشرق والمغرب إلى الكون كله (الآيتان: ١١٥ - ١٤٢).

(١٣) اتخاذ المسجد الحرام قبلة للمسلمين والعلم الحديث يؤكد مركزيته بالنسبة لليابسة (الآيات: ١٤٤ - ١٥٠).

(١٤) الإشارة إلى حقيقة خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وإلى الفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس، وإلى إنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض به بعد موتها، وبث الدواب من كل نوع فيها، وتصريف

الرياح، والسحاب المسخر بين السماء والأرض، وجعل ذلك كله آيات لقوم يعقلون، والمعطيات العلمية تؤكد صدق ذلك كله وحجيته (الآية ١٦٤).

(١٥) التأكيد على حقيقة أن الأهلة هي مواقيت للناس والحج (الآية ١٨٩).

(١٦) إثبات ما في كل من الخمر والميسر من آثام تفوق أي نفع يمكن أن يجتنى من ورائهما(الآية ٢١٩)، والدراسات المتوفرة كلها تدعم ذلك وتؤيده .

(١٧) التحذير مما في المحيض من أذى (الآية ٢٢٢) والكشوف العلمية كلها تؤكده.

(١٨) التأكيد على حقيقة أن الجنة، أي الحديقة ذات الأشجار الكثيفة الملتفة على بعضها البعض بالربوة العالية إذا أصابها الوابل - أي المطر الشديد - آتت أكلها ضعفين، وهو لا يضرها باحتمال إغراقها بالسيول لارتفاعها وسرعة انحسار الماء عنها بعد أخذ كفايتها منه، وإن لم يصبها وابل فإن الطل - أي المطر الخفيف أو الرذاذ - يكفيها لري نباتاتها وطيب عطائها، والمقصود أن هذه الجنة تزكو وتزدهر وتثمر سواء كثر المطر عليها أو قل، وهو تشبيه قائم على حقيقة علمية راسخة، تصف إنفاق الصالحين ابتغاء مرضاة الله وتثبيتًا من أنفسهم بأنه يزكو عند الله ويطيب، زاد قدره أم قل، كما تزكو الجنة بالربوة زاد المطر عليها أو قل.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة مستقلة، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على الآية رقم (٢٢) من سورة البقرة وقبل الدخول إلى ذلك أرى لزامًا عليَّ استعراض أقوال عدد من المفسرين - القدامى والمعاصرين - في شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله - تعالى - :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١، ٢٢].

* ذكر ابن كثير - رحمه الله - ما مختصره : «فى بيان وحدانية ألوهيته بأنه هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود، وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة، بأن جعل لهم ﴿الأَرْضَ فِرَاشًا﴾ : أى مهدا كالفراش، مقررة موطأة مثبتة بالرواسي الشامخات، و﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ وهو السقف، كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ ، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ والمراد به السحاب ههنا فى وقته عند احتياجهم إليه؛ فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار رزقا لهم ولأنعامهم . ومضمونه : أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره، ولهذا قال : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾» . وأضاف : «قال ابن عباس، قال الله - تعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ للفريقين جميعا من الكفار والمنافقين، أى وحدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم . وعنه أيضا فى تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ : أى لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التى لا تنفع ولا تضر ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذى يدعوكم إليه الرسول ﷺ من التوحيد هو الحق الذى لا شك فيه» . وأضاف كذلك : «قال أبو العالية : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أى عدلاء شركاء، وقال مجاهد فى تفسير قوله تعالى : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُون﴾ قال: تعلمون أنه إله واحد فى التوراة والإنجيل» .

وأضاف ابن كثير عددًا من الأحاديث النبوية الشريفة والروايات فى معنى هذه الآية الكريمة تؤيد ما ذهب إليه فى تفسيرها .

* وجاء فى الظلال - رحم الله كاتبها برحمته الواسعة - تفسير الهاتين الآيتين الكريمتين ما نصه : «إنه النداء إلى الناس كلهم لعبادة ربهم الذى خلقهم والذين من قبلهم . ربهم الذى تفرد بالخلق، فوجب أن ينفرد بالعبادة . . . وللعبادة هدف لعلهم ينتهون إليه ويحققونه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. . . لعلكم تصيرون إلى تلك الصورة المختارة من صور البشرية، صورة العابدين لله، المتقين لله، الذين أدوا حق الربوبية الخالقة، فعبدوا الخالق وحده، رب الحاضرين والغابرين، وخالق الناس أجمعين، ورازقهم كذلك من الأرض والسماء بلا ند ولا شريك » .

﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا﴾ وهو تعبير يشى باليسر فى حياة البشر على هذه الأرض، وفى إعدادها لهم لتكون لهم سكنًا مريحًا وملجأ وافيًا كالفراش . . . والناس ينسون هذا الفراش الذى مهده الله لهم لطول ما ألفوه، ينسون هذا التوافق الذى جعله الله فى الأرض ليمهد لهم وسائل العيش، وما سخره لهم فيها من وسائل الراحة والمتاع، ولولا هذا التوافق ما قامت حياتهم على هذا الكوكب فى مثل هذا اليسر والطمأنينة . ولو فقد عنصر واحد من عناصر الحياة فى هذا الكوكب ما قام هؤلاء الأناسى فى غير البيئة التى تكفل لهم الحياة . ولو نقص عنصر واحد من عناصر الهواء عن قدره المرسوم لشق على الناس أن يلتقطوا أنفاسهم حتى لو قدرت لهم الحياة».

« ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ . . . فيها متانة البناء وتنسيق البناء . . . . . ».

«﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ . . . والماء النازل من السماء هو مادة الحياة الرئيسية للأحياء فى الأرض جميعًا . . . وقصة الماء فى الأرض، ودوره فى حياة الناس، وتوقف الحياة عليه فى كل صورها وأشكالها . . . كل هذا أمر لا يقبل المماحكة، فتكفى الإشارة إليه، والتذكير به، فى معرض الدعوة إلى عبادة الخالق الرازق الوهاب».

«وفى ذلك النداء تبرز كليتان من كليات التصور الإسلامى : وحدة الخالق لكل الخلائق ﴿الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، ووحدة الكون وتناسق وحداته وصداقته للحياة وللإنسان : ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ فهذا الكون أرضه مفروشة لهذا الإنسان، وسماؤه مبنية بنظام، معينة بالماء الذى تخرج به الثمرات رزقًا للناس . . والفضل فى هذا كله للخالق الواحد : ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ . . تعلمون أنه خلقكم والذين من قبلكم، وتعلمون أنه جعل لكم الأرض فراشًا والسماء بناء، وأنزل من السماء ماء، وأنه لم يكن له شريك يساعد، ولا ند يعارض، فالشرك به بعد هذا العلم تصرف لا يليق !».

«والأنداد التي يشدد القرآن في النهى عنها لتخلص عقيدة التوحيد نقية واضحة، قد لا تكون آلهة تعبد مع الله على النحو الساذج الذى كان يزاوله المشركون - ولايزالون - . . . فقد تكون الأنداد في صور أخرى خفية ؛ قد تكون في تعليق الرجاء بغير الله في أي صورة، وفي الخوف من غير الله في أي صورة، وفي الاعتقاد بنفع أو ضر من غير الله في أي صورة . . . .» .

وضرب كاتب الظلال عدداً من النماذج ثم أضاف : «هكذا كان سلف هذه الأمة ينظر إلى الشرك الخفى والأنداد مع الله . . فلننظر بحق أين نحن من هذه الحساسية المرهفة؟ وأين نحن من حقيقة التوحيد الكبيرة ؟!!» .

* وجاء في كل من تفسير الجلالين، وصفوة البيان لمعاني القرآن، والمنتخب في تفسير القرآن الكريم وصفوة التفاسير - جزى الله كاتبيها خيراً - كلام مشابه لا حاجة بنا لإعادته .

الدلالة العلمية للآية الكريمة

أولاً : في قوله - تعالى - : ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا﴾ :

تقدر مساحة سطح الأرض الحالية بنحو ٥١٠ ملايين كيلومتر مربع، منها ٢٩٪ - أى نحو ١٤٩ مليون كيلومتر مربع - يابسة، ٧١٪ - أى نحو ٣٦١ مليون كيلومتر مربع - مسطحات مائية، نصفها تقريبا - أى نحو ١٧٣,٦ مليون كيلومتر مربع - أرصفة قارية، أى أجزاء من حواف القارات مغمورة بالماء . وهذه الضخامة في أبعاد الأرض جعلتها تبدو مستوية بالنسبة إلى نظر الإنسان وإمكانات حسه .

وكل من سطح اليابسة وقيعان البحار والمحيطات ليس تام الاستواء، حيث إن كلاً منهما يتعرج في تضاريس متباينة؛ ويقدر ارتفاع أعلى قمة على سطح اليابسة (وهي قمة إڤرست) بأقل قليلاً من تسعة كيلومترات (٨,٨٤٨ م)، ويقدر منسوب أخفض نقطة على سطح اليابسة - وهي حوض البحر الميت - بنحو أربعمائة متر تحت مستوى سطح البحر، وقاع البحر الميت الذى تصل أعمق أجزائه إلى نحو ثمانمائة متر تحت مستوى سطح البحر يعتبر جزءاً من اليابسة لأنه بحر مغلق .

ويصل منسوب أعمق أغوار المحيطات - وهو «غور ماريانا» فى قاع المحيط الهادى بالقرب من جزر الفيليپين - إلى أكثر قليلا من الأحد عشر كيلومتراً (١١,٠٣٣كم). وبذلك يصل الفرق بين أعلى وأخفض نقطتين على سطح الكرة الأرضية إلى أقل قليلاً من العشرين كيلومتراً (١٩,٨٨١ كم)، وبنسبة ذلك إلى نصف قطر الأرض (المقدر بنحو ٦٣٧١ كيلومتراً فى المتوسط) يتضح أن الفارق بين أعلى وأخفض نقطتين على سطح الكرة الأرضية لا يكاد يتعدى ٠,٣٪ من طول نصف قطرها.

وإذا أخذنا الفرق بين متوسط ارتفاع اليابسة - والمقدر بنحو ٨٤٠ م فوق مستوى سطح البحر - ومتوسط أعماق البحار والمحيطات - والمقدر بنحو ٣٧٢٩ م إلى ٤٥٠٠ م - ونسبنا ذلك إلى نصف قطر الأرض - المقدر بنحو ٦٣٧١ كم - كانت النسبة فى حدود ٠,٠٧٪ وهذا يمثل قمة التسوية والتمهيد والفرش لسطح الأرض، خاصة إذا علمنا أن اليابسة بدأت بسلاسل من الجبال شديدة الوعورة، ثم سخر الله - تعالى - عمليات التعرية المختلفة من التجوية والتحات إلى النقل والترسيب فى تسوية تلك السلاسل الجبلية إلى تلال قليلة الارتفاع أو متوسطة، وسهول منبسطة تشقها الأودية والمجارى المائية التى تحمل رسوبياتها إلى السهول والمنخفضات كما تحملها إلى البحار والمحيطات، مكونة دالات (جمع دلتا) عملاقة ظاهرة ومغمورة تتقدم فى البحار التى تصب فيها، وهنا تنتهى عمليات تعرية سطح الأرض بوصوله إلى مستوى سطح البحر على هيئة سهل تحاتى منبسط.

وقد استمر الصراع بين العمليات الداخلية البانية لسطح الأرض، والعمليات الخارجية الهدمية التى تحاول أن تصل بسطح الأرض إلى مستوى سطح البحر فى دورات متتالية تعرف باسم «دورات شكل الأرض» (أو دورات التحات). وقد ظلت هذه الدورات تعمل على مدى ٤,٦ بليون سنة على الأقل حتى تم تمهيد سطح الأرض وبسطه، وجعله فراشًا للإنسان ولغيره من المخلوقات، وأمكن شق الفجاج والسبل فيه، وتكوين المجارى المائية، والبحيرات الداخلية، والأغوار والمنخفضات الأخرى، وسوف يظل الأمر كذلك حتى يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها، فى تبادل مستمر بين اليابسة والماء (القارات والمحيطات)، وبين المرتفعات

والمنخفضات، وبين دورات الصخـور، وغير ذلك من عمليات الاتزان الأرضى التى سخـرها ربنا ـ تبارك وتعـالى ـ فى تهيئـة الأرض لاستقـبال الحـياة، والتى لا تزال تعـمل إلى قـيام الـساعـة . وفى تلك الدورات المتبـادلة بين البناء والهـدم تكونت السهول الخصبة، والتربة الغنية، والركازات المختلفة من المعادن، والصخور التى تحوى فى أحشائها الكثير من خيرات الأرض التى تجمعت عبر ملايين السنين، فمعدلات تجمع الرسوبيات تتراوح بين مائة ومائتين من السنين لتجمع السنتيمتر الواحد من سمك الطبقات المترسبة، بينما تتراوح معدلات التعرية بين ثلاث سنوات وثلاثمائة سنة لإزالة سنتيمتر واحد من كتلة الصخور المتكونة، **وهذا يعنى أن عمليات تسـوية سطح الأرض حتى أصبحت صـالحة للعمران قد اسـتهلكت من الزمن والطاقة ما لا تستطيع البـشرية مجتمعة أن تقوم بـالوفاء بتكلفته، ومن هنا يَمُنُّ علينا ربنا ـ تبـارك وتعالى ـ بقوله ـ عـز من قائل ـ : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا ﴾. وذلك فى مقـام الاستـدلال على ألوهيتـه ووحدانيـته وطلاقة قـدرته فى إبداعه لخلقه.**

ثانيا : فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ .... وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ :

يَمُنُّ علينا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ أنه جعل السماء من فوقنا بناء محكمًا على ضخامة أبعادها، وتعدد أجرامها، وانتشار مختلف صور المادة والطاقة فيها، وذلك بعدد من القوى التى أودعها ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ فى كل جزئية من جزئياتها، ومن هذه القوى ما يلى :

(١) **القـوى النووية الشـديدة** : التى تمسك باللبنات الأولية للمادة فى داخل نوى الذرات، ولولاها ما تكونت تلك النوى، ولظل الكون مليئًا باللبنات الأولية للمادة فقط، والتى لا تعنى شيئًا.

(٢) **القوى النووية الضعيفة** : التى تمسك بالإليكترونات وتشدها إلى نوى الذرات، ولولاها ما تكونت ذرات المادة ولبقى الكون مليئًا بنوى ذرات المادة فقط .

(٣) **القوى الكهرومغـناطيسية** : التى تمسك بذرات المادة فى داخل كل من جزيئاتها ومركباتها، وهى التى تؤدى إلى حدوث الإشعاع الكهرومغناطيسى على هيئة

فوتونات الطاقة أو ما يعرف باسم «الكم الضوئى»، ولولا هذه القوة الكهرومغناطيسية لكان الكون مليئًا بذرات العناصر السائبة، ولما كانت هناك جزيئات، ولا مركبات، ولا نور، ولا دفء، ولاستحالت الحياة.

(٤) **قوى الجاذبية** : وهى القوى التى تمسك بأطراف السماء وبكل أجرامها، ومختلف تجمعاتها؛ ولولا هذا الرباط الحاكم الذى أودعه الله -تعالى- فى كل أجرام الكون ما كانت الأرض ولا كانت السماء، ولو زال هذا الرباط لانفرط عقد الكون وانهارت مكوناته، ومن هنا كانت المنَّة الإلهية بجعل السماء بناء .

ثالثا : فى قوله -تعالى- : ﴿ ... وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ :

أى أنزل من السحاب ماء عذبًا فراتًا لأن المصدر الرئيسى للماء النقى على سطح الأرض هو ماء المطر؛ وذلك لأنه منذ أن أخرج الله -تعالى- ماء الأرض من داخلها على هيئة بخار الماء الصاعد مع ثورات البراكين، وكثفه فى نطاق المناخ من الغلاف الغازى للأرض الذى يتبرد بالارتفاع، فرده مطرًا سال على سطح الأرض، وفاض إلى منخفضاتها مكونًا البحار والمحيطات، بدأت دورة الماء حول الأرض، ويقدر ما يرتفع من الأرض إلى غلافها الغازى سنويًا بنحو (٣٨٠,٠٠٠ كيلومتر مكعب) من الماء يتبخر أغلبه من أسطح البحار والمحيطات (٣٢٠,٠٠٠ كيلومتر مكعب)، ويرتفع الباقى من اليابسة (٦٠,٠٠٠ كيلومتر مكعب).

ويعود كل ما يتبخر من ماء الأرض إليها ثانية بمشيئة الله وإرادته لينزل منه على اليابسة (٩٦,٠٠٠ كيلومتر مكعب) وعلى البحار والمحيطات (٢٨٤,٠٠٠ كيلومتر مكعب)، وفى هذه الدورة المعجزة تكسب اليابسة سنويًا (٣٦,٠٠٠ كيلومتر مكعب) من ماء البحار والمحيطات ينزل عليها مطرًا يجرى ماء على سطح الأرض ويؤدى أدوارًا مهمة على اليابسة ثم يفيض إلى البحار والمحيطات مرة أخرى، وكل الماء المخزون تحت سطح الأرض -على كثرته- أصله من ماء المطر .

وفى هذه الدورة المعجزة للماء حول الأرض، يتحرك الماء إلى الغلاف الغازى للأرض فيتطهر مما تجمع به من أملاح وملوثات، ويعاود نزوله على الأرض ماء

طهوراً، وتمتد هذه الدورة من نحو الكيلومتر تحت مستوى سطح البحر إلى ارتفاع ١٥ كم فوق مستوى سطح البحر، فيتم بواسطتها تطهير الماء، وتلطيف الجو، وتوفير نسب متفاوتة من الرطوبة فيه، وري كل من الإنسان والحيوان والنبات، وتغذية كل من الأنهار والجداول، والتربة السطحية، وخزانات الماء تحت سطح الأرض فيعمل على زيادة كمياتها، وعلى تجديد عذوبتها، وعلى تعويض ما يفيض إلى السطح أو يضخ منها، كما يتم تفتيت الصخور، وتكوين كل من التربة والصخور الرسوبية، وتركيز العديد من المعادن والخامات الاقتصادية والصخور.

وكما يكون فى ماء المطر خير ورحمة، فقد يجعله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ عقابًا وعذابًا حينما تؤدى السيول الجارفة أو الفيضانات المغرقة للأنهار والجداول إلى دمار شامل يأتى على الحرث والنسل.

والغطاء الرسوبى للأرض الذى يقدر حجمه بأكثر من ٣٦٠,٠٠٠ كيلومتر مكعب يرجع الفضل فى تكوينه إلى دورة الماء حول الأرض، وما بهذا الغطاء من رسوبيات ملحية تقدر كتلتها بملايين الأطنان، ناتج عن عمليات التبخير بعد أن أذابته مياه الأمطار أصلاً من صخور اليابسة ثم حملته إلى البحار والمحيطات ليعود مرة أخرى إلى اليابسة فى دورات التبادل بين المحيطات والقارات، حينما يتحول المحيط إلى اليابسة.

رابعا: فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾:

جاء ذكر إخراج الثمرات من الأرض لتمثل النعمة الرابعة من نعم الله على العباد فى هذه الآية الكريمة، وهى نعمة لا تستقيم الحياة بدونها؛ وذلك لارتباط حياة كل من الإنسان والحيوان بالنبات ومنتجاته خاصة بثمار النباتات العليا. ومن هنا كانت حكمة الله البالغة فى خلق النبات ثم الحيوان، وبعد أن اكتملت كل صور الخلق وهيئت الأرض لاستقبال المخلوق المكرم الذى خلقه الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى أحسن تقويم، وجعله أكرم المخلوقات أجمعين، خلق الله ـ تبارك وتعالى ـ الإنسان منذ فترة لا تتعدى المائتى ألف من السنين بينما تاريخ الحياة على الأرض يرجع إلى ٣,٨ من بلايين السنين، ويقدر أقدم عمر معروف للأرض بحوالى ٤,٦ من بلايين السنين.

وقد جاء ذكر إخراج الثمرات من الأرض فى هذه الآية الكريمة فى تسلسل منطقى جميل، أشار أولاً إلى تكوين التربة بواسطة عمليات التعرية المختلفة ـ من التجوية والتحات إلى النقل والترسيب ـ التى فتتت صخور الأرض، وكونت السهول المنبسطة، والتربة الخصبة اللازمة للإنبات، وجعلت الأرض فراشًا ممهدًا لحياة كل من النبات والحيوان والإنسان . ثم أشارت إلى بناء السماء وأولها الغلاف الغازى للأرض والسحاب المسخر بينهما فى نطاق المناخ الذى خصه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بالتبرد مع الارتفاع حتى يتكثف فيه بخار الماء المرتفع من الأرض فيعود إليها مطرا بإذن الله .. ولذلك أشارت الآية الكريمة إلى إنزال الماء من السماء، فأخرج الله ـ تعالى ـ به مختلف الثمرات رزقًا للعباد، وهى من نعم الله العديدة على الإنسان وعلى ما حوله من مخلوقات .

وتشمل الثمرات كل جزء يستخدمه الإنسان من النبات سواء كان هذا الجزء من جذور النبات أو سيقانه أو أوراقه أو أزهاره أو ثماره، وبذلك تقسم الثمرات إلى ثمرات حقيقية وأخرى غير حقيقية . . ومن الثمرات الحقيقية ثمرات الفاكهة، التى تمثل الثمرة فيها مبيض الزهرة بعد تمام إخصابه بحبوب اللقاح، وتكون جنين النبتة فى البذرة (أو البذور) محاطا بالعديد من الأغلفة النباتية لحمايته ولتغذية الجنين فى وقت إنباته، وقد تمثل الثمرة بالبذرة (أو البذور) فى حالات الحبوب والبقول بأنواعها المختلفة . ووظيفة الثمار الأولى هى المحافظة على جنين النبتة فى داخل البذرة (أو البذور) ومده بالغذاء فى وقت الإنبات، ومساعدة هذا النوع من النبات على استمرارية الوجود على الأرض إلى أن يشاء الله، وعلى انتشاره الأفقى فى الأرض بانتشار بذوره، ولولا ذلك لانقرضت أنواع النباتات العليا . ووظيفة الثمار الثانية هى غذاء كل من الإنسان والحيوان .

وتقسم الثمار الحقيقية إلى ثمار بسيطة، ومجمعة، ومركبة، وتقسم الثمار البسيطة إلى جافة، وغضة، أما الثمار المجمعة المركبة فأغلبها غض ؛ والثمار غير الحقيقية هى الثمار التى تدخل فى تركيبها أجزاء أخرى غير المبيض، وهذه أيضا إما أن تكون بسيطة كالتفاح، أو مجمعة كالشليك، أو مركبة من مثل كل من التين والتوت، والفراولة أو قد تكون جزءًا من النبات غير النورة والزهرة .

ومن ثمرات النبات ما يمثل غذاء رئيسيًا للإنسان، ولما يستخدمه من مختلف أنواع الحيوان، ومنها ما يعتبر مصدرًا لكثير من الزيوت والدهون والأصباغ والألوان التى يستخدمها الإنسان فى طعامه وصناعاته المختلفة، ومنها ما يستخدم مصدرًا للعديد من أنواع الدواء التى يحتاجها كل من الإنسان والحيوان فى تطبيب أمراضه، وعلاج أوجاعه، ومن هنا كان إخراج الثمرات من الأرض من رزق الله الذى يمتن به على عباده، ومن الشهادات الناطقة بطلاقة القدرة الإلهية فى إبداع الخلق وتنوعه.

خامسًا: فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ :

بعد استعراض جانب من نعم الله على العباد جاء الأمر الإلهى بتحريم الإشراك بالله أندادا لا تنفع ولا تضر، ولا تملك لنفسها من أمر الله شيئًا، وكل عاقل يدرك أن الله ـ تعالى ـ وحده هو الخالق الرازق ذو القوة المتين، وأن الخلق جميعًا عبيده، ولذلك عندما سئل رسول الله ﷺ : أى الذنب أعظم عند الله؟ قال : «**أن تجعل لله ندا وهو خلقك**»[1] وقوله ﷺ لمعاذ بن جبل : «**أتدرى ما حق الله على عباده؟**» ثم أجاب ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ : بقوله الشريف : «**أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا**»[2] .

هذه الحقائق التى ساقتها الآية الكريمة لتنتهى إلى الأمر بتوحيد الله الخلاق الرزاق العليم، وإلى النهى عن الشرك الذى وصفه ابن عباس بقوله : «الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ظلمة الليل . . . . ».

هذه الحقائق الكونية لم يصل إليها علم الإنسان إلا فى القرنين التاسع عشر والعشرين، وورودها فى كتاب الله المنزل من قبل أربعة عشر قرنًا لما يقطع بأنه كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة والرسالة للنبى والرسول الخاتم الذى تلقاه، كما يشهد بصدق ما جاء به من الدعوة إلى التوحيد الخالص لله، وعبادته ـ تعالى ـ وحده بما أمر، (بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد)، فأشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين ـ والحمد لله رب العالمين.

---

(١) البخارى فى «صحيحة» (٤٤٧٧)، ومسلم فى «صحيحه» (١٤١/ ٨٦).

(٢) البخارى فى «صحيحه» (٥٩٦٧)، ومسلم فى «صحيحه» (٤٨/ ٣٠).

الخاتمة

جاءت لفظة الأرض فى القرآن الكريم فى أربعمائة وواحد وستين (٤٦١) موضعًا لتصف الكوكب الذى نحيا عليه فى مجمله، أو لتصف كتل القارات والجزر التى تعرف فى مجموعها باسم اليابسة، أو لتشير إلي قطاع التربة الذى يغطى صخور اليابسة، والمعنى يحدده السياق القرآنى.

وأرضنا عبارة عن شبه كرة من الصخر يقدر حجمها بحوالى المليون من الكيلو مترات المكعبة، ومتوسط كثافتها بنحو ٥,٥٢ جرام للسنتيمتر المكعب، وعلى ذلك فإن كتلتها تقدر بحوالى الستة آلا ف مليون مليون مليون طن (٦×١٠^٢١ طنًا).

والأرض هى ثالثة كواكب المجموعة الشمسية بعدًا عن الشمس، وتفصلها عنها مسافة يقدر متوسط طولها بحوالى المائة وخمسين مليون كيلو متر. وتدور الأرض حول نفسها بسرعة مقدارها فى زمننا الحالى حوالي الثلاثين كيلو متر فى الدقيقة (٢٧,٨ كيلو متر/ دقيقة) عند خط الاستواء؛ لتتم دورتها هذه فى يوم مقداره ٢٤ ساعة تقريبًا، يتقاسمه ليل ونهار بتفاوت يزيد وينقص حسب الفصول التى تنتج بسبب ميل محور دوران الأرض على دائرة البروج بزاوية مقدارها ست وستون درجة ونصف الدرجة تقريبًا.

وتجرى الأرض حول الشمس فى فلك بيضاوى (إهليلجى) قليل الاستطالة بسرعة تقدر بحوالى ثلاثين كيلو متر فى الثانية (٢٩,٦ كيلو متر/ ثانية)؛ لتتم دورتها هذه فى سنة شمسية مقدارها ٣٦٥,٢٥ يوم تقريبًا من أيامنا الحالية، وتتقاسم السنة الشمسية فصول أربعة هى: الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء.

والأرض جزء من الكون الذى يقدر عمره بنحو الأربعة عشر بليونًا من السنين (١٤×١٠^٩ سنة)، وإن كان أقدم عمر معروف للأرض يقدر بحوالى الخمسة بلايين

من السنين فقط (٦ , ٤ بليون سنة)، والسبب فى ذلك أن صخور الأرض تدخل فى دورات من الانصهار الكامل وإعادة التبلور مما يطمس بعض معالم قدم الأرض، وإلا فإن المشاهدات الكونية، والمنطق السوى يدعمان الحقيقة القرآنية التى تقرر أن السماء والأرض قد خلقتا فى وقت واحد، وذلك بقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقوله (عز من قائل):

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١].

ويقدر عمر أقدم أثر للحياة على الأرض بنحو ٨ , ٣ بليون سنة، بينما لا يتعدى أقدم أثر للإنسان على سطح الأرض المائة ألف سنة. ومعنى ذلك أن الأرض قد استغرقت أكثر من ثمانمائة مليون سنة من أجل إعدادها لاستقبال الحياة، وأربعة آلاف وستمائة مليون سنة على أقل تقدير لاستقبال ذلك المخلوق المكرم المعروف باسم الإنسان. ومن المسلم به أن ربنا (تبارك وتعالى) قادر على أن يقول للشيء (كن فيكون)، ولكن ربما كان من مبررات الخلق على هذه الآماد الطويلة هو إتاحة الفرصة للإنسان - بإمكاناته المحدودة - للتعرف على سنن الله في الخلق، وتوظيفها في عمارة الحياة على الأرض، وربما كان من مبررات ذلك أيضًا التأكيد على أن كلاً من الزمان والمكان - وإن كان من الحدود التى تحد الإنسان وغيره من المخلوقات فى هذا الكون الحادث - إلا أنه يبقى من خلق الله تعالى، والمخلوق لا يحد خالقه أبدًا، وعلى ذلك فإن كلاً من الماضى والحاضر والمستقبل هو حاضر عند الله - سبحانه وتعالى - الذى هو فوق كلٍّ من المكان والزمان، والمادة والطاقة، وفوق الكون كله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

من أجل ذلك أشار القرآن الكريم إلى هذا الجانب الهام من تاريخ الأرض ألا وهو «مراحل تهيئة الأرض لاستقبال الحياة» وهى مما يشهد لله الخالق - سبحانه

وتعـالى ـ بطلاقـةالقـدرة فى إبداعـه للخلق، وإحكام صنعـه، ووضع ضـوابطه وقوانينه وسننه.

وانطلاقًا من ذلك كـان هذا الكتاب الذى يعالج بعض آيات القرآن الكريم التى تعرض لقضية تهيئة الأرض لاستقبال الحياة، التى كان أولها الحياة النباتية، وقد تناولت الأبواب الثلاثة الأولى من الكتاب القضايا العامة التالية:

١ ـ قضية إعجاز القرآن الكريم.

٢ ـ موقف المفسرين من الآيات الكونية فى كتاب الله.

٣ـ الضوابط اللازمة للتعامل مع قضية الإعجاز العلمى للقرآن الكريم.

وتناولت الأبواب الباقية خمس آيات قرآنية كريمة اهتمت كل آية منها بمرحلة أو أكثر من مراحل إعداد الأرض لاستقبال الحياة، وهى فى مجموعها تشكل منظومة معجزة من آيات الكتاب العزيز تشرح فترة من فترات تاريخ الأرض القديم لم تكن معروفة لأحد من الخلق فى زمن الوحى ولا لقرون متطاولة من بعده، وورودها فى كتاب الله الذى أنزل منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا على نبى أمى ﷺ، وفى أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين لمما يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق الذى أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذى قطعه على ذاته العلية على مدى أربعة عشر قرنًا أو يزيد، وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها، وحفظه فى نفس لغة وحيه (اللغة العربية): كلمة كلمة، وحرفًا حرفا، وآية آية، وسورة سورة، حتى يبقى حجة على جميع الخلق إلي قيام الساعة شاهدًا لله تعالى بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، ومؤيدًا لنبوة ورسالة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد النبى الأمين ﷺ ومؤكدًا على أنه كان موصولاً بالوحى، ومؤيدًا من قبل رب العالمين ـ سبحانه وتعالى.

والآيات القرآنية الخمس التى تناولها هذا الكتاب هى كما يلى:

١ ـ ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

٢ ـ ﴿...وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

٣ ـ ﴿ ... وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت : ١٠].

٤ ـ ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٩].

٥ ـ ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٢].

ومن الحقائق العلمية التى سبقت بها هذه الآيات القرآنية الكريمة الخمس ما يلى :

١ ـ إن الكون الذى نحيا فيه مخلوق، خلقه الله ـ تعالى ـ بعلمه وقدرته وحكمته، وكل مخلوق له بداية تحاول العلوم الكونية تقديرها، ووصلت فى ذلك إل قرابة الأربعة عشر بليونًا من السنين. وكل ما له بداية لابد وأن ستكون له فى يوم من الأيام نهاية لا يعلمها إلا رب العالمين؛ لأن الآخرة لها من السنن والقوانين ما يغاير سنن الدنيا تمامًا، وهى لا تأتى إلا بغتة بأمر من الله ـ تعالى ـ ﴿كن فيكون﴾، وإن كان ربنا ـ تبارك وتعالى ـ قد ترك لنا فى صخور الأرض وفى صفحة السماء عددًا من الشواهد الحسية التى تشير إلي حتمية وقوع الآخرة دون إمكانية لتحديد موعدها؛ لأن سننها مغايرة لسنن الدنيا تمامًا كما سبق وأن أشرنا فـ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾.

٢ ـ إن الله ـ تعالى ـ خلق الماء قبل خلق الحياة، وخلق من الماء كل شىء حى، وخلق الحياة فى الماء قبل خلقها على اليابسة بأكثر من ثلاثة آلاف وأربعمائة مليون سنة (٣,٤×١٠^٩ سنة)، وجعل جميع العمليات الحيوية لا تتم في غيبة الماء، ولذلك قال عز من قائل: ﴿ ...وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾.

٣ ـ إن الله ـ تعالى ـ خلق كلاً من الأرض والسماء فى يومين (أى على مرحلتين متتاليتين)، وألقى فى الأرض رواسى من فوقها، وبارك فيها، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام (أى أربع مراحل متتالية.

٤ ـ إن الله ـ تعالى ـ خلق كل شىء ـ من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان فى زوجية واضحة حتى يبقى (جل جلاله) متفردًا بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، ولذلك قال ـعز من قائلـ: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

٥ - إن الله الخالق - سبحانه وتعالى - سخر كلاً من عمليات التجوية، والتحات، والتعرية، والنقل، والترسيب لتسوية سطح الأرض، وشق الفجاج والسبل والمجارى المائية فيها، وتكوين كلّ من السهول المنبسطة، والتربة الخصبة التى تحمل المركبات العضوية وغير العضوية، والرطوبة، والبذور النباتية المختلفة والتى بدونها ما أنبتت الأرض.

وفى أثناء هذه العمليات يتكون كلٌ من الرسوبيات، والصخور الرسوبية بمخزونها من الثروات المائية، والنفطية، والمعدنية، ويتمايز العديد من ركائز المعادن، وتصبح الأرض صالحة للعمران بعد أن جعلها الله - تعالى - فراشًا سهلاً للإنسان ولغيره من المخلوقات.

وسوف تظل هذه العمليات الأرضية التى سخرها ربنا (تبارك وتعالى) إلى ما شاء الله؛ لأنها لو توقفت لتوقفت الحياة، على الرغم من كونها عمليات بطيئة فالسنتيمتر الواحد من سمك الطبقات المترسبة تقدر له فترة تتراوح بين المائة والمائتين من السنين كى يتجمع، وما بين ثلاث سنوات وثلاثمائة سنة كى يزال من مكانه بواسطة عمليات التعرية مما يؤكد أن عمليات تسوية سطح الأرض قد استهلكت من الوقت والطاقة ما لا قبل للإنسان به.

كذلك سخر ربنا - تبارك وتعالى - من القوى غير المرئية ما يمسك بالسماء وأجرامها وغازاتها، ومختلف صور المادة والطاقة فيها، حتى صارت بناءً محكمًا من الذرة إلى المجرة.

وأحكم الخالق (سبحانه وتعالى) دورة الماء حول الأرض، ولولاها لفسد ماء الأرض، ومن هنا كانت الإشارة القرآنية إلى إنزال الماء من السماء تأكيدًا لنعمة من نعم الله الكبرى، والتى بدونها ما كانت الحياة، وأتبعت الإشارة إلى نعمة إنزال الماء من السماء بنعمة إخراج الثمرات، وذلك لارتباط حياة كلٍّ من الإنسان والحيوان بالنبات وثماره، وارتباط مختلف صور الحياة بالماء.

ومن هنا كانت حكمة الله البالغة فى خلق النبات أولاً، ثم خلق الحيوان حتى هيئت الأرض لاستقبال خلق الإنسان ذلك المخلوق الذى كرمه الله - تعالى - بجعله

أكرم المخلوقات أجمعين إذا استقام على طريق الله والتزم به، وفهم حقيقة رسالته فى هذه الحياة.

وهذه القضايا الخمس تمت مناقشتها في كتابنا هذا، وسوف تتبع ـ إن شاء الله تعالى ـ بالعديد من غيرها من قضايا إعداد الأرض لاستقبال الحياة من مثل القضايا التالية:

١ ـ إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد جعل فى تربة الأرض القدرة على تشرب الماء (التميؤ) مما يؤدى إلى زيادة حجمها وانتفاخها وانتفاضها إلى أعلى بمجرد نزول الماء عليها، ويساعد على ذلك ما يقوم به الماء من طرد للغازات الحبيسة بين رقائق المعادن الصلصالية، ومن تحويل لحبيبات الصلصال الدقيقة إلى الحالة الغروية وهى حالة متحركة، تتدافع فيها الجسيمات المادية الدقيقة بأقدار غير متساوية فى جميع الاتجاهات، وما يتم أثناء ذلك من عمليات إحلال كيميائية، ومن عمليات تنافر بين الشحنات الكهربية المتشابهة فى كل من جزىء الماء المزدوج القطبية وأيونات العناصر المختلفة الموجودة فى التربة أو على أسطح الراقات الصلصالية. ويعين على ذلك أيضًا إنبات البذور وانتعاش غيرها من صور الحياة وبقاياها بمجرد وصول الماء إليها فتحدث زيادة كبيرة فى حجمها وفى نشاطها الحيوى مما يؤدى إلى ارتفاع التربة إلى أعلى حتى ترق رقة شديدة فتنشق لتفسح طريقًا سهلاً لخروج السويقات المندفعة من داخل البذور النابتة إلى ما فوق سطح الأرض. ولذلك قال ربنا ـ تبارك وتعالى: ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: ٥]

٢ ـ إن الماء المخزون فى بعض الصخور المسامية والمنفذة المكونة لقشرة الأرض مستمد أصلاً من ماء المطر وهى حقيقة لم تعرف فى الغرب إلا فى أواخر القرن التاسع عشر (١٨٧٧م).

وهذا الماء يخرجه ربنا (تبارك وتعالى) بقدرته على هيئة ينابيع الأرض فيخرج به الزروع المختلفة الأنواع والألوان من تربة واحدة، وتسقى بماء واحد مما يشير إلى بديع صنع الله بما وهبه لكل نبتة من القدرة على اختيار ما يناسبها من عناصر الأرض ومركباتها حتى تأخذ شكلها وتعطى ثمارها التى تميزها عن غيرها.

هذا إذا كان المقصود بألوان الزروع والنباتات هو أنواعها وأصنافها، أما إذا كان المقصود هو الألوان التى تتراءى لعين الإنسان فسببها عدد من الأصباغ النباتية الأساسية التى وهبها الله - تعالى - لكل نبات، والتى تطغى عليها الأصباغ الخضراء فى بدء حياة النبات لحاجة النبات إليها فى عملية التمثيل الضوئى، ولكن عند تمام نضج الثمار تتوقف حاجة النبات إلى الغذاء، وبالتالى يتوقف إنتاجه للأصباغ الخضراء، ويبدأ ما تبقى منها فى التحول إلى عدد من المركبات الكيميائية التى تفتقر إلى الخضرة وهنا تبدأ الأصباغ الصفراء فى الظهور التدريجى حتى تسود، وفى ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى - ﴿ ... **ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا** ﴾. وفى حالة النباتات الحولية يفقد النبات ما به من ماء بالتدريج حتى يجف بالكامل، وتبقى مواده الصلبة، ويبدأ فى التحلل حتى يتحول إلى حطام، يصفه القرآن الكريم بقول ربنا - تبارك وتعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾ [الزمر: ٢١].

٣- إن إنزال الماء من السحاب يتم بعمليات معقدة للغاية يتدخل فيها من العوامل ما لا تستطيعه قدرة الإنسان من مثل تصريف الرياح، وتبخير الماء، وتكون السحب، وتلقيحها بنوى التكثف، وتجمع قطيرات الماء فيها بالتدريج إلى الكتل التى يعجز الهواء عن حملها فتسقط مطرًا أو بردًا أو ثلجًا بأمر الله - تعالى - حيث يشاء وبالقدر الذى يشاء. وبنزول الماء إلى الأرض تبدأ له دورة منضبطه حولها تتم بقدر من الإحكام والثبات المبهر.

ويعتبر ماء المطر والثلوج المتساقطة معه أنقى حالات الماء الطبيعى حيث لا تزيد ملوحته عن عشرين جزءًا فى المليون، ولكن ما إن ينزل هذا الماء على الأرض ويجرى على سطحها حتى يبدأ فى إذابة العديد من أملاحه القابلة للذوبان فيه، ثم يتدفق فى المجارى المائية المختلفة حتى يفيض إلى عدد من البحيرات أو البحار والمحيطات بعد أن يتسرب جزء منه إلى المخزون المائى تحت سطح الأرض فيجدد عذوبته، ولولا دورة الماء هذه ما وجد الإنسان قطرة ماء صالحة للشرب، وذلك لأن غالبية ماء الأرض (٩٧,٢٢٪ من مجموع ماء الأرض) هو ماء البحار والمحيطات

وهو ماء مالح لا يصلح للشرب، حيث تتراوح ملوحته بين (٣٢٠٠٠) جزء فى المليون، (٤٢,٠٠٠) جزء فى المليون ويصل إلى (٢٨٥,٠٠٠) جزء فى المليون فى بحر مغلق كالبحر الميت، وماء الشرب لا تتعدى ملوحته (١,٠٠٠) جزء فى المليون.

ويمثل الغطاء الجليدى لكلٍّ من قطبى الأرض وقمم الجبال حوالى (٢,١٥٪) من مجموع ماء الأرض، بينما يمثل المخزون المائى فى صخور قشرة الأرض حوالى (٠,٦١٣٪) والباقى وهو حوالى (٠,٠١٧٪) يمثل مجموع الماء الجارى فى الأنهار والجداول، ومياه البحيرات الداخلية ورطوبة كل من التربة والجو، ولذلك يمن علينا ربنا - تبارك وتعالى - بقوله العزيز: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ**﴾ [النحل: ١٠].

ومن الثابت علميًّا أن النباتات الأرضية يرجع تاريخها إلى (٤٤٠) مليون سنة مضت، وأنها سابقة فى وجودها للحيوانات الأرضية، وذلك لحاجة تلك الحيوانات إلى النباتات فى غذائها وفى إمداد الغلاف الغازى للأرض بالأكسچين اللازم لتنفسها، ومن هنا كان اعتماد كلٍّ من الإنسان والحيوان على النبات فى غذائه وفى تنفسه، وكانت الحكمة الإلهية البالغة فى ترتيب ذلك وفى الإشارة إليه بقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿... **لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ**﴾ [النحل: ١٠].

٤ - التأكيد على أن جميع ما فى السماوات السبع، وما فى الأرض، وما بينهما، وما تحت الثرى هو ملك خالص لله - تعالى -، وما فى السماوات يشمل الملائكة وأجرام السماء الدنيا ومختلف صور المادة والطاقة فيها وما لا نعلمه فى السماوات العلى، والبينيه الفاصلة بين الأرض والسماوات تؤكد مركزية الأرض بالنسبة للكون؛ و(ما فى الأرض) يشمل الإنسان، والحيوان، والنبات، وجميع الخيرات والثروات الأرضية المعروفة وغير المعروفة من مختلف صور المادة والطاقة؛ (وما تحت الثرى) تعبير يشير إلى ازدهار الحياة فى تربة الأرض، وكل ذلك من نعم الله على العباد، ومن الحقائق التى لم تكن معروفة فى زمن الوحى، ولذلك قال ربنا - تبارك وتعالى: ﴿**لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ**﴾ [طه: ٦].

وآيات تهيئة الأرض لاستقبال الحياة عديدة فى القرآن الكريم ، اخترنا منها هنا تسع آيات فقط تتنوع فيها مراحل التهيئة ، ويتضح فيها عدد من الحقائق العلمية التى سبق القرآن الكريم بالإشارة إليها جميع المعارف البشرية بأكثر من عشرة قرون .

وسوف نتبع هذه الآيات الخمس بغيرها ـ إن شاء الله تعالى .

والسبق القرآنى بالإشارة إلى عدد من حقائق الكون التى لم تستطع العلوم المكتسبة الوصول إليها إلا بعد قرون متطاولة من بعد زمن الوحى ، وبمجاهدات استغرقت آلاف العلماء لمئات من السنين حتى تمكنت من إثباتها هو ما يعرف باسم «**الإعجاز العلمى للقرآن الكريم**» ، وهو إعجاز لأن التاريخ يثبت أنه لم يكن ممكنًا لأحد من الخلق إدراك تلك الحقائق فى زمن الوحى ، ولا لقرون عديدة من بعده .

أما توظيف المعارف المكتسبة فى تفسير الإشارات الكونية الواردة فى كتاب الله فيعرف باسم «**التفسير العلمى للقرآن الكريم**» . ولابد من الحرص على توظيف الحقائق العلمية الثابتة فى الحالين من أجل حسن فهم دلالة الآية القرآنية الكريمة وإثبات السبق لها ، ولكن لما كان العلم لم يصل بعد إلى الحقيقة فى كل أمر من أمور الكون ، فإنى لا أرى حرجًا من توظيف النظرية العلمية السائدة والمقبولة فى تفسير الآية القرآنية الكريمة التى تعرض لأمر من أمور الكون لم يحسمه العلم المكتسب بعد ، وذلك لأن التفسير يبقى محاولة بشرية لحسن فهم دلالة الآية القرآنية ، إن أصاب فيه المفسر فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر واحد ، والمعول على النية .

أما الإعجاز العلمى للقرآن الكريم فلا يجوز أن يوظف فيه إلا كل قطعى ثابت من الحقائق العلمية التى حسمها العلم ، وذلك لأن الإعجاز هو موقف من مواقف التحدى ، والمتحدى لابد وأن يكون واقفًا على أرضية صلبة خاصة إذا كان يتحدى بكلام الله ـ تعالى .

ولهذه القاعدة الذهبية استثناء واحد فى حالة الآيات القرآنية الكريمة التى تتحدث عن الخلق بأبعاده الثلاثة : خلق الكون ، خلق الحياة ، وخلق الإنسان ، وعن الإفناء والبعث ؛ لأن هذه من القضايا التى لا تخضع لإدراك الإنسان المباشر ، ومن ثم لا تستطيع العلوم المكتسبة أن تتجاوز فيها مرحلة التنظير ، وتتعدد النظريات

بتعدد خلفية واضعيها، ويبقى للمسلم نور من الله ـ تعالى ـ في آية قرآنية كريمة، أو حديث نبوى صحيح يمكن توظيفه في الارتقاء بإحدى هذه النظريات إلى مقام الحقيقة لمجرد وجود مثل هذه الإشارات القرآنية الكريمة أو النبوية الشريفة إليها. ونكون في هذه الحالة قد انتصرنا بالقرآن الكريم أو بالحديث النبوى الشريف للعلم وليس العكس.

كذلك يمكن بإمعان النظر في كتاب الله أو في أحاديث رسول الله ﷺ أن يتوصل المسلمون إلى عدد من الحقائق العلمية في قضايا لا تزال غامضة أمام العلماء، وما أكثر أمثال تلك القضايا.

والإشارات الكونية في كتاب الله تتعدى الألف آية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقترب دلالتها من الصراحة، والاهتمام بدراسة هذه الآيات من قبل أعداد من المتخصصين ـ كل في حقل تخصصه ـ لشرح دلالاتها في ضوء الحقائق العلمية المتاحة، ولإبراز جوانب الإعجاز العلمي فيها يعتبر من أنجع وسائل الدعوة إلى دين الله في زمن تفجر المعارف العلمية الذى نعيشه، تثبيتًا للمؤمنين على إيمانهم، ودعوة للكفار والمشركين إلى الهداية الربانية بلغة العلم الذى لم يعودوا يرتضون غيره. ومع تسليمنا بأن القرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية للإنسان في القضايا التى لا يستطيع وضع ضوابط صحيحة لنفسه فيها من مثل قضايا العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات وهى ركائز الدين، وذلك لأن العقيدة قائمة على عدد من الغيبيات المطلقة، والعبادات قائمة على عدد من الأوامر الربانية الخالصة، والأخلاق والمعاملات من ضوابط السلوك، والتاريخ يثبت أن الإنسان كان عاجزاً دومًا عن وضع ضوابط صحيحة لسلوكه.

ومع تسليمنا كذلك بأن الإشارات الكونية في كتاب الله ـ تعالى ـ جاءت في مقام الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة في الخلق، وللشهادة على أن الخالق المبدع قادر على إفناء خلقه، وعلى إعادة بعثه، وكانت قضية البعث هى حجة الكافرين والمشركين والمتشككين عبر التاريخ.

وأن هذه الآيات الكونية جاءت أيضًا شاهدة على وحدانية الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ المنزه عن جميع صفات خلقه، والآيات تؤكد أن جميع الخلق موجود في زوجية واضحة، حتى يبقى ربنا متفرداً بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

ومع تسليمنا بكل ذلك فإننا نؤمن بأن هذه الآيات الكونية فى كتاب الله تبقى خطابًا لأهل عصرنا، عصر التقدم العلمى والتقنى الذى نعيشه، وغالبية أهله قد فتنوا بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة، وأصبحوا لا يقبلون غير الحجة العلمية الثابتة. وهذه الآيات القرآنية الكونية الكريمة بما لها من دقة التعبير، والشمول، والإحاطة بالحقائق العلمية الواردة فيها تبقى أقوى حجة على أهل هذا العصر وعلى من سوف يأتون من بعدهم إلى قيام الساعة مادامت البشرية محتفظة بزخمها العلمى، وذلك لأنه لا يمكن لعاقل أن يتصور مصدراً لهذا الكم الهائل من الحقائق العلمية الأساسية فى كتاب أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة، غير الله الخالق الذى أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده فى نفس لغة وحيه لهذا المدى الطويل من السنين، وإلى قيام الساعة - إن شاء الله - دون أن يضاف إليه حرف واحد أو أن ينتقص منه حرف واحد. لأنه إذا ثبت لأهل العلم دقة الإشارات العلمية فى كتاب الله ثبت لهم كل ما جاء به من أمور العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات، ومن أخبار الأمم السابقة، والتنبؤات المستقبلية، وغير ذلك من أمور الغيب.

وإذا استطعنا إقامة الحجة على أهل عصرنا - باللغة التى يفهمونها - أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن النبى والرسول الخاتم الذى تلقاه كان موصولاً بالوحى، ومعلمًا من قبل خالق السماوات والأرض استطعنا تحييد هذا الكم الهائل من الكراهية الشديدة التى تمكن أعداء الله من غلاة الصهاينة وغلاة الصليبيين، وغلاة غيرهم من مختلف ضروب الكفار والمشركين من غرسها فى قلوب أهل الأرض ضد كل من الإسلام والمسلمين. وربما استطعنا كسب نفر من الناس إلى قبول الإسلام العظيم دينًا، وهو واجب من واجبات المسلمين، لا حبًّا فى الهيمنة على الخلق، واستعبادهم، وإفسادهم، واستنزاف ثروات بلادهم، كما فعل المستعمرون القدامى والجدد باسم الصليب، أو الصليب المعقوف، أو نجمة داود، ولكن انطلاقًا من إيماننا بالأخوة الإنسانية التى وصفها الحق - تبارك وتعالى - بقوله - عز من قائل: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً** ﴾ [النساء: ١].

وأكد على هذه الأخوة الإنسانية خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بقوله الشريف: «**الناس بنو آدم،وخلق الله آدم من التراب**»[1].

وإنقاذ فرد واحد من بنى آدم من الخلود فى النار يعتبر من أعظم الإنجازات التى يمكن أن يحققها المسلم فى حياته انطلاقًا من قول رسول الله ﷺ: «**لأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا خير لك من الدنيا وما فيها، أو مما طلعت عليه الشمس، أو من حمر النعم**»[2].

وقوله ﷺ: «**بلغوا عنى ولو آية، فرب مبلغ أوعى من سامع**»[3].

وفى زمن الفتن الذى نعيشه اليوم، وزمن التحدى السافر للإسلام والتعدى الجائر على المسلمين أجدنا فى أمس الحاجة إلى إبراز جوانب الإعجاز العلمى فى كتاب الله، وفى سنة رسوله ﷺ دفاعًا عن هذا الدين الذى لا يرتضى ربنا من عباده دينا سواه، ودفاعًا عن أمة خاتم الأنبياء والمرسلين الذى ليس من بعده من نبى ولا من رسول، وذودًا عن حياض أمة الإسلام، ودماء أبنائها، وأعراضها، ومقدساتها لأن عوالم الكفر والشرك والإلحاد من حولنا لا تزال تنكر القرآن الكريم، وتنكر نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ، إن لم تتنكر لرب العالمين، وتكفر بالآخرة والبعث والحساب والجنة والنار، وتتنكر لحقيقة الأخوة الإنسانية.

وفى زمن تفجر المعرفة العلمية الذى نعيشه لا نجد لغة تصلح لخطاب هؤلاء الضالين أنسب من لغة العلم، وذلك لأن العقائد الدينية، والقيم الأخلاقية، والضوابط السلوكية لم تعد تحرك فى قلوب هؤلاء الضالين ساكنًا، وقد حرفوا أديانهم إن كان قد بقى عندهم دين، وشوهوا جلال الربوبية فى معتقداتهم إن بقى لهم اعتقاد فى إله، وانحطوا فى سلوكياتهم إلى ما دون الحيوانية بكثير من

---

(١) [صحيح] الترمذى فى «التفسير» (٤٩)، وصححه الألبانى فى «صحيح الترمذى» (٢٦٠٨ - ٣٥٠١).

(٢) [صحيح] البخارى (٤/ ٥٨)، ومسلم (٣٤/ ٢٤٠٦).

(٣) [صحيح] البخارى (٤/ ٢٠٧)، والترمذى (٢٦٦٩).

الدرجات، وتجبروا على الخلق بما لديهم من وسائل الغلبة المادية فى وقت انحسر فيه المسلمون، وتشتتوا، وتشرذموا، وانقسموا على أنفسهم فتخلفوا علميّا وتقنيّا وفى كل منحى من مناحى الحياة المادية، وبقى الخطر الغربى يتهددهم ويتهدد أهل الأرض أجمعين بغلبته العلمية والتقنية والمادية وانحساره الدينى والأخلاقى والسلوكى، ولم يبق لنا وللعالم كله من خلاص إلا بالعودة إلى دين الله وسنة رسوله ﷺ، والقيام بواجب التبليغ بدين الله، ومن أيسر وسائله إثبات الإعجاز العلمى للقرآن الكريم ولسنة خاتم الأنبياء والمرسلين، وذلك بتشجيع البحوث العلمية فى هذا المجال على مختلف المستويات، ووضع المناهج والمقررات المناسبة لتدريسه لمختلف المراحل التعليمية، وتحديد الضوابط اللازمة للتعامل مع هذه القضية، والتنسيق بين الأفراد، والجمعيات، والهيئات، والمنظمات المهتمة بها، وإصدار الدوريات والمؤلفات المفصلة لمختلف قضايا الإعجاز باللغات العربية والأجنبية وعقد المؤتمرات المحلية والعالمية من أجل التعريف بهذه القضية، وانطلاقًا من ذلك كله كان هذا الكتاب الذى أسأل الله - تعالى - أن ينفع به آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

***

ثبت بالمراجع

أولاً: القرآن الكريم وعلومه:

١ - **الألوسي**: أبو الفضل شهاب الدين محمود شكرى (ت ١٢٧٠ هـ): «روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى» - إدارة الطباعة المنيرية -القاهرة (بدون تاريخ)، دار الفكر - بيروت (١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨م)، دار إحياء التراث العربى/ الحلبى/ مصر (ط ٤) ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م.

٢ - **ابن أبى الإصبع، العدوانى المصرى**: «بديع القرآن» - القاهرة (١٣٧٧ هـ/ ١٩٥٧م).

٣ - **ابن حزم الأندلسى، على بن أحمد بن حزم الظاهرى**: «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» وبهامشه الملل والنحل للشهرستانى، المطابع الأميرية - القاهرة (١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م).

٤ - **ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد**: «المقدمة» - القاهرة (١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م)؛ دار الفكر - بيروت (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م)؛ دار الشعب - القاهرة بتحقيق د. على عبد الواحد وافى (بدون تاريخ).

٥ - «ديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والعجم والبربر» - بيروت (١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م) - (١٣٨١هـ/ ١٩٦١م).

٦ - **ابن سلام، أبو عبيد القاسم (ت ٢٢٤هـ)**: «فضائل القرآن» - دار الكتب العلمية - بيروت (١٤١١هـ/ ١٩٩١م).

٧ - **ابن عاشور، محمد الطاهر**: تفسير «التحرير والتنوير»، الدار التونسية للنشر - ونس (١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

٨ - **ابن العربى، أبو بكر محمد بن عبد الله (ت ٥٤٣)**: «أحكام القرآن»، مطبعة دار السعادة - القاهرة - (١٣٣١هـ/ ١٩١٢م).

٩ - **ابن عطية الأندلسى، أبو محمد عبد الحق بن غالب (ت ٥٤٦هـ)**: «المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز» (نشر رئاسة المحاكم الشرعية بقطر - الدوحة) (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)؛ دار الكتب العلمية (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م) توزيع دار الباز بمكة المكرمة.

١٠ - **ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت ٧٧٤هـ)**:«تفسير القرآن العظيم» (٤ أجزاء)؛ مطبعة الاستقامة - القاهرة (ط ٢)، (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م).

١١ - «فضائل القرآن» - مطبعة المنار - (القاهرة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م).

١٢ - **أبو حيان الأندلسى، أبو عبد الله محمد بن يوسف**: «تفسير البحر المحيط» - مطبعة دار السعادة - القاهرة - (١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م)، دار الفكر - بيروت (ط ٢) (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

١٣ - **إمام، محمد سعيد**: «حديث الإسلام عن الأشجار» المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر - (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

١٤ - **أبو السعود، محمد بن محمد العمارى**: تفسير أبى السعود المعنون «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» (جزءان)، المطبعة الأميرية - بولاق - القاهرة - (١٢٧٥هـ/ ١٨٥٨م).

١٥ - **الباقلانى، القاضى أبو بكر محمد بن الطيب (ت٤٠٣هـ)**: «إعجاز القرآن» - تحقيق أحمد صقر، المطبعة السلفية، (القاهرة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م)؛ ومصطفى الحلبى (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، وعالم الكتب - بيروت (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

١٦ - **البغوى، أبو محمد الحسين**: تفسير البغوى المسمى «معالم التنزيل» - تحقيق خالد عبد الرحمن العك، ومروان سوار، دار المعرفة - بيروت (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).

١٧ - **البقاعى، برهان الدين بن عمر**: «نظم الدرر فى تناسب الآى والسور»، دار الكتاب الإسلامى - القاهرة (ط ٢)، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، دار الكتب العلمية- بيروت (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).

١٨ - بنت الشاطئ **(عائشة عبد الرحمن)**: «الإعجاز البيانى للقرآن الكريم ومسائل ابن الأزرق: دراسة قرآنية، لغوية، وبيانية»، دار المعارف (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، الطبعة الثانية (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، الطبعة الثالثة (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

١٩ - «التفسير البيانى للقرآن الكريم» (فى جزأين) - دار المعارف - القاهرة (١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م).

٢٠ - **البيضاوى، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازى**: «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (جزءان)، المطبعة العثمانية - القاهرة (١٣٠٥هـ/ ١٩١٠م).

٢١ - **البيومى، محمد رجب**: «البيان القرآنى» - الدار المصرية اللبنانية - القاهرة (١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م).

٢٢ - **التجيبى، أبو يحيى محمد بن صمادح**: «مختصر تفسير الإمام الطبرى» - دار الفجر الإسلامى - دمشق (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).

٢٣ - **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥هـ)**: «الحيوان»: تحقيق عبد السلام محمد هارون؛ مكتبة الخانجى - القاهرة؛ دار الرفاعى بالرياض (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

٢٤ - **الجرجانى، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت ٤٧١هـ)**: «دلائل الإعجاز»، قراءة وتعليق محمود محمد شاكر، مطبعة الخانجى - القاهرة (ط ٢)، مطبعة المنار - القاهرة (١٣٣١هـ/ ١٩١٢م)، أعيدت طباعته بالاتفاق بين مكتبتى الخانجى والأسرة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).

٢٥ - «الرسالة الشافية فى إعجاز القرآن» نشرت ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز، تحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام - دار المعارف - القاهرة

(١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، ونشرت هذه الرسائل فى سلسلة بعنوان «من ذخائر العرب».

٢٦ - **الجسر، نديم:** «قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن»، توزيع دار العربية - بيروت - الطبعة الثالثة (١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م). منشورات المكتب الإسلامى - بيروت (الطبعة الأولى: ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م).

٢٧ - **جوهرى، طنطاوى (ت ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م):** «الجواهر فى تفسير القرآن الكريم» (المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات) - (فى ٢٦ جزءًا، ١٣ مجلدًا) مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر - (١٣٤٠هـ/ ١٩٢٠م) (الطبعة الثانية: شوال ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م).

٢٨ - **حوى، سعيد:** «الأساس فى التفسير» - دار السلام: القاهرة، حلب، بيروت (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

٢٩ - **الخازن، علاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادى الصوفى:** تفسير الخازن المعنون «لباب التأويل فى معانى التنزيل» وبهامشه تفسير البغوى (فى ٧ أجزاء)، المطبعة الأميرية - القاهرة (١٢٣١/ ١٢٣٢هـ) الموافق (١٨١٥/ ١٨١٦م). أعاد طباعته كلٌّ من دار المعرفة، ودار الفكر - بيروت.

٣٠ - **الخطابى، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم (ت ٣٨٨هـ):** «بيان إعجاز القرآن» مطبوع ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن بتحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف القاهرة (١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، ونشرت هذه الرسائل فى سلسلة بعنوان «من ذخائر العرب».

٣١ - **دراز، محمد عبد الله:** «النبأ العظيم: نظرات جديدة فى القرآن»، القاهرة (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م).

٣٢ - **الذهبى، محمد حسين:** «التفسير والمفسرون»، دار الكتب الحديثة - القاهرة (الطبعة الثانية: ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م).

٣٣ - **الرازى، أبو بكر فخر الدين محمد بن عمر (ت ٦٠٦هـ):** تفسير الرازى أو التفسير الكبير المسمى «مفاتيح الغيب» (فى ٨ مجلدات)، المطبعة البهية -

القاهرة (١٣٠٧هـ/ ١٣٢١هـ) الموافق (١٨٨٩م/ ١٩٠٣م)، أعادت طباعته كلٌّ من دار الكتب العلمية - طهران (١٤١١هـ/ ١٩٩٠م)، ودار الفكر - بيروت (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

٣٤ - **الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت ٦٦٦هـ)**: بترتيب السيد محمود خاطر - (الطبعة العاشرة) الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية (١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م).

٣٥ - **الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل (ت٥٠٣هـ)**: «معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم» - تحقيق: نديم مرعشلي، دار الكتاب العربي (١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م).

٣٦ - **رضا، محمد رشيد**: «تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار» - دار المنار/ القاهرة (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م)، دار المعرفة - بيروت (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).

٣٧ - **الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى (ت٣٨٦هـ)**: «النكت في إعجاز القرآن» طبع ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز بتحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام - دار المعارف - القاهرة (١٤١١هـ/ ١٩٩١م) صدرت تحت عنوان «من ذخائر العرب».

٣٨ - **الزرقاني، محمد بن عبد العظيم (ت ١٣٦٧هـ)**: «مناهل العرفان في علوم القرآن» (في جزأين) مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه/ دار إحياء الكتب العربية (١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م).

٣٩ - **الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (ت٧٩٤هـ)**: «البرهان في علوم القرآن» - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (في أربعة أجزاء)، دار إحياء الكتب العربية - الحلبي - القاهرة، (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م)؛ أعادت طباعته دار المعرفة - بيروت (١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م).

٤٠ - **الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (ت ٥٣٨)**: «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» - (في أربعة أجزاء) - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - مصر (١٣٥٤ هـ/ ١٩٣٥م)، (١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م)، (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٢م).

٤١ - **السعدى، عبد الرحمن بن ناصر:** «تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان» من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م).

٤٢ - **سعيد، عبد الستار فتح الله:** «المدخل إلى التفسير الموضوعى»، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة (الطبعة الثانية: ١٤١١هـ/ ١٩٩١م).

٤٣ - **السيوطى، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن كمال الدين - أبو بكر - الأسيوطى أو السيوطى (ت ٩١١هـ):** «الدر المنثور فى التفسير بالمأثور» (فى ستة أجزاء) مطبعة ومكتبة مصطفى البابى الحلبى وأولاده - مصر (١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م)، دار الفكر - بيروت (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

٤٤ - «الإتقان فى علوم القرآن» وبهامشه إعجاز القرآن للباقلانى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة التجارية (الطبعة الأولى: ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م)، مصطفى الحلبى (الطبعة الرابعة: ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، مكتبة دار التراث - القاهرة (الطبعة الخامسة: ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

٤٥ - **شحاته، عبد الله:** «آيات الله فى الكون، تفسير الآيات الكونية بالقرآن الكريم»، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م).

٤٦ - **الشنقيطى، محمد الأمين بن محمد المختار الجكنى:** «أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن»، مطبعة المدنى بالرياض (١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م).

٤٧ - **الشوكانى، محمد بن على بن محمد (ت ١٢٥٠هـ):** «فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير» مطبعة مصطفى البابى الحلبى - مصر (١٣٤٠هـ/ ١٩٢٠م)، (١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م)، دار الفكر - بيروت (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

٤٨ - **الصابونى، محمد بن على:** «مختصر تفسير ابن كثير» (فى ثلاثة مجلدات)، دار القرآن الكريم - بيروت (١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م).

٤٩ - «صفوة التفاسير» (فى ثلاثة مجلدات)، دار القرآن الكريم - بيروت (١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م).

٥٠ - **الطبـرى، أبو جعـفر محـمد بن جـرير (ت ٣١٠هـ)**: تفسير الطبرى المعنون «جامع البيان عن تأويل آى القرآن»، تحقيق محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر، المطابع الأميرية - بولاق - القاهرة (فى ١٥ مجلدًا)، ودار المعارف - القاهرة (١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م)، ثم طبعات تالية من نفس الدار (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م)، (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م)، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م)، (١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م)، ثم طبعة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م)، وطبعة دار الفكر ببيروت (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، وطبعة دار الحديث بالقاهرة (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

٥١ - **عبد الباقى، محمد فؤاد**: «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم»، دار ومطابع الشعب - القاهرة (١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م).

٥٢ - **العك، خالد عبد الرحمن**: «أصول التفسير لكتاب الله المنير»، مكتبة الفارابى - دمشق (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م).

٥٣ - **الغـزالى، أبو حامـد محمـد بن محـمد الغـزالى (ت ٥٠٥هـ)**: «إحياء علوم الدين»، المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة (١٣٣١هـ/ ١٩١٢م)؛ دار المعرفة - بيروت؛ دار إحياء الكتب العربية - القاهرة (١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م).

٥٤ - «جواهر القرآن»، مكتبة الجندى - القاهرة (١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م)؛ الطبعة الخامسة، دار الآفاق الجديدة - بيروت (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).

٥٥ - **الفـراء، أبو زكـريا يحـيى بن زياد (ت ٢٠٧هـ)**: «معـانى القرآن»، تحـقيق النجاتى، مطبعة دار الكتب المصرية (١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م).

٥٦ - **القاسمى، محمد جمال الدين**: «محاسن التأويل»، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م)، تعليق وتصحيح محمد فؤاد عبد الباقى.

٥٧ - **القرطبى، أبو عبـد الله محمد بن أحـمد الأنصارى (ت ٦٧١هـ)**: تفسير القرطبى المسمى بـ «الجامع لأحكام القرآن» (فى ٢٠ مجلدًا) دار الكتب المصرية (١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م)، (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م)، (١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م)، (١٣٨٧هـ/

١٩٦٧م)؛ دار القلم بيروت (١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م)؛ دار الكتب العلمية - بيروت (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)؛ دار الفكر - بيروت (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

٥٨ - **القطان، مناع خليل**: «مباحث فى علوم القرآن»، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).

٥٩ - قطب، سيد: «فى ظلال القرآن» (فى ستة مجلدات)، دار الشروق، بيروت (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م).

٦٠ - **قطب، سيد**: «التصوير الفنى فى القرآن»، مكتبة وهبة - القاهرة (١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م).

٦١ - **كنعان، محمد أحمد**: «قرة العينين على تفسير الجلالين» المكتب الإسلامى: بيروت، دمشق (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

٦٢ - **لجنة القرآن والسنة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية - ج.م.ع.**: «المنتخب فى تفسير القرآن الكريم»، (الطبعة الثالثة) (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م). المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - ج. م. ع. القاهرة.

٦٣ - **مخلوف، حسنين محمد**: «صفوة البيان لمعانى القرآن» من منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت الطبعة الثالثة (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

٦٤ - **النسفى، أبو البركات عبد الله بن أحمد**: تفسير النسفى المعروف باسم «الإكليل على مدارك التنزيل وحقائق التأويل» (فى مجلدين) مطابع الحلبى - القاهرة (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م).

٦٥ - **المراغى، أحمد مصطفى**: «تفسير المراغى» - دار إحياء التراث العربى - بيروت (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

٦٦ - **مسلم، مصطفى**: «مباحث فى التفسير الموضوعى» دار القلم - دمشق، بيروت - الطبعة الأولى (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).

٦٧ - «مباحث فى إعجاز القرآن» - دار المنارة - جدة (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

ثانياً: الكتب العامة:

٦٨ - **بوكاى، موريس**: «القرآن الكريم، والتوراة، والإنجيل والعلم: دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة» - دار المعارف - القاهرة (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م). (Maurice Bucaille (1976): "La Bible, le Coran et la Science", Editions Seghers, 31 Rue Falguière, Paris, Cedex 15).

٦٩ - **مونسما، چون كلوڤر (مشرف على التحرير)**: «الله يتجلى فى عصر العلم» ترجمة: الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان، مراجعة: الدكتور محمد جمال الدين الفندى، الناشر: مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر والتوزيع - القاهرة (The Evidence of God in an Expanding Universe: edited by: John Clover Monsma; 1958; Pubished by G. P. Putnam's Sons, New York).

رقم الإيداع ٢٠٦٣٦/ ٢٠٠٣

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-09-1027-9

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر
☎ : ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٤
e-mail: pic@6oct.ie-eg.com